موسوعة التراث الفلسطيني

العدد الرابع

جامعة القدس المفتوحة

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

التراث الشعبي الفلسطيني

في محافظة نابلس

الإشراف العام والتحرير

أ.د. حسن عبد الرحمن السلوادي

جامعة القدس المفتوحة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

التراث الشعبي الفلسطيني في محافظة نابلس

موسوعة التراث الفلسطيني
العدد الرابع

www.qou.edu

جامعة القدس المفتوحة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

الممول الحصري

مجموعة الاتصالات الفلسطينية
معكم

رام الله - فلسطين

١٤٣٤ هـ / ٢٠١٤ م

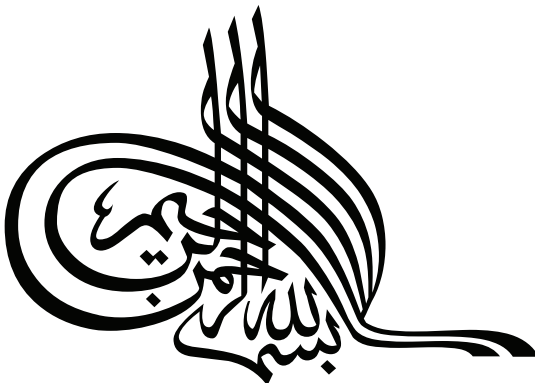
بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق التأليف والتصميم والطبع والنشر محفوظة لـ:

جامعة القدس المفتوحة

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

فلسطين/ رام الله ـ المصيون

ص.ب. *1804*

ت: *02\2984491 ـ 02\2952508*

ف: *02\2984492*

البريد الإلكتروني: *sprgs@qou.edu*

2014©

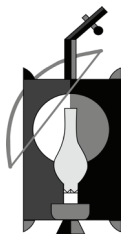

جامعة القدس المفتوحة

عمادة البحث العلمي الدراسات العليا

موسوعة التراث الشعبي الفلسطيني/ العدد الرابع

التراث الشعبي الفلسطيني في محافظة نابلس

أبحاث المؤتمر الرابع للتراث الشعبي الفلسطيني
في محافظة نابلس - هوية وإنتماء
يومي ٢٦- ٢٧/ ٣/ ٢٠١٣م

الإشراف العام والتحرير

أ. د. حسن عبد الرحمن سلوادي

عميد البحث العلمي والدراسات العليا

المحتويات

كلمات افتتاح المؤتمر: **عريف المؤتمر: أ. زيزي حسيبا**

الكلمة	اسم المتحدِّث	الصفحة
كلمة سيادة الرئيس محمود عباس- أبو مازن، راعي المؤتمر ألقاها نيابة عنه معالي رئيس ديوان الرئاسة	د. حسين الأعرج	٣
كلمة رئيس جامعة القدس المفتوحة	أ. د. يونس عمرو	٧
كلمة رئيس بلدية نابلس	المحامي/ غسان الشكعة	١١
كلمة اللجنة التحضيرية للمؤتمر	أ. د. يوسف ذياب عوّاد	١٥

أبحاث المؤتمر:

الجلسة/ المحور	اسم البحث / اسم الباحث	الصفحة
الجلسة الأولى المحور الأول: التراث الشعبي الفلسطيني في محافظة نابلس (قيم وأصالة وانتماء)	من القيم الدينية المتأصلة في المثل الشعبي (دراسة استكشافية). د. مفيد عرقوب ، د. حسين الدراويش	٢١
	التراث الشعبي الفلسطيني- الواقع المسيحي. الأب/ يوسف سعادة	٤١
	من السمات اللغوية للهجة مدينة نابلس الفلطسينية. أ. د. محمد جواد النوري	٤٧
	الملامح الأسطورية في الحكاية الخرافية (حكاية جبينة نموذجاً). أ.د. إحسان الديك	٥٩
	الشعبونة في مدينة نابلس بين التقاليد والدين. د. عمر عتيق	٧٣
	الأسواق التاريخية في مدينة نابلس. د. شامخ علاونة	٨٩
	المزارات النابلسية نفحات إيمانية وتثبيت للهوية. د. أحمد بشارات	١١١
الجلسة الثانية المحور الثاني: التراث الشعبي الفلسطيني وتجلياته في محافظة نابلس	أدب الأمثال الشعبية في المأكولات النابلسية. د. زهير إبراهيم	١٣٣
	التراث السامري في نابلس. أ. اسحاق السامري	١٤٩
	الأغنية الشعبية النابلسية. د. عبد الرؤوف خريوش ، م. طاهر باكير	١٥٣
	الحناء في التراث الشعبي الفلسطيني (نابلس نموذجاً). د. طالب الصوافي	١٧٣
	الحكاية الشعبية النابلسية. أ. سرفناس حمد	٢٠٣
	واقع المصنوعات القشية الشعبية التراثية بين الأصالة أوالانتماء والطمس والاندثار. د. إدريس جرادات	٢١٩
	طقوس الحمامات الشعبية في مدينة نابلس. أ. رائدة عيسى	٢٦٣
توصيات المؤتمر		٢٨٧
الخبر الصحفي		٢٨٩
الملاحق		٢٩٤

كلمات افتتاح المؤتمر

- كلمة سيادة الرئيس محمود عباس/ أبو مازن راعي المؤتمر، ألقاها نيابة عنه معالي د. حسين الأعرج رئيس ديوان الرئاسة.
- كلمة رئيس جامعة القدس المفتوحة.
- كلمة رئيس بلدية نابلس.
- كلمة اللجنة التحضيرية للمؤتمر.

جامعة القدس المفتوحة

كلمة

سيادة الرئيس محمود عباس ـ أبو مازن، راعي المؤتمر
ألقاها نيابة عنه معالي رئيس ديوان الرئاسة

د. حسين الأعرج

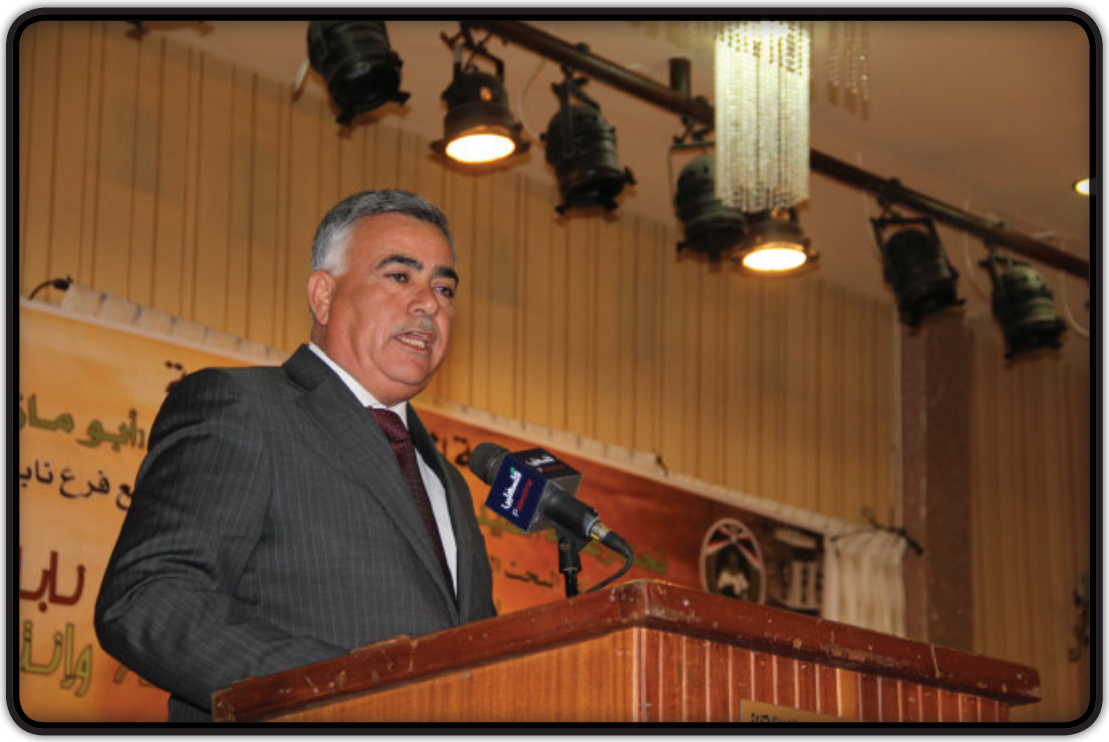

بسم الله الرحمن الرحيم

الحضور الكريم كل باسمه ولقبه،
الأخوة والأخوات الحضور،

أحييكم باسم السيد الرئيس الذي شرفني هذا اليوم بأن أمثله في هذه المدينة، وفي هذه الجامعة وفي هذا المؤتمر، وأنقل إليكم تحياته وإكباره واعتزازة **بجامعة القدس المفتوحة** واحترامه وتقديره لما تقدمه وتسهم به، واليوم أوقفتني كلمتي الهوية والانتماء، وما نضالنا إلا من أجل الهوية الفلسطينية التي جسدناها دوليّاً في الآونة الأخيرة، ومن أكبر دولة في العالم في الأسبوع الماضي عندما انحنى الرئيس الأمريكي للعلم الفلسطيني بعد أقل من أشهر معدودة من عدم تصويتهم في الجمعية العامة، ولقد كانت زيارة الرئيس الأمريكي لفلسطين زيارة دولة بكل معنى الكلمة، هذه هي الهوية، أما الانتماء فهو انتماء الشعب الفلسطيني بكل فئاته وشرائحه إلى هذة الدولة، وعلينا أن نجسد هذا الانتماء، ليس بالشعارات، بل بالعمل أيضاً.

لقد وضع الإسرائيليون في وجبة الإفطار للرئيس الأمريكي الفلافل، وهذا جزء من سرقة التراث الفلسطيني والعربي، علينا أن نجسد الهوية في مدارسنا ومصانعنا وجامعاتنا. علينا أن نجسد الدولة في بناء الفكر والاقتصاد وأما على الساحة الدولية فإننا في أقوى موقف على صعيد القضية الفلسطينية، فهناك ١٣٨ دولة صوتت إلى جانبنا، وقبلها ١٠٧ دول في اليونسكو والحبل على الجرار.

أما على المستوى الإقليمي فإننا نؤدي دوراً مهمّاً ومميزاً عندما وقفنا على مسافة واحدة من الشعوب والحكام العرب في كل ما يجري في الدول العربية، فنحن نحترم رأي الشعوب العربية دون التدخل في شؤونها.

أما على الساحة المحلية، فإننا نواجه صوبات نتيجة الانقسام الذي حصل، وهذا شيء مؤسف ونأمل أن يتوقف؛ لأنه يضعف موقفنا الدولي والإقليمي؛ وإن شاء الله أن

تنتهي لجنة الانتخابات المركزية الفلسطينية عملها قريباً وأن تضع الأمور والنتائج أمام القيادة الفلسطينية من أجل أن تقرر الانتخابات لكي يكون صندوق الاقتراع هو الفيصل لننهي هذه الفترة الصعبة من تاريخنا.

أشكر أ.د. يونس عمرو رئيس الجامعة ومدير الفرع وأسرة الجامعة، وأشكركم جميعاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أ. جبرين البكري
أ.د. يونس عمرو
رئيس جامعة القدس المفتوحة

كلمة
رئيس جامعة القدس المفتوحة

أ.د. يونس عمرو

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خير المرسلين، سيدنا محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

السادة الأفاضل على المنصة.

الصديق العزيز الدكتور حسين الأعرج ممثل رئيس دولة فلسطين المحترم.

الأخ والصديق غسان الشكعة عضو اللجنة التنفيذية رئيس بلدية نابلس المحترم.

العم الكبير الحاج منيب المصري رئيس لجنة بناء فرع نابلس العظيم.

الأخ والصديق اللواء جبريل البكري محافظ محافظة نابلس المحترم.

الصديق الكريم أ.د حسن السلوادي عميد البحث العلمي والدراسات العليا في الجامعة رئيس اللجنة التحضيرية المحترم.

الصديق الكريم أ.د يوسف ذياب مدير فرع نابلس المحترم.

الأخوة الحضور الضيوف الكرام.

أرحب بكم في هذا الصباح الجميل، ونحن نحتفي اليوم في رحاب نابلس الشمّاء العظيمة بالمؤتمر الرابع للتراث الفلسطيني العربي الإسلامي المسيحي السامري. لأننا شعب فلسطين نمثل لب الفكر العربي الإسلامي عبر العصور.

وهكذا فرض علينا أن نعيش في قلب الوطن العربي، وفي قلب العالم، بل نحن نشكل صرة الأرض إلى السماء من خلال القدس الشريف. التي اعتبرت بوابة الأرض إلى السماء، فحينما اختار الله سبحانه وتعالى نبيه عيسى عليه السلام كي يصعد به إلى مدارج السماء، كانت القدس، وحينما قدر الله سبحانه وتعالى أن يستقبل نبيه محمد صلى الله عليه وسلم اختار أيضاً القدس ليستقبله منها. فنحن شعب فلسطين كنا دائماً الأمناء على فكر العرب والمسلمين وتراثهم عبر العصور، إذ لا توجد دولة قامت وزالت في منطقتنا إلاّ كان لها أثر أو قدم على هذه الأرض.

جامعة القدس المفتوحة منذ أنشأها الذين مضوا رحمهم **الله** ورعاها الباقون أطال **الله** أعمارهم، كان الهدف منها ليس التعليم، أوالجوانب الأكاديمية فقط، وإنما كان الهدف منها النهوض بالفكر والشعور الوطني الفلسطيني، وكان فيها في كل عام وكل شهر وكل أسبوع بحث أو ندوة أو مؤتمر، في الأمس أحيت الجامعة الذكرى المئوية لمولد شاعر البطولة والجهاد الفلسطيني الشهيد الشاعر عبد الرحيم محمود، واليوم نحتفي بالمؤتمر الرابع للتراث العربي في فلسطين هذا المؤتمر التي دأبت الجامعة منذ سنوات على إحيائه سنوياً بحيث نختار كل عام محافظة لتعقدُ فيها، فكان الخيار اليوم على محافظة نابلس. نابلس تشكل المدينة العريقة في تاريخها الفكري والعلمي الفلسطيني.

فمنذ العشرينيات كانت نابلس تمتاز بمدرسة أو معهد النجاح الذي يعدَّ أساساً لجامعة النجاح الوطنية التي هي على مقربة منا. هذه الجامعة العظيمة التي أدت رسالتها على خير ما يكون . مدرسة النجاح الوطنية خرجت الأجيال المفكرة في نابلس، خرّجت الأدباء والشعراء: محمد فروخ، الشاعر عبد الرحيم محمود، قدري طوقان، أكرم زعيتر، كل هؤلاء الأسماء في تاريخ ثقافتنا وفكرنا تخرجوا من مدينة نابلس، فضلاً عن كون هذه المدينة مدينة الاقتصاد والصمود، والعمل الدؤوب بمصانعها ومتاجرها ومصابنها، وهي المدينة التي نستطيع أن نقول عنها بأنها شام فلسطين أو دمشق فلسطين.

نعقد هذا المؤتمر اليوم في رحاب هذه المدينة الشماء بأيديكم بباحثين من **جامعة القدس المفتوحة** ومن غيرها.

آملاً من **الله** العلي القدير أن يوفقنا في كل عام لعقد مثل هذا المؤتمر في محافظة أخرى، وآملاً أيضاً للباحثين بالتوفيق ليكون المؤتمر الرابع على سيرة المؤتمرات السابقة من النجاح والازدهار.

والسلام عليكم

كلمة

رئيس بلدية نـابـلـس

المحامي / غسان الشكعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحضور الكريم كل باسمه ولقبه،

نلتقي اليوم في مناسبة وفعالية مهمة تكتسب أهميتها من موضوعها، ثم من المؤسسة التي أعدت لها، ألا وهي التراث الشعبي في محافظة نابلس، وعند الحديث عن التراث فهو بالتأكيد حديث عن الجذور والحضارة والهوية وعن الوجود. يقولون إن وطناً بلا تراث أو تقاليد هو وطن بلا حضارة. فالتقاليد والثقافة والتراث والعادات هي عنوان وهوية للوطن والشعوب، وهي جزء مهم لتاريخنا. فالموروث الفني والتاريخي لأي أمة يعد الدم والعصب الأساسي المؤسس لحضارتها وبالتالي لتميزها، وعند الحديث عن تراثنا الفلسطيني، فإننا نتحدث عن وجودنا وبقائنا على هذه الأرض.

فلسطين التي قدسها الأنبياء وطهّرها القرآن وكل الكتب السماوية، وملأت تاريخها عادات ونماذج تراثية جسدت كل المعاني الإنسانية والثقافية. فلسطين الوطن والهوية والتاريخ تستحق منا أن نحافظ على هويتها وتاريخها، فهي التي كانت وما زالت مهما تعاقبت عليها حضارات وامبراطوريات وديانات مختلفة، عاشت فترات زمنية متتالية، وانتجت أنماطاً من التراث الذي نفتخر به حالياً، وسنبقى نفتخر به لاحقاً.

الأخوات والأخوة، إن أهمية هذا الموضوع يجعل من مسؤولياتنا جميعاً مسؤولية كبرى نعزز بها وجودنا وثقافتنا وهويتنا، ولا أشك لحظة بأن الوزارات والجامعات الفلسطينية والبلديات تؤدي دوراً مهمّاً في هذا المجال.

فنحن في بلدية نابلس نولي موضوع البلدة القديمة في نابلس أهمية قصوى، حيث أنشأنا وحدة خاصة تضم خبراء ومهندسين وأكاديميين لمتابعة أدق التفاصيل الخاصة في البلدة القديمة مما يبقي على طابعها التراثي والتاريخي.

وإنني أتمنى على أ. د. رئيس الجامعة و أ.د. مدير فرع نابلس أن نعمل على تشكيل فريق مشترك للعمل على تطوير البلدة القديمة، وبخاصة بعد أن نالت فلسطين عضويتها

في منظمة اليونسكو الدولية. ولعل مناسبة كهذة المناسبة التي تقوم فيها **جامعة القدس المفتوحة** مشكورة بتخصيصها لموضوع التراث الشعبي في فلسطين هو خير دليل على أهمية الموضوع والشعور بالمسؤولية من قبل مؤسسات وطنية وتعليمية.

وهنا أود أن أؤكد أهمية تسويق فلسطين إعلامياً تشجيعاً للسياحة من خلال النشرات السياحية والصور والأفلام المسجلة، ونشرها في الداخل والخارج، وتنظيم المعارض الفنية التي تشكل إضاءات مهمة لتاريخنا وتراثنا والحفاظ عليه.

وهنا أشكر جميع المختصين والأكاديميين والباحثين الذين خصصوا مساحات واسعة من عملهم لتراثنا الفلسطيني وللمؤسسات التي دعمت التراث الوطني، وبخاصه **جامعة القدس المفتوحة** ورئيسها ومدير الفرع وأسرة الجامعة داعياً لهذا المؤتمر النجاح والتوفيق.

والسلام عليكم

كلمة

اللجنة التحضيرية للمؤتمر

أ.د. يوسف ذياب عوّاد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحضور الكريم كل باسمه ولقبه،

يسعدنا أن نجتمع اليوم بكم لنفتتح أعمال مؤتمر التراث الشعبي بمحافظة نابلس برعاية كريمة من فخامة الرئيس محمود عباس في بلد عزيز على قيادتنا الشرعية عبر التاريخ الطويل ، إنها مدينة نابلس، المدينة الشهباء حيث الصابون يغسل فيها تعب السنين، وحلويات تمدنا بمذاق فريد، بعيش رغيد في بلد مزدهر يشكل رافعة التنمية في فلسطين بما يتقاطع واهتمام جامعة فلسطينية ممتدة بامتداد الوطن، جامعة وارفة، يتفيأ ظلالها الظامئون للعلم والمعرفة هنا في نابلس حيث بدأت الحياة وغذاء العقل، نابلس راية العلماء وقصة الأدب ونابغة الشعر وعراقة الإبداع، نابلس بدايات التاريخ المنقوشة على طلاسم الماضي العتيق، ليس في أزقتها وحاراتها فحسب، بل في طقوسها وعاداتها وخصوصيتها المميزة أيضاً.

نلتقي اليوم لنتدارس جميعاً التراث الشعبي في مدينة محافظة نابلس، مدينة وقرى ومخيمات، كي نشخص واقع الحال، ونسهم جميعاً في استنهاض أصالتنا، وإعمار بيوتنا العتيقة لتكون شاهدة على أمجادنا، ألا يكفينا بأن ظلت الخابية بلا خير منذ نكبتنا؟ وظل الغربال باكياً على البيدر واختفى المسحراتي بصوته الأليف عن لقمة الصائم، كما غاب النازل عن السوق، وأصبح السوق بلا نازل، وتلاشت الأحاجي والألغاز عن معترك التحدي بين الذات والذات، فانطمست الحكايات والأمثال، وابتعدت الأمثال عن قاموس الحياة التي جسدتها حكمت الشيوخ.

إن **جامعة القدس المفتوحة** إذ تشمخ اليوم بكم شموخ جرزيم وعيبال كي تعانق جبال القدس والخليل وثرى غزة هاشم لتصنع مجداً تستمده منكم، ومن صلب اهتمامكم وانتمائكم وتعاونكم لترى أن الشراكات المجتمعية بوصلتنا نحو التقدم والازدهار للغد المشرق المنسوج عبقاً من ربوع عاداتنا وقيمنا وأخلاقنا التي تؤثر

الآخرين وتنصف المظلوم، وتسعف المكلوم وتحترم الضيف، وتفرح بفرح الجار، وتبتئس لأي مكروه.

الحفل الكريم

أود أن أشكر **جامعة القدس المفتوحة** ورئيسها على هذا الجهد المميز، كما أقدر عالياً دور شركة جوال لدعم هذا المؤتمر الهادف، وأن أشكر جميع من ساهم في إنجاح ودعم هذا المؤتمر من الجامعة ومن محافظة نابلس وخارجها.

بكم يعمر البيت وبكم نكمل المشوار، ويا هلا ويا مرحبا والسلام عليكم.

والسلام عليكم

جامعة القدس المفتوحة
تحت رعاية السيد الرئيس محمود عباس "أبو مازن"
بمقر عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالتعاون مع فرع نابلس
المؤتمر التراثي الرابع بعنوان:
الشعبي الفلسطيني في محافظة نابلس
منية نابلس

الجلسة الأولى

المحور الأول: التراث الشعبي الفلسطيني في محافظة نابلس (قيم وأصالة وانتماء)

- من القيم الدينية المتأصلة في المثل الشعبي (دراسة استكشافية).

د. مفيد عرقوب ، د. حسين الدراويش

- التراث الشعبي الفلسطيني ـ الواقع المسيحي.

الأب/ يوسف سعادة

- من السمات اللغوية للهجة مدينة نابلس الفلطسينية.

أ. د. محمد جواد النوري

- الملامح الأسطورية في الحكاية الخرافية (حكاية جبينة نموذجاً).

أ.د. إحسان الديك

- الشعبونة في مدينة نابلس بين التقاليد والدين.

د. عمر عتيق

- الأسواق التاريخية في مدينة نابلس.

د. شامخ علاونة

- المزارات النابلسية نفحات إيمانية وتثبيت للهوية.

د. أحمد بشارات

من القيم الدينية المتأصلة في المثل الشعبي في محافظة نابلس "دراسة استكشافية"

د. مفيد عرقوب *
د. حسين الدراويش **

* أستاذ مساعد في اللغة العربية/ محاضر غير متفرغ/ جامعة القدس المفتوحة/ فرع رام الله والبيرة.
** أستاذ البلاغة المشارك/ دائرة اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة القدس/ أبو ديس/ فلسطين.

من القيم الدينية المتأصلة في المثل الشعبي في محافظة نابلس "دراسة استكشافية"

ملخص:

القيم الدينية هي أسمى ما يحمله الإنسان المؤمن في قلبه، فالمؤمن يقدم روحه رخيصة من أجل القيم التي يحملها. من هنا كانت هذه الدراسة التي تحمل عنوان «(**من القيم الدينية المتأصلة في المثل الشعبي في محافظة نابلس، دراسة استكشافية**)، إذ تعالج هذه الدراسة سبع قيم دينية من خلال الأمثال الشعبية الذائعة على ألسنة الناس في محافظة نابلس. وقد جاءت الدراسة في ملخص ومقدمة وتمهيد وفصل واحد وخاتمة.

تعرَّض الباحثان في التمهيد إلى تعريف القيم،وبيّنا خصائصها، وعرّفا المَثَلَ، وبيّنا أهميته.

وفي فصل الدراسة تقصيا سبع قيم دينية متأصلة في مدينة نابلس، من خلال الأمثال الشعبية، التي جاءت على صورة التشبيه البليغ، وهذه القيم هي: ((الأمانة، والثبات، والتقوى، والحياء، والمسامحة، والصبر، والصدق)).

وقد توصلت الدراسة في الخاتمة إلى أن هذه القيم المتأصلة في مدينة نابلس، والتي تعبر عنها هذه الأمثلة، هي أعز ما يملكه أهل نابلس الكرام، وأنفس ما يتمسكون به، وهذه القيم تشكل صمام أمان لهذه المدينة، وتحافظ على التوازن الاجتماعي فيها، وتعطيها صفتها الحضارية العربية والإسلامية.

فالأمانة بها تحفظ الأرواح والأموال والأعراض وحقوق الناس، وبالثبات ترسخ قدم المرء في الحق وتثبت عليه، وفي التقوى كل الأسرار والأنوار، والحياء كله خير، والمسامحة تزيل الضغائن، وتنقي المجتمع من الأحقاد، والصبر نور، والصدق ضياء ومنجاة.

وهكذا فالمثل الفلسطيني النابلسي، خلاصة حكمة، وروح فكرة، وعصارة تجربة.

مقدمة:

الحمد لله وكفى، وأتم الصلاة والسلام على النبي المصطفى وبعد:

فإن القيم الدينية النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والمتأصلة في نفوس الشعب الفلسطيني في محافظات فلسطين جميعها هي المنظم الوحيد لحياتنا في فلسطين، ولا يستطيع أحد الخروج عن هذه القيم ـ أو تجاوزها، أو الاستغناء عنها.

وهي ذات أهمية بالغة الخطورة في حياة الفرد والمجتمع، وتمتاز هذه القيم بالثبات والديمومة، والتأثير الشديد في نفوس الناس، وهي تعمل عمل الموجهات للعقل إلى عمل الخير، وتجنب الشر.

من هنا كانت هذه الدراسة.

دوافع الدراسة:

ثمة دوافع أخرى لهذه الدراسة غير الدافع السابق منها :

١. عدم وجود دراسة سابقة في هذا الموضوع.

٢. محاولة اكتشاف شيء من هذه القيم

٣. معرفة أدلة هذه القيم الشرعية التي تكمن في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، التي تشرب منها المثل الفلسطيني النابلسي فكرته ومعناه.

حدود الدراسة:

ولما كانت القيم الدينية المستوحاة من الشريعة الإسلامية كثيرة ومتنوعة، والأمثال الشعبية في فلسطين بعامة، وفي نابلس بخاصة أيضًا كثيرة ومتنوعة، لما كان الأمر كذلك قام الباحثان بتحديد موضوع الدراسة وحصرها في سبع قيم فقط، وفي محافظة نابلس فقط.

مناهج البحث في الدراسة:

وقد سلك الباحثان مناهج عدة في هذه الدراسة منها:

١. منهج الرواية الشفوية عن طريق سماع بعض الأمثلة عن ألسنة المواطنين في محافظة نابلس وقراها.

٢. المنهج البرهاني في إقامة الأدلة من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية الشريفة على القيم الدينية الواردة في هذه الأمثال.

٣. المنهج التحليلي: في تحليل القيم الواردة في هذه الأمثال.

فصول الدراسة:

وهكذا جاءت الدراسة في ملخص، ومقدمة وتمهيد وفصل واحد فقط وخاتمة، وثلاثة مسارد.

أما التمهيد: فقد تضمن سبع نقاط هي:

- التعريف بالقيم
- شروط تحمل المسؤولية القيمية
- من صفات القيم
- التعريف بالمثل
- أهمية المثل
- الأمثال الشعبية الفلسطينية
- الأمثال الشعبية الفلسطينية في محافظة نابلس

وأما فصل الدراسة فقد تضمن سبع قيم متأصلة في الأمثال الشعبية هي :

- الأمان، والثبات، والتقوى، والحياء، والمسامحة، والصبر، والصدق، وأما الخاتمة فقد تضمنت النتائج والتوصيات.

وأما المسارد فهي: مسرد الحواشي، ومسرد المصادر والمراجع، ومسرد المحتويات.

وقد توصلت الدراسة إلى أن هذه القيم الدينية التي أُصّلت في المثل الشعبي الفلسطيني النابلسي لها أهمية عظمى في حياة الناس في فلسطين عامة، وفي نابلس بخاصة، فهي تحقق للمجتمع أمنًا وأمانًا وطمأنينة، يتوارثها الأبناء والأجداد جيلاً بعد جيل.

هذا جهد المقل في هذا البحث، فإن أحسنّا فمن توفيق **الله** –عز وجل– وإن كان غير ذلك، فنرجو من **الله** تعالى الغفران، ومن القُرّاء المسامحة.

التمهيد:

أولاً ـ التعريف بالقيم:

القيم هي:» كل الصفات ذات الأهمية البالغة للنواحي النفسية، أو الأخلاقية، أو الجمالية، أو الدينية، وتتصف بالصبغة الجماعية،وتعمل موجهات للعقل،شأنها في ذلك شأن الاتجاهات» [١].

مما سبق نستنتج أن اسم القيم اسم يطلق على كل شيء له قيمة عند الإنسان، ويؤثر في سلوكه، ويرتبط بنفسيته، وأخلاقه، ودينه، ويكون دافعًا له إلى فعل الخير، أو رادعًا له عن فعل الشر.

ثانيًا ـ شروط تحمل المسؤولية القيمية:

وترتبط القيم ارتباطًا وثيقًا بعلاقة الإنسان بخالقه، وبغيره، ومن هنا تتحدد مسؤولية الإنسان، وحتى يصبح الإنسان مكلفًا يتحمل المسؤولية، فلا بد من شروط موضوعية يجب أن تتوافر في الإنسان ليتحمل المسؤولية، **وهذه الشروط هي:**

أ. **الأهلية**: وتعني أن يكون الإنسان أهلاً لتحمل المسؤولية؛ أي أن يكون بالغًا عاقلاً، ولذلك تسقط المسؤولية عن الطفل حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يعقل، وعن النائم حتى يستيقظ.

ب. **القدرة**: فالقدرة على النهوض بالتكليف الأخلاقي هي من أهم أسس الإلزام والالتزام، فإذا فقدت أصبح الإلزام والالتزام معدومين.

ت. **الإرادة**: فإرادة الإنسان تحدد نوعية الفعل أو القول، الذي يفعله أو يقوله، وأي عمل يتم بلا إرادة، لا يمكن تحميل صاحبه ما يترتب عليه.

ث. **النية**: فالنية تحدد قصدية العمل أو القول، وعلى أساس النية تحدد المسؤولية كاملة، إيجابية كانت أم سلبية.

ج. **الحرية**: هي أصل الأصول في العدل، فلا تترتب مسؤولية على إنسان فاقد للحرية، فالحرية مقوم رئيس من مقومات النهوض بالمسؤولية.

وإذا توافرت الشروط الخمسة السابقة في الإنسان؛ أي إذا كان ذا أهلية، وقدرة على العمل، وذا إرادة، وحسن نية، وحرًّا، فعندئذ تتخذ القيم في حياته صفة الإلزام والثبات الديمومة.

ثالثاً ـ من صفات القيم:

للقيم صفات عدة منها:

- الثبات والديمومة، فهي دائمة الحضور في نفوس أصحابها، وتتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل.

- الإلزام، فلا يستطيع أحد الخروج عليها، فهي متأصلة في عروق الناس ووعيهم، وهي مرجعيتهم في الوئام والخصام.

رابعاً ـ التعريف بالمثل:

أ. تعريف المثل لغة: المثل هو « النظير والشبيه»[٢]

ب. تعريف المثل اصطلاحًا: عرفه أحمد أمين بقوله: « هو نوع من أنواع الأدب، يمتاز بإيجاز اللفظ، وحسن المعنى، ولطف التشبيه، وجودة الكتابة، ومزية الأمثال في أنها تنبع من كل صفات المجتمع « [٣].

إذن فالمثل قول موجز يحمل فكرة، أو خبرة من خبرات الحياة، تحدث كثيرًا في أجيال متكررة، ممثلة كل الحالات الأخرى المتشابهة، فمضرب المثل يشبه مورده، والحالة الأولى التي قيل فيها.

خامساً ـ أهمية المثل:

«لقد أصبح المثل جزءًا من الفولكلور الذي أصبح نجمًا متألقًا على مسرح الحركة العلمية في بلاد العالم كافة « [٤]. ولا تتوقف أهمية الأمثال على الفولكلور فحسب، بل إن للأمثال أهمية كبرى من النواحي اللغوية والحضارية والتربوية والترفيهية والوطنية والجمالية، وغير ذلك.

- فمن الناحية اللغوية يشكل المثل شاهدًا لغويًّا يرتقي إلى مرتبة الشاهد الشعري، ويتفوق عليه بالإيجاز والقصر.

- ومن الناحية الحضارية فالمثل مرآة صادقة لحياة شعب ما، وطرائق تفكيره.

- ومن الناحية التربوية فتتضمن الأمثال حكمًا بالغة، هي خلاصة التجربة الإنسانية، وهي تساهم في تهذيب الأجيال، وتقويم الأخلاق، وربما يعمل المثل في النفس ما تعجز عن عمله محاضرة كاملة.

- ومن الناحية الترفيهية فالأمثال وسيلة للتفكه والتندر بين الناس في أسمارهم ومنتدياتهم.

ومن الناحية الجمالية فالأمثال زينة الكلام، وواسطة عقده، وروحه، لا سيما إذا تحلّت بأسلوب بلاغي خلاب.

- ومن الناحية الوطنية فالأمثال تربط حاضر الشعب بماضيه، وتخطط لمستقبه، وهي جزء أصيل من التراث، الذي تنعكس فيه ملامح الوطنية.

من هنا كانت الأهمية العظمى للأمثال في الفصحى وفي الدارجة، فالأمثال ثمرة مواقف مقرونة بحكايات، حفرت في جدار الزمن، وتأصلت في عقول البشر، وكل مثل يشكل مستودع ذكرى، أو ومضة فكر، أو حكمة عقل [٥].

سادساً ـ الأمثال الشعبية الفلسطينية :

الأمثال الشعبية الفلسطينية كثيرة ومتنوعة، وهي نتاج تلاقي وتداخل كل من الدين والتاريخ والجغرافيا والأدب والاقتصاد والعادات والتقاليد والسياسة وغير ذلك، وعندما تختمر هذه العوامل مجتمعة في ذاكرة الشعوب، يخرج للوجود المثل في قليل من الكلمات وكثير من المعاني.

وللأمثال الفلسطينية أهمية خاصة تتجلى في النقاط الآتية :

- تعكس أحاسيس الشعب الفلسطيني، ونبض الشارع، وجميع طبقات المجتمع.
- تعبر عن قيم دينية وأخلاقية رشحت إليها من الشريعة الإسلامية.
- لها أهمية اجتماعية وتربوية وسلوكية، إذ تكون ضابطًا سلوكيًّا مميزًا، ومنهجًا أخلاقيًّا لعامة الشعب.

وتجتمع في المثل خمسة أمور لا تجتمع في غيره هي [٦] :

- الإيجاز في اللفظ، والأصالة في المعنى، والحسن في التشبيه، والجودة في البلاغة، وسهولة الانتشار بين الناس

الأمثال الشعبية في محافظة نابلس:

الأمثال الشعبية في مدينة نابلس هي امتداد للأمثال الشعبية الفلسطينية على وجه العموم، وهي محاولة قصدية لإبراز الفكرة من خلال الصورة المثلية، مع إبراز الحقيقة المرادة من المثل.

وسنتعرض في هذه الدراسة لسبعة أمثال من أمثال محافظة نابلس وسنعالجها على النحو الآتي:

- أولاً– المثل.
- ثانياً– تفصيحه متى ما كان ذلك ضروريًّا.
- ثالثاً– دلالته.
- رابعاً– مناسبته.
- خامساً– بلاغته.
- سادساً– القيم الدينية المتأصلة فيه.

من القيم الدينية المتأصلة في المثل الشعبي في محافظة نابلس:

١. من الأمثلة الدالة على الأمانة:

- **أولاً– المثل:** « الأمانة كنز لا يفنى »[٧].
- **ثانياً– دلالته:** يضرب هذا المثل للدلالة على أهمية الأمانة وبركتها، وانعكاساتها على صاحبها.
- **ثالثًا: مناسبته:** يُقال كلما بدرت خيانة ما ؛ تذكيرًا للخائن بأهمية الأمانة، وكلما ظهرت أمانة ما تشجيعًا للأمين ومدحًا له.
- **رابعًا: بلاغته:** هذا المثل من التشبيه البليغ، الذي حذفت فيه أداة التشبيه ووجه الشبه، وبقي المشبه (الأمانة)، والمشبه به (الكنز)، وجملة الصفة (لا يفنى) التي تدل على سرمدية وأبدية، إفادة الأمانة، وعدم فناء فضائلها وبركاتها وخيراتها وحسناتها وعوائدها على أصحابها.
- **خامسًا: القيم الدينية المتأصلة في المثل:** هذا المثل يحض على الأمانة، والتخلق بأخلاقها، والقرآن الكريم عظَّم من قيمة الأمانة . قال تعالى: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إن كان ظلومًا جهولاً**﴾[٨] .

يقول الشوكاني: « والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح» [٩] .

وقال تعالى: ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون**﴾ (١٠) . يقول القرطبي: « والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس، والمواعيد، وغير ذلك، وغاية ذلك حفظه والقيام به « [١١] . وقد عُرّف المؤمن بأنه: « من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» [١٢] .

وحقًّا إن الأمانة كنز لا يفنى، فهذه القيمة إذا تمكنت من صاحبها أصبحت سجية عنده وطبيعة، يفيد الناس ويحرص على دمائهم وأموالهم كما يحرص على نفسه .

٢. من الأمثلة الدالة على التقوى :

- **أولاً**: **المثل**: « التقوى لقوى» [١٣] .
- **ثانياً**: **تفصيحه**: التقوى وقاية أو جُنَّة .
- **ثالثاً**: **دلالته**: الحض عل التمسك بالتقوى في الظاهر والباطن، وفي كل وقت وحين، ومدح لقيمة التقوى والتقيّ .
- **رابعاً**: **مناسبته**: يقال هذا المثل إما تشجيعًا على التقوى، أو في معرض مدح التقيّ، وتعليل الناجح في حياته، فيعللون سبب ذلك بتقوى الله ومخافته .
- **خامساً**: **بلاغته**: هذا المثل جاء عل صيغة التشبيه البليغ الذي يمتاز بالإيجاز مع الوفاء بالمعنى المراد .
- **سادساً**: **القيم الدينية المتأصلة فيه**:

هذا المثل ينم عن قيمة عظيمة وهي قيمة التقوى، فالتقوى هي فرع الإيمان، وقصره المرتفع البنيان، ودليل الإيقان، ومفتاح السعادة، وسبب الفتح والزيادة، والمعارف والإفادة، وقد أمر الله –عز وجل– بها في كثير من آيات القرآن الكريم . قال تعالى: ﴿**وإياي فاتقون**﴾[١٤].

و ﴿**واتقوني يا أولي الألباب**﴾[١٥]، و ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم**﴾ [١٦]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تحض على التقوى، وقد وردت في القرآن الكريم فيما يقرب من مائتي موضع .

وحقّاً ما ورد في المثل، فللتقوى ثمار كثيرة منها :

- فتح بركات من السماء والأرض على المتقين، قال تعالى: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾ [١٧] .

- ومن ثمارها أن الله يجعل لمن اتصف بها من كل ضيق مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب. قال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾(١٨).

- ومنها تكفير السيئات وتعظيم الأجر . قال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا**﴾ (١٩).

- ومنها أن يجعل للمتقي من أمره يسرًا . قال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا**﴾ (٢٠).

- ومنها أن من يتقي الله يحبه الله، قال تعالى: ﴿**إن الله يحب المتقين**﴾ (٢١).

- ومنها أن الله يكون مع من يتقيه . قال تعالى: ﴿**أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ (٢٢).

- وأخيرًا إن من يتقي الله يكن من الفائزين . قال تعالى: ﴿**وينجّي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسسهم السوء ولا هم يحزنون**﴾ (٢٣).

٣. من الأمثلة الدالة على الثبات:

- **أولاً– المثل**: الحجر مطرحُه قنطار، وإن تزحزح بصير وقية « (٢٤).
- **ثانياً– تفصيحه**: الحجر في مكانه يزن قنطارًا، وإن تزحزح من مكانه صار أوقية.
- **ثالثاً– دلالته**: يدل على الثبات والصمود، ولا سيما في البأساء والضراء، وعند اشتداد الخطر.
- **رابعاً– مناسبته**: يقال لمن غلبت عليه الزعزعة وحب التحول من حال إلى حال، وقد يكون التحول إلى أسوأ لا إلى أحسن.
- **خامساً– بلاغته**: المثل جاء على صيغة التشبيه البليغ مؤديًا المعنى المراد منه بأبلغ عبارة.
- **سادساً– القيم الدينية المتأصلة فيه**:

هذا المثل يحض على الثبات في الأمور كلها، وعدم التزعزع والتضعضع في وجه النائبات، مع المداومة على فعل الخيرات، والسعي للاستزادة منها.

وللثبات عدة صور منها:

- الثبات في المعركة، كما ثبت الرَّبِّيُّون في المعركة مع أنبيائهم وكان قولهم: «ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا «[٢٥]. والفئة الصابرة بإمرة طالوت لما برزوا قال تعالى: ﴿**ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرج علينا صبرًا وثبت أقدامنا** ...﴾ [٢٦]. وخوطب أبناء هذه الأمة بأمر الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا**..﴾ [٢٧].

- ومن الكبائر في ديننا الحنيف الفرار من الزحف، ولقد كان من الوصايا العشر التي أوصى بها الرسول –صلى الله عليه وسلم– معاذ بن جبل: ((... وإياك والفرار من الزحف، وإن هلك الناس، وإذا أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت)) [٢٨].

- وقال شداد بن أوس: ((كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يعلمنا كلمات ندعو بهن في صلاتنا: الله إني أسالك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد))[٢٩] .

والثبات مظهر بارز للاستقامة ؛ لأن المتذبذب لا يستقر على حال، ولا يقدر على الثبات، ولا يقوى على الاستقامة. من هنا كانت تلك القيم التي استقى ذلك المثل معناه منها .

ومن الأمثلة الأخرى التي تقال في الموضوع ذاته: « من ثبت نبت» ؛ إشارة إلى أن المتعجل كالشجرة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. فالثبات يزيد المؤمن قوة، ويوقع في نفوس العدو الرهبة، وعدم الثبات يخذل الصديق، ويشمت العدو.

٤. من الأمثلة الدالة على الحياء:

- **أولاً– المثل**: « الحياء كله خير».
- **ثانياً– دلالته**: يدل على قيمة الحياء وأهميته في المجتمع الفلسطيني .
- **ثالثاً– مناسبته**: يقال عندما تظهر الأخلاق الذميمة من سفور، وغير ذلك، ويقولون :» أهل الحياء ماتوا» ؛ استنهاضًا لقيمة الحياء في النفوس.
- **رابعاً– بلاغته**: جاء هذا المثل أيضًا على صيغة التشبيه البليغ المكون من المشبه، وهو (الحياء)، والمشبه به، وهو (الخير)، والتوكيد المعنوي في كلمة (كله)، التي زادت الحياء قيمة وأهمية .

- **خامساً- القيم الدينية المتأصلة فيه:**

هذا المثل يحمل في طياته قيمة دينية سامية، ألا وهي الحياء، الذي يسميه العوام (بالخجل)، والحياء الممدوح هو: «خلق يبعث على ترك القبيح»[٣٠]، والتمسك بكل ما هو مليح. وكم يحتاج الناس اليوم إلى إحياء هذه القيمة، وهذا الخلق بالالتزام بالحق، والارتداع عن الوقوع في القبائح أو الشبهات بشيء من الحياء. وقد كان رسول **الله** –صلى **الله** عليه وسلم: ((أشد حياء من عذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئًا رُئِيَ ذلك في وجهه[٣١].

وللحياء فوائد جمة منها:

- الحياء يحمل صاحبه على الوقار، بأن يوقر غيره، ويتوقر هو في نفسه .
- الحياء يحجز النفس عن كثير من خوارم المروءة .
- الحياء يقي من الوقوع في المعاصي.
- الحياء من الإيمان، كما ورد في الحديث: ((فإن الحياء من الإيمان)) [٣٢].
- وأعلى درجات الحياء الاستحياء من **الله**، فالمؤمن يستشعر رقابة **الله** عليه، وأن **الله** تعالى يراه في جميع أحواله، فإنه يستحي من ربه، وقد ورد في التستر في الخلوة قول رسول **الله** –صلى **الله** عليه وسلم–: ((**الله** أحق من أن يُستحيا)) [٣٣].
- ويكفي من فضيلة قيمة الحياء وأثره، أن الأنبياء السابقين قد حذّروا من كسر حاجز الحياء؛ لئلا يقع المرء في كل القبائح بلا رادع، ولا وازع، كما في الحديث الشريف: ((إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فافعل ما شئت))[٣٤] . ومن وجوه فهم هذا الحديث: أن فاقد الحياء فليصنع ما يشاء، ولينظر بعدئذ ماذا يفعل **الله** به !!
- وأخيرًا: الحياء خلق دين الإسلام، قال صلى **الله** عليه وسلم: ((إن لكل دين خلقًا، وخلق الإسلام الحياء)) [٣٥].

٥. من الأمثال الدالة على المسامحة :

- **أولاً- المثل**: «المسامح كريم» [٣٦] .
- **ثانياً- دلالته**: يدل على قيمة المسامحة، فمن سالم الناس سلم، ومن عفا عنهم غنم، ومن أحسن صحبتهم ما ندم .
- **ثالثاً- مناسبته**: يقال عند المشاجرة والخصام، كحكمة تردع الخصوم عن الاستمرار في الشجار .

▪ **رابعاً- بلاغته**: يتكون المثل من مبتدأ، وهو (المسامح)، ومن خبر، وهو (كريم)، وجاء على التشبيه البليغ، فالمسامح يشبه الكريم الذي يجود بماله على الناس، وكذلك المسامح يجود بكل ما يملك ماديًّا ومعنويًّا لصديقه وخصمه ؛ لذا استحق أن يطلق عليه اللقب «كريم»، فلولا كرم أخلاقه لما ظهر منه خلق المسامحة .

▪ **خامساً- القيم الدينية المتأصلة فيه** :

المسامحة والسماحة خلق إسلامي عظيم، يظهر في رجل كريم، يتنازل عن حقه، أو عن جزء منه، ليطوي صفحة البغضاء مع غيره، أو ليتألف قلب أخ له في **الله**، أو ليُطيب قلب أخ له في **الله**، وهو في كل حال لا يظلم أحدًا، ولا يتعدى على حق غيره، فذلك هو الرجل السمح، ومعاملته هذه هي السماحة بعينها .

وقد دعا رسول **الله** –صلى **الله** عليه وسلم – بالرحمة للرجل السمح فقال: ((رحم **الله** رجلاً سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتصى)) (٣٧).

والمراد بالمسامحة في الحديث: ترك الملاحاة والمشاجرة والمخاصمة ونحوها .

- والسماحة والمسامحة هي السهولة والرفق واللين في كل معاملة، والذي يتحلى بهذه الصفات يكون من أهل الجنة، قال صلى **الله** عليه وسلم: ((أدخل **الله** –عز وجل– الجنة رجلاً، كان سهلاً مشتريًا وبائعًا وقاضيًا ومقتضيًا)) (٣٨).

وهكذا فصدق المثل الشعبي الفلسطيني النابلسي: إن المسامح كريم ؛ ذلك لأنه يحرص على عدم إيقاع الناس في الحرج، أو في العنت، ويلتمس لهم الأعذار، ويصفح عن زلاتهم، ولا يتتبع عوراتهم، بل يعفو عنهم، ويوكل أمرهم إلى خالقهم، ولا يجادلهم إلا بالتي هي أحسن.

٦. من الأمثلة الدالة على الصبر :

▪ **أولاً- المثل**: «الصبر نور» .

▪ **ثانياً- دلالته**: يحض على الصبر والمصابرة، وعدم الجزع والضجر.

▪ **ثالثاً- مناسبته**: يقال عند الأزمات، وعند تعجل الآخرين، وعند الجزع ؛ تذكيرًا للناس بالصبر ليصبروا.

▪ **رابعاً- بلاغته**: هذا المثل تشبيه بليغ، وطرفاه عقليان فـ(الصبر) قيمة وخلق عقلي، و(النور) شيء متصور عقلاً من أنوار الهداية الإلهية، وهو هنا مجاز عن الهداية، وجميع صنوف الخير مستكنة في الصبر.

- **خامساً- القيمة الدينية المتأصلة فيه:**

ويقولون كذلك :» الصبر مفتاح الفرج»، و»الصبر زين»، و»الصبر خير»، و «الصبر ضياء»، و» الصبر فرج « و « العقل في الصبر»، إلى غير ذلك مما يدل عظيم قيمة الصبر عند الشعب الفلسطيني بعامة، وعند أهل نابلس بخاصة.

ولقد خوطب المؤمنون جميعًا بالأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ (٣٩) .

والصبر: هو الثبات على الكتاب والسنة، والمؤمن صابر في ثلاثة مواطن :

الأول: في الطاعات، والثاني: في ترك المخالفات، والثالث: في الصبر في النوازل والمصائب .

ولقد خاطب الله –عز وجل– رسوله الكريم قائلاً: « واصبر صبرًا جميلاً» (٤٠) . يقول القرطبي: ((والصبر جميل: هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله)) (٤١).

وللصبر فوائد جمة منها :

- الصابر عند الصدمة الأولى ليس له ثواب إلا الجنة. ورد في الحديث القدسي: ((ابن آدم إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى لم أرض لك ثوابًا دون الجنة)) (٤٢).

- لا يُعطى أحد عطاء خيرًا ولا أوسع من الصبر، يقول صلى الله عليه وسلم: ((وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر)) (٤٣).

- المجتمع البشري لا يزال في خسران ما لم يتواصى بالحق ويتواصى بالصبر. قال تعالى: « والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر « (٤٤) .

- والله تعالى مع الصابرين . قال تعالى: ﴿... **واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾ (٤٥).

- ووهكذا فالصبر كله خير، وهو نور وضياء للمؤمن ؛ ذلك لأن عاقبته الرضى والتسليم بقضاء الله –عز وجل– وفي ذلك الفوز العظيم .

٧. من الأمثلة الدالة على الصدق :

- **أولاً- المثل:** «الصدق منجاة»

- **ثانياً- دلالته**: الحض على الصدق .
- **ثالثاً- مناسبته**: يقال في مواطن الحث على الصدق، وتجنب الكذب والافتراء.
- **رابعاً- بلاغته**: هذا المثل حاز أعلى درجات التشبيه، وهو التشبيه البليغ الذي يقرب الأشياء، ويصورها على حقيقتها، فالصدق يُنجي من كل ضيق، والكذب يُردي بصاحبه في كل واد عميق .
- **خامساً- القيم الدينية المتأصلة فيه** :

الصدق قيمة دينية عظمى، وهو عماد الدين كله، وقوام الأمر من بدايته إلى نهايته ؛ لذلك جوّز رسول **الله** –صلى **الله** عليه وسلم– أن يقع من المؤمن ما لا يُحمد من الصفات، غير أنه نفى أن يكون المؤمن كاذبًا، وقد سأل الصحابة الرسول –صلى **الله** عليه وسلم–: ((يا رسول **الله** أيكون المؤمن جبانًا ؟ قال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال: نعم، قيل له: أيكون المؤمن كذّابًا ؟ قال: لا)) (٤٦).

وللصدق فوائد جمة منها :

- أنه يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة . يقول صلى **الله** عليه وسلم: ((عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق، حتى يُكتب عند **الله** صدّيقًا)) (٤٧).

- إن الكذب يهدي على الفجور، والفجور يهدي إلى النار . قال صلى **الله** عليه وسلم: ((وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي على النار، وما يزال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند **الله** كذّابًا)) (٤٨).

- الصدق ينفع أصحابه يوم القيامة . قال تعالى: ﴿**هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم**﴾ (٤٩).

- الصدق طمأنينة والكذب ريبة . قال رسول **الله** –صلى **الله** عليه وسلم–: ((فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة)) (٥٠).

- وهذا الخلق الجميل يمكن اكتسابه بالاعتياد عليه، والحرص على الالتزام به، حتى يصل صاحبه به إلى أعلى المراتب في الدارين .

الخاتمة والتوصيات:

وهكذا تنتهي هذه الدراسة التي قام بها الباحثان بإيراد سبعة أمثال من غرر الأمثال الشعبية الفلسطينية النابلسية التي تدل على قيم أخلاقية سامية في مدينة نابلس، كما تشي بذلك هذه الأمثال، والقيم المتولدة من هذه الأمثلة هي قيم ((الأمانة، والثبات، والتقوى، والحياء، والمسامحة، والصبر، والصدق))، وهذه القيم هي سر من أسرار تساند المجتمع النابلسي وتعاونه وتعاضده، واستمرار عجلة الحياة فيه .

فالأمم والشعوب تقاس بالأخلاق، فإن ذهبت أخلاقهم ذهب مجتمعهم وانهار، وتقطعت به السبل والأسباب التي تحافظ على وجوده وتماسكه .

فالأمانة بها تحفظ الأموال والأعراض، وحقوق الناس، وبالثبات ترسخ قدم المرء في الحق وتثبت عليه، وفي التقوى كل الأسرار والأنوار، والحياء كله خير، والمسامحة تزيل الضغائن، وتنقي المجتمع من الأحقاد، والصبر نور، والصدق ضياء ومنجاة .

وهكذا فالمثل الفلسطيني النابلسي خلاصة حكمة، وروح فكرة، وعصارة تجربة .

وأخيرًا يوصي الباحثان بما يأتي :

١. إن المثل هو روح الأمة ؛ لذا لا بد من دراسة فنية معمقة له .

٢. لا بد من جمع الأمثال النابلسية من أفواه الكبار والصغار ؛ تمهيدًا لدراستها .

٣. إن جمع هذه الأمثال ودراستها لعبرة وذكرى تنفع المؤمنين والباحثين معًا.

الهوامش:

١. الجلادي، حسن قطب، تنمية بعض القيم الأخلاقية عند التلاميذ في مرحلة التعليم الأساسي، ص٤٧.

٢. ابن فارس، أبو الحسين، معجم المقاييس في اللغة، مادة (مثل) .

٣. أمين، أحمد، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص٦١.

٤. ناصيف، إميل، أروع ما قيل في المثل، ص٨ بتصرف .

٥. الدراويش، حسين، مجموعة من الأمثال الشعبية في بلدة دورا الخليل في القرن الماضي وقيمتها التربوية، دراسة تحليلية في كتاب: التراث الشفوي في فلسطين، دائرة اللغة العربية، جامعة بيت لحم، ص١٦٤ بتصرف .

٦. المصدر السابق ذاته، ص١٦٥ بتصرف .

٧. مقابلة مع أبي تيسير سنة في ٥/٥/ ٢٠٠٧ م من قرية عصيرة الشمالية، ومنه أخذ المثل .

٨. سورة الأحزاب: ٥٢ .

٩. الشوكاني، فتح القدير، ٣٠٨/٤ .

١٠. المؤمنون: ٨ .

١١. القرطبي، محمد أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن الكريم، ج١٢/ص٧٣ .

١٢. صحيح سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب ١٢، الحديث رقم ٢١١٨ و ٢٧٧٥ .

١٣. مقابلة مع أبي جلال من قرية عصيرة الشمالية ٦/٧/٢٠١٢ م .

١٤. سورة البقرة: ٤١ .

١٥. سورة البقرة: ١٩٧.

١٦. سورة لقمان: ٣٣.

١٧. الأعراف: ١٩

١٨. الطلاق: ٢ .

١٩. الطلاق: ٥

٢٠. الطلاق: ٤

٢١. التوبة: ٤.

٢٢. النحل: ١٢٨

٢٣. الزمر: ٦١

٢٤. عرنيطة، يسرى جوهرية، الفنون الشعبية في فلسطين، ص٢٠٩ .

٢٥. آل عمران: ١٤٧

٢٦. سورة البقرة: ٢٥٠

٢٧. الأنفال: ٤٥

٢٨. الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، ٢٣٨/٥

٢٩. المصدر السابق ذاته، ١٢٥/٤ .

٣٠. العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري، ٥٢٢/١٠، عند شرحه لباب الحياء من كتاب الأدب .

٣١. ابن ماجة، صحيح سنن ابن ماجة ٤٠٦/٢، الحديث ٣٣٦٩، وهو (صحيح) .

٣٢. البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ٧٧، الحديث ٦١١٨ .

٣٣. من معلقات البخاري في كتاب الغسل، باب ٢٠، قال في الفتح ٣٨٦: «.... وحسنه الترمذي وصححه الحاكم» .

٣٤. البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ٧٨، الحديث ٦١٢٠ .

٣٥. ابن ماجة، صحيح سنن ابن ماجة ٤٠٦/٢، الحديث ٣٢٧٠ /٤١٨١ وهو (حسن) .

٣٦. ويقولون كذلك: « أهل السماح ملاح»، ومن يظهر فيه خلق السماحة يسمونه (أبا سماحة) .

٣٧. البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ١٦، الحديث ٢٠٧٦ .

٣٨. الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، ٥٨/١، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة (٢٢٠٢/١٧٨٩)، وفي صحيح النسائي (٤٣٧٩) .

٣٩. آل عمران: ٢٠٠.

٤٠. المعرج: ٥٠ .

٤١. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ١٨٤ .

٤٢. الألباني، صحيح سنن ابن ماجة، كتاب الجنائز، باب ٥٥، الحديث ١٥٩٧ (حسن) .

٤٣. البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ٥٠، الحديث ١٤٦٩ .

٤٤. سورة العصر: ١–٣ .

٤٥. سورة الأنفال: ٤٦ .

٤٦. الإمام مالك، الموطأ، ٢/ ٩٩٠، وهو حديث حسن مرسل .

٤٧. أخرجه البخاري ومسلم والموطأ وأبو داوود والترمذي، ينظر جامع الأصول، ٦/ ٤٤٢، الحديث ٤٦٤١ .

٤٨. المصدر السابق ذاته، والجزء ذلته، والصفحة ذاتها .

٤٩. سورة محمد: ٢١

٥٠. أخرجه الترمذي بهذا اللفظ، وإسناده صحيح، ينظر: جامع الأصول، ٦/ ٤٤٢، الحديث ٤٦٤١ .

جامعة القدس المفتوحة
تحت رعاية السيد الرئيس محمود عباس (أبو مازن)
تنظم عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

التراث الفلسطيني للواقع المسيحي

الأب / يوسف سعادة *

* راعي كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك/ نابلس.

التراث الفلسطيني للواقع المسيحي

مقدمة :

لا بد من كلمة شكر للقائمين على موضوع التراث الفلسطيني، وتهيئة الأجواء له ودراسته للواقع التراثي للشعب الفلسطيني عبر تاريخه الطويل، حيث إن هذا الشعب قد تداول على حكمه وفرض إرادته على هذا الشعب كثير من الشعوب والحضارات المختلفه من فرعونية واشورية ورومانية وبيزنطية.

وهنا لا بد أن أدخل في موضوع هذه الحضارات وتأثيرها على المنطقة، وعلى الشعب الفلسطيني لكني أتقدم بالشكر الجزيل لجامعة القدس المفتوحة، لرئيسها وكادر موظفيها لطرح موضوع الموروث من التراث الفلسطيني، والذي لنا نحن أبناء فلسطين شرف الانتماء لفلسطين وعلينا مسؤولية كبرى للحفاظ على هذا الموروث التراثي، إذا لم يقم أبناء هذا الشعب بواجبهم بالحفاظ على الهوية والكيان الفلسطيني، الذي على الرغم من المؤثرات الخارجية المختلفه والحضارات والقوميات التي غزت فلسطين وأرض فلسطين بالقوة وفرض الإرادة على شعوب هذه المنطقه، فإن هذا الشعب حافظ على حضارته وثقافته وتراثه عبر الأجيال.

واقع وكيان :

لذلك –وبناء على ما تقدم– فإن أي شعب إذا لم يكن له جذور ولم يكن له ثقافه وحضارة خاصة به ـ فإن هذا الشعب لم يستطعْ الحفاظ على هويته ووجوده، على الرغم من أن كل الصعوبات التي تعرض لها هذا الشعب كادت تؤدي بوجوده، وما زال هذا الخطر ماثل إلى اليوم.

التراث الفلسطيني :

وهو موضوع حديثنا يتعلق بتراث هذا الشعب فيكفيه فخراً واعتزازاً أنه وارث أكبر حضارة في التاريخ البشري كله وأهمها، وهي ثقافة وحضارة الكتب السماوية المقدسة من توراة وإنجيل وقرآن.

وبالتالي فإن الحضارة الروحية، وما تمثله من قيم ومبادىء سامية أعطت لهذا الشعب زخماً وقوة دافعة له للحفاظ على هذا الموروث الحضاري والثقافي من الاندثار، لا بل استطيع القول إن ثلثي سكان الكره الأرضيه مدينين بإيمانهم وحضارتهم وثقافتهم

إلى هذه الحضارة، حيث إن الكتب السماوية والأنبياء والرسل عالبيتهم بل كلهم أبناء هذه الحضارة العربية الفلسطينية. وعليه فمن ليس له ثقافه وحضارة وتراث لا ماضي له ولا حاضر ولا مستقبل.

ومن هنا فإن الموروث الفلسطيني يستند في واقعه من حضارته الأيمانية والكتب التي يؤمن بها من توراة وانجيل وقرآن، وبخاصة أن غالبية الشعب الفلسطيني مسلم ومسيحي وسامري.

الموروث المسيحي الفلسطيني:

هو وليد الإيمان بالسيد المسيح ابن مريم، وهو ابن أصيل لهذه الأرض الفلسطينية بحسب الجسد، وذلك من الإيمان المسيحي، أخذ جسداً من هذه التراث المقدسة فلسطين، حيث عاش ومات وقام وصعد إلى السماء من هذه الأرض المقدسة، وهو بذلك أخ وصديق وقريب وجار لكل مواطن فلسطيني.

وعليه فإني استميح القارىء عذراً وأنا أحد أبناء هذه الحضارة وهذا التراث، أن أتكلم عن التراث المسيحي الفلسطيني، ولو أن هذا الموروث هو للشعب الفلسطيني بكامل شرائحه وانتمائه، ولكن هذا هو الواقع المعيش للشعب الفلسطيني، وهذا أيضاً زخم آخر لتراث هذا الشعب أن يملك موروثاً مقدساً وموروثاً حضارياً لا يملكه غيره من شعوب العالم كله، وهنا أستطيع أن أصف هذا الموروث بلوحة فسيفساء تاريخية قديمة قدم هذا التاريخ، وقد عاش هذا الشعب ضمن هذه اللوحة الفسيفسائية الجميلة، وحافظ على كل حبة من هذه اللوحة، إذ إن جمال هذه اللوحه بتنوع حجارتها وألوانها، علماً بأن لكل لوحة معنى وقيمة وتاريخاً.

والتراث الذي نتحدث عنه متنوع، ولكل نوع قيمة وأهمية ووجود، وهذا التراث يتنوع إلى أنواع مختلفة متعددة، وأهم هذا التراث هو الحضاري الإنساني.

فبالإضافة إلى الموروث الحضاري الإنساني، وهو يختلف من شعب لأخر، ومن حضارة وأخرى، فهناك التراث الأدبي والفني والتراث العملي، والذي يعتمد في غالبيتة على الزراعة وبعض الصناعات الخفيفة التي اتقنها أبناء هذا الشعب بسبب حاجته أولاً للعيش.

التراث الروحي :

وهو أصل كل تراث وحضارة وتقدم لهذا الإنسان، ولو أنه لايختلف كثيراً بين فئة وأخرى حيث يؤمن الجميع بإله واحد أحد ويؤمن بالدينونة واليوم الآخر، ويؤمن بقيامة

الموتى والعمل بوصايا الله ونواهيه، وبالصوم والصلاه والصدقة والابتعاد عن الشر هذه مبادىء عامة يشترك فيها مع وجود بعض الفوارق البسيطة بين فئة وأخرى.

فالمسيحي كما المسلم، يؤمن بالصلاة والتسليم لله في حياته، والصلاة أنواع: الصلاة اليومية والأسبوعية والصلاة زمن الصوم، والصلاة بالأعياد الدينية، ولكل صلاة فرائضها ومتطلباتها، وهناك صلوات لأوقات وأزمنة مختلفة صلاة من أجل رفع المجاعة والاستسقاء وإبعاد القحط، واللطف بالشعب من الكوارث الطبيعية، ومن أجل السلام، وإبعاد الحروب، ومن أجل إبعاد الأوبئة، وإلى غير ذلك من أمور. وصلوات مختلفة أخرى من أجل المتزوجين والمتوفين، ولأجل خصب الأرض ومن أجل البنين، وفي عماد الأطفال، وصلاة من أجل المرضى والمتألمين، وهذا كله مشترك بين الجميع، والاختلاف فقط في بعض التفاصيل، أما عن العادات المألوفة، والتي للأسف –بسبب الضيق الاقتصادي وتفرق العائلة– بدأت تفقد قيمتها في هذه الأيام. ومن هذه العادات قبل الصوم هناك أسبوعان الكنيسة تهيىء بها أبناءها من عادات ألفة وتقارب، وهي أسبوع مرفع اللحم، وأسبوع مرفع الجبن، ففي أسبوع مرفع اللحم رب الأسره وكبير العائلة يدعو عائلته من بنين وبنات وأخوة وأخوات إلى وليمة عائلية كبيرة تجتمع فيها الأسره بجو من الألفة والمحبة والسمر مع بعضهم بعضاً وتصالح المتخاصمين، وإلى غير ذلك من أمور عائلية والتدارس في أمور العائلة وجمع الشمل والتأكيد على تعاليم الله والحفاظ عليها، وفي نهاية هذا الأسبوع ترفع عن الموائد اللحوم بأنواعها، والأسبوع الثاني أسبوع مرفع الجبن يدعو رب الأسرة وكبير العائلة إلى الاجتماع ولقاء الأهل مع بعضهم بعضاً، وتعمل أنواع الحلويات في البيوت وفي نابلس بالذات تعمل الكنافة في البيت، وتأكل العائلة بكاملها مع توزيع الكنافة على العائلات الفقيرة والمحتاجة من الجيران، وكذلك توزيع الكنافة فرحاً وابتهاجاً بزمن الصوم الذي يأتي مباشرة. وفي الأعياد بالسابق كانوا جميعاً يتبادلون التهاني بدون استثناء ويقدمون الحلويات من إنتاج العائلة من حلويات أصلها الحليب علامة الطهارة والنقاء، وبخاصة في عيد الميلاد والعوَامة في عيد الظهور، أي رائحة المسيح الذكية.

أما عيد الفصح أي العيد الكبير فهناك إضاءة الشموع في البيوت أي أن الإنسان عليه أن يصبح مثل الشمعة أن يذوب في سبيل الآخر، ويضيء طريقه من ظلمة الحياة من مساعدة وعون وعمل الكعك والمعمول، وتقديمه بعيد الفصح وما ترمز له الكعكة من إكليل الشوك الذي كان لعنة لمن يوضع على رأسه أصبح إكليل حب وخير لهذا الإنسان والمعمول يرمز إلى الجلجلة التي رفع عليها صليب المسيح، وأصبح الصليب علامة محبة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وذلك بإزالة صليب الكراهية والبغضاء والعداء بين الأخ وأخيه. هذه بعض العادات الموروثة التي ما زال قسم كبير من أبنائنا يلتزمون بها ويمارسونها.

التراث الأدبي :

من أدب وشعر، وهذا النوع من الموروث الحضاري يقتصر على فئة معينة لها بعد تربوي وثقافي، وخاصة في مجال الشعر والتغني به، وهو يختلف من متعلم إلى آخر، فالمتعلم، ولو أن العلم كان قليلاً ومحدوداً جداً والمتعلمون يمارسون دورهم من تعلم القراءة والكتابة في الدواوين والكنائس، ومن قراءة الكتب المقدسة وتعليمها، وبعد ذلك التغني في بعض المواضيع من فرح وحزن، وخاصة الفرح بالزواج أو العمّاد، أو بناء بيت للأسرة حيث تجتمع العائله بالإضافة إلى الأهل والجيران للمساعدة على تقديم الواجبات، وتقديم الطعام للذين يقومون بالبناء، وبهذه المناسبة تتفتح قريحة هذا الإنسان أو ذاك بتنظيم بعض أبيات شعرية على السليقة يغنيها في هذه المناسبة أو تلك من مناسبات الفرح والابتهاج، وكذلك في المناسبات الأليمة مثل: الوفاة أو المرض، والتي تندب هذا المتوفى بأبيات من الشعر علامة على الحزن والألم بفقدان هذا العزيز أو ذاك. والفلاح في أرضه عند الزراعة يبدأ أيضاً وينطلق من الواقع الذي يقوم به، وذلك في إيمان وتسليم يأخذ الفلاح ينشد وهو يزرع – زرعنا الحب واتكلنا على الرب – وعند تأخر المطر للحفاظ على المزروعات، يقوم الجميع بصلاة شعرية في دوران في ساعة المساء على بيوت الله متضرعة لله تعالى لإرسال المطر لريّ الأطفال والحيوانات والمزروعات، وهذا أيضاً فن أدبي وتراثي، للأسف بدأ الآن يذوب في واقع الحضارة المعيشه الآن.

التراث الفني:

في صنع التماثيل، ويستوحيها الإنسان من خيال واسع جامح، من إنسان أو نحت تيجان أو سمك، أو أزهار أو حيوانات، وهذه كلها مستوحاة من واقعه الديني، والتي ذكر قسم منها في الكتاب المقدس بالإضافة إلى رسمه شجرة الزيتون والنخيل والتين والعنب، وقد حفظت كل هذه الرسوم على جدران البيوت في القديم. والفني من هذا الموروث أيضاً في رسم الصليب على المعادن من فضة وذهب، وعلى النحاس وبعض الشعائر المسيحية، بالإضافة إلى الصليب رسم أو حفر على شجرة الزيتون، ورسم النخيل والسمك والعنب أو الكرمة والتين، وذلك انطلاقاً من واقع ديني موجود في الكتب المقدسة، وأصبحت هذه الرسوم والحفر مدخل رزق، لمن يعمل بهذه المهنة بالإضافة إلى كؤوس من النحاس وصوانٍ متعددة مختلفة، وهذه تستعمل بالكنائس. كما رُسم أشخاص يرمزون إلى السيد المسيح والسيدة العذراء، وبعض القديسين ووضعوا هذه الرموز على الحجر والخشب.

وهناك أيضاً ضمن عيد الفصح سلق البيض وتلوينه، وهو واقع ديني؛ أي الحياة الجديدة وتلوين البيض خاصة باللون الأحمر لون الدم المسفوك على الصليب كل هذه حضارة وتراث ما زال أبناء فلسطين متمسكين بهذه العادات أو بعضها.

أما التراث الشعبي:

فلا يختلف هذا التراث بين فئة وأخرى إذ إن أبناء فلسطين لبسوا الدماية – أي القمباز – والحطة والعقال، وهذا اللباس خاص بالرجال، ولبست النساء الفستان الطويل وخاصة المطرز منه، وأخيرا لبس الفستان الطويل العادي مع زنار على الخصر وعصبة للرأس، وغطاء الرأس، وهذا مشترك مع الجميع لا تمييز في ذلك.

وعليه فإن الشعب الفلسطيني لم تختلف طائفة منه عن باقي أبناء الشعب حتى في النواحي الروحية أكان في زمن الصوم للمسلم والمسيحي، فالمسلم شعبان ورمضان والولائم والتحابب وزيارة الأهل والمصالحة والمسامحة خلال الصوم أو في الحج بالإضافة إلى الأفراح والأحزان، فكلنا لنا تراث واحد وتاريخ واحد وحضارة واحدة والاختلاف بالشكليات.

وأخيراً من لا تراث له لا تاريخ له يستنبطه لحاضره، ويعتمد عليه لتأكيد حاضره وبناء مستقبله.

من السمات اللغوية للهجة مدينة نابلس الفلسطينية

أ.د. محمد جواد النوري*

* أستاذ اللغة العربية/ جامعة النجاح الوطنية/ نابلس.

من السمات اللغوية للهجة مدينة نابلس الفلسطينية

تعدُّ دراسة اللهجات ، في أيِّ لغة من اللغات ، وسيلة مهمة من وسائل وصف الواقع اللغوي الذي تعيشه اللغة الأم التي تنتمي إليها تلك اللهجات ؛ ذلك أن اللهجة ، في أبسط صورها وتعريفها ، تعد تطوراً ، أو ، على نحو أدق ، انحرافاً ***Drift / Deviation*** تتعرض له اللغة بمستوياتها الصوتية ، والصرفية ، والنحوية، والدلالية .

واللهجة التي نحن بصددها ، في هذه الندوة ، وهي لهجة مدينة نابلس الفلسطينية ، ليست بِدْعاً في ذلك، فهي إحدى اللهجات الفلسطينية ، التي تعد ، بمجموعها ، امتداداً للهجات العربية القديمة التي شاعت وانتشرت في أنحاء الجزيرة العربية منذ أعماق التاريخ.

وتأسيساً على ما سبق ، فان دراسة هذه اللهجة ، وغيرها من اللهجات ، يعد تأصيلاً للواقع اللغوي في فلسطين ، في مرحلة من مراحل التطور اللغوي ، الذي ينظر إليه بوصفه حلقة من حلقات السلسلة التاريخية التي مرت بها اللغة العربية عبر العصور .

وتجدر الإشارة ، قبل تناول بعض السمات اللهجية لمدينة نابلس ، إلى أن العرب قد دخلوا فلسطين قبل الإسلام بقرون ، وقد أورد الأستاذ محمد كرد علي ، في كتابه القيم " خطط الشام " ، أدلة كثيرة على عروبة فلسطين أرضاً ، وشعباً ، ولغة ، من ذلك ، على سبيل المثال ، أن مدن فلسطين بعامة ، كانت مواضع اتخذتها قبائل عربية مختلفة موطناً لها بعد أن خرجت من الجزيرة العربية ، بفعل عوامل سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ؛ فقد اتخذت قبيلة لخم ، ومن يخالطها من " كنانة " ، مساكن لها حول مدينة الرملة إلى مدينة نابلس (خطط الشام ١/ ٢٥، ٢٦) ، كما اتخذ فخذ من قبيلة " جذام " موطناً له مما يلي طبرية إلى اللجون واليامون إلى ناحية عكا ، وسكنت قبيلة " عاملة " في الجبال المشرفة على مدينة طبرية إلى نحو البحر ، كما سكنت عناصر كثيرة من قبائل " سليح " ، و " قضاعة " مواضع مختلفة من فلسطين . كما كان أهل جند فلسطين ، وهو اسم اللواء الذي كانت مدينة الرملة عاصمة له ، ويشمل عدة مدن ، من بينها مدينة نابلس ، كانوا أخلاطاً من العرب من " لخم " و " جذام " و " عاملة " ، و" كندة " و " قيس "، و" كنانة "، كما كان أهل مدينة نابلس أخلاطاً من العرب والعجم والسامرة . (خطط الشام ١/ ٢٨، ٢٦) .

وجاء في مسالك الأبصار ، أن بنابلس ، من بلاد الشام ، بقية من قبيلة " مضر " ، وقد قال القلقشندي في كتابه " صبح الأعشى (١/ ٣٣٨–٣٣٩، ٣٥٤) : إن من قبيلة " بكر " أقواما بجنين (وهي مدينة جنين المعروفة والواقعة شمالي مدينة نابلس) وبلادها ، وأن من العمريين ، يعني " بني عديّ " قبيلة عمر بن الخطاب ، ببلاد الشام فرقة بوادي بني زيد (اسم مكان مجاور لمدينة نابلس) ، وفرقة بعجلون ، كما أن من سكان جبل نابلس اليوم

من يعود بأصله إلى العرب " القحطانية " وهم كثيرون ، في حين تنتسب قلةٌ منهم إلى الأصل " العدناني "، ويتواجد هؤلاء وأولئك داخل مدينة نابلس وما حولها من القرى (بلادنا فلسطين ، لمصطفى الدباغ ٦٨/١) .

وإذا كانت بعض قضايا التاريخ ، ولاسيما القديم منه ، يكتنفها بعض الغموض والضباب ، فان اليقين الذي من شأنه أن ينفض الغبار ، ويجلي الحقائق ، يمكن أن يكون ، إلى حد كبير ، في الواقع اللغوي الملموس الذي يستطيع بنفسه أن يقودنا إلى الحقيقة التي قد يئدها التاريخ ، أو تعصف بها رياح الماضي .

فقد وجدت في فلسطين ، منذ أقدم العصور ، معظم اللهجات العربية التي كانت سائدة، بين أصحابها ، من العرب الاقحاح ، أبناء الجزيرة العربية الأصليين ،وهذا من شأنه أن يؤكد عروبة فلسطين ، من الناحية اللغوية ، فضلاً عن عروبتها من الناحية السكانية ، كما ألمحنا سابقاً ، وكما تؤكد الدراسات المختلفة بعامة .

وسنتناول ، في هذه الدراسة اللغوية الوصفية الموجزة ، بعض اللمحات الصوتية التي وسمت لهجة مدينة نابلس ، وذلك من اجل الربط بين حاضر هذا الجزء من الوطن العربي الذي يرزح ، حالياً ، تحت جبروت الاحتلال وطغيانه ، وماضيه العربي العريق .

١. فقدت اللهجة المدروسة – كما فقدت غيرها من اللهجات العربية الحديثة – ثلاثة صوامت (أَصوات) تعود في نطقها إلى المخرج الأسناني ***Dental*** ، **وهي** :

أ. **الثاء** : وهو صامت أسناني احتكاكي مهموس ، وقد استبدلت به اللهجة أصوات كل من التاء : وهو صامت أسناني لثوي انفجاري مهموس ، والسين : وهو صامت أسناني لثوي احتكاكي مهموس ، فهم يقولون ، على سبيل المثال ، عسمان ، وهيسم ، بدلاً من : عثمان ، وهيثم .ويقولون : تواب ، وتوم ، بدلاً من : ثواب ، وثوم .

ب. **الذال** : وهو صامت أسناني احتكاكي مجهور ، وقد استبدلت به اللهجة أصوات كل من الدال : وهو صامت أسناني لثوي انفجاري مجهور ، والزاي : وهو صامت أسناني لثوي احتكاكي مجهور ، فهم يقولون ، على سبيل المثال ، دهب ، بدلاً من : ذهب ، ويقولون: زليل بدلاً من ذليل ، ويقولون : عزاب ، بدلاً من : عذاب .

ت. **الظاء** : وهو صامت أسناني احتكاكي مجهور مطبق ؛ أي مفخم ، وقد استبدلت به اللهجة أصوات كل من الضاد : وهو صامت أسناني لثوي انفجاري مجهور مطبق . والزاي المفخمة، وهو المقابل المفخم لصامت الزاي الأسناني اللثوي الاحتكاكي المجهور ، فهم يقولون ، على سبيل المثال ، صلاة الضهر ، بدلاً من صلاه الظهر ، ويقولون : عزيم ، بدلاً من : عظيم .

ويمكن تفسير هذا الاتجاه ، الذي تجنح إليه اللهجة ، في إطار قانون الجهد الأقل ***Law of least effort*** في النطق ، وهو القانون الذي يطبقه – لا شعورياً – الناطق العامي في اللهجة ، إذ إن الصوامت الأسنانية تحتاج ، أثناء النطق بها ،إلى مجهود يفوق ما تحتاج إليه صوامت أخرى كالصوامت الأسنانية اللثوية ، كما يمكن تفسير هذا الاتجاه، أيضا ، باحتفاظ اللهجة ببعض الظواهر النطقية التي شاعت في بعض اللهجات العربية القديمة التي توارثتها جيلا بعد جيل عديد من اللهجات العربية الحديثة ، ومن بينها لهجتنا العربية المدروسة .

٢. الجيم في اللهجة النابلسية : صامت غاري احتكاكي مجهور ، يتم النطق به عندما تلمس مقدمة اللسان منطقة الغار ، ومؤخرة اللثة ، بحيث يقفل ممر الهواء المندفع من الرئتين في الفم ، باستثناء فراغ يتركه التقاء مقدم اللسان بالغار ، يُمكن الهواء من الخروج فوق اللسان محدثاً احتكاكاً مسموعاً بينه وبين سقف الغار ، ولكن هذا الصامت ، في اللغة الفصحى لثوي غاري مركب من (انفجار + احتكاك) مجهور ، يتم النطق به عندما يرتفع مقدم اللسان تجاه مؤخر اللثة ومقدم الحنك حتى يتصل بهما محتجزاً وراءه الهواء الخارج من الرئتين ، ثم بدلا من أن ينفصل عنهما فجأة – كما في نطق الأصوات الانفجارية – يتم الانفصال ببطء ، فيعطي الفرصة لهواء الرئتين ، بعد الانفجار ، أن يحتك بالأعضاء المتباعدة ، فنسمع احتكاكاً شبيهاً بما يسمع من صوت الجيم الشامية ، فهذا الصامت إذن – في الفصحى – مركب ***Affricate Consonant*** الجزء الأول منه قريب من الدال ***(d)***، وجزؤه الآخر صوت معطش كالجيم الشامية ***(j)*** ، وهذا يعني – مرة أخرى – أن الجيم الفصحى ، كما ينطقها قراء القرآن الكريم ، صامت مركب من الدال : وهي صامت أسناني لثوي ، أو لثوي ، انفجاري مجهور ، ومن الجيم الشامية : وهي صامت غاري احتكاكي مجهور ، ولكن اللهجة المدروسة – وهي جزء من لهجات بلاد الشام – أسقطت ، من نطقها ، الجزء الأول الانفجاري ، واحتفظت بالجزء الثاني الاحتكاكي ، وقد تم ذلك من أجل توفير المجهود الذي يبذل أثناء النطق .

٣. القاف في اللهجة المدروسة صامت لهوي انفجاري مهموس ، كما هو في الفصحى، وقد حافظ أبناء اللهجة الأصليون على النطق السليم لهذا الصامت ، وإن كان الجيل الجديد من أبناء هذه المدينة ، يحولونه إلى همزة ، كما هو الحال في معظم الحواضر العربية ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

٤. تعترف اللغة الفصحى بثلاث حركات رئيسة هي : الكسرة ، والفتحة ، والضمة، وهذه الحركات قد تكون قصيرة ، أو طويلة ، ولكن اللهجة المدروسة تشتمل

– بالإضافة إلى هذه الحركات الثلاث الرئيسة – على :

أ. **حركة أمامية نصف ضيقة *(ee)*** وهي الكسرة الممالة في نحو : بيت : ***beet*** وليل : ***leel***، ويغلب مجيء هذه الحركات طويلة في الاستعمالات اللهجية في مدينة نابلس، إلا أنها قد تقصر في بعض السياقات ، إما نتيجة السرعة في النطق ، وإما نتيجة الوقف .

ب. **حركة خلفية نصف ضيقة *(oo)*** وهي الضمة الممالة في نحو لون : ***loon*** وحوض : ***hood*** ، ويغلب مجيء هذه الحركة طويلة ، الا أنها قد تتعرض إلى التقصير في بعض السياقات النطقية .

٥. تتخلص اللهجة من الحركة المركبة أو المزدوجة ***diphthong*** ، وهي الحركة التي يُمَثَلُ لها ، في اللغة العربية الفصحى ، في بعض النماذج والأنماط النطقية ، بالفتحة المتلوة بياء ساكنة ، أو بالفتحة المتلوة بواو ساكنة ، ويتم تخلص اللهجة ، من هذه الحركة بنوعيها ، بإمالتها إلى حركة أمامية نصف ضيقة طويلة (ee) ، أو إلى حركة خلفية نصف ضيقة طويلة ***(oo)***على التوالي . فيقولون ، في اللهجة : بيت ***beet*** بدلاً من بَيْت: ***bayt***، وخيل ***Xeel*** بدلاً من خَيْل : ***Xayl*** ، كما يقولون : كون ***koon*** بدلاً من : ***kawn*** ، ولون : ***loon*** بدلاً من : ***lawn*** .

٦. تشترك اللهجة والفصحى ، في الأعم الأغلب ، في عدد المقاطع ونوعها ، **وهي على وجه التحديد** :

- المقطع القصير : ص ح .
- المقطع المتوسط المفتوح : ص ح ح .
- المقطع المتوسط المغلق : ص ح ص .
- المقطع الطويل المغلق : ص ح ح ص .

- أما المقطع الطويل المزدوج الإغلاق : ص ح ص ص فغالباً ما يفك إلى مقطعين اثنين هما المقطع القصير ، والمقطع المتوسط المغلق كما في نطقهم لكلمة شمس ، وكلمة خبز ، على سبيل المثال .

وهناك ملحوظات سريعة على النظام المقطعي للهجة ، منها :

- يمكن أن تنسج الكلمة الواحدة في اللهجة من مقطع واحد ، كما يمكن أن يصل عدد مقاطعها إلى أربعة مقاطع ، وفي حالات قليلة قد يصل هذا العدد إلى خمسة ، على حين يصل عدد المقاطع في الكلمة الواحدة ، في الفصحى ، إلى سبعة ، أو ثمانية مقاطع .

- للكلمات أحادية المقطع في اللهجة أربع صور تبتدئ بـ : ص ح ح ،ص ح ص ، ص ح ح ص ، ص ح ص ص .

وللكلمات ثنائية المقطع سبعَ عشرةَ صورةً تبتدئ بـ : ص ح ، ص ح ح ، ص ح ص ، ص ح ح ص ، ص ح ص ص .

وللكلمات ثلاثية المقطع إحدى وثلاثون صورة تبتدئ بـ : ص ح ، ص ح ح ، ص ح ص ، ص ح ح ص ، ص ح ص ص .

وللكلمات رباعية المقطع ست عشرةَ صورة تبتدئ بـ : ص ح ، ص ح ح ، ص ح ص .

وللكلمات خماسية المقطع صورتان تبدآن بـ : ص ح ، ص ح ص .

٧. للهجة المدروسة موقف خاص من المقطع القصير (ص ح) ؛ أي المقطع المبدوء بصامت والمتلو بحركة قصيرة ، فهي تستثقل النطق به عندما يقع قبل مقطع منبور، أو بعده بصورة عامة ، وعندما يقع في بداية الكلمة بصورة خاصة ، ولاسيما عندما تكون الحركة القصيرة التالية للصامت في هذا المقطع من النوع الأمامي أو الخلفي الضيق ؛ أي الكسرة الخالصة ، والضمة الخالصة ، فتعمد اللهجة إلى حذف هذه الحركة القصيرة ، مما يؤدي إلى تحول الصامت المتحرك بها إلى صامت ساكن ، ولكن اللهجة – متميزة من غيرها من اللهجات العربية الحديثة – تستثقل البدء بصامت ساكن ، لئلا يجتمع في بداية الكلمة صامتان متواليان ، أو ما يسمى بالعنقود الفونيمي ***cluster*** ، لذلك فان اللهجة تلجأ – للتخلص من هذا المأزق – إلى اجتلاب سابقة الهمزة المتحركة بالحركة القصيرة الأمامية الضيقة قبل هذا الصامت الذي سكنته اللهجة ، وهو ما يعبرّ عنه ، في الفصحى ، بهمزة الوصل ، مما يؤدي إلى جعل هذا الصامت الساكن مع السابقة المجتلبة ممثلا لنهاية مقطع جديد من النوع المتوسط المغلق (ص ح ص) بعد أن كان هذا الصامت يمثل مع الحركة القصيرة التي حذفتها اللهجة بداية للمقطع القصير المفتوح ص ح .

ويمكن التحقق من ذلك من مقارنة النطق بالفصحى ، والنطق بلسان أبناء اللهجة موضع الدراسة ، وهي لهجة مدينة نابلس ، للبنى اللغوية الآتية :

الكلمة في الفصحى	الكلمة بعد حذف الحركة الأمامية أو الخلفية الضيقة	الكلمة بعد اجتلاب سابقة همزة الوصل
شِمال: si/maal	شمال: smaal	is/maal
رِجال: ri/Jaal	رجال : rjaal	ir/jaal
جِمال: Jimaal	جمال: Jmaal	ij/maal
سِلال: si/laal	سلال: slaal	is/laal

الكلمة في الفصحى	الكلمة بعد حذف الحركة الأمامية أو الخلفية الضيقة	الكلمة بعد اجتلاب سابقة همزة الوصل
سِلاح: si/laah	سلاح: slaah	is/laah
***	***	***
طُلوع: tu/luuc	طلوع: tluuc	t/luuc
نُزول: nu/zuul	نزول: nzuul	in/zuul
جُيوش: Ju/yuus	جيوش: Jyuus	iJ/yuus
حُروب: hu/ruub	حروب: hruub	ih/ruub
***	***	***
سلام: sa/laam	طبيخ :ta/biix	
جمال: Ja/maal	ضمير : da/miir	
جميل: Ja/miil	غشيم: a/siim	
كميل: Ka/miil		
صبيح: sa/biih		
قميص: qa/miis		
خميس: xa/miis		

ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الفتحة تعد من أَخفِّ الحركات العربية ، وذلك بالقياس الى حركتي الكسرة والضمة ، فضلاً عن كونها ، أي الفتحة ، أكثر الحركات وضوحاً في السمع ، ولهذا لم يجد الناطق ابن اللهجة المدروسة ، صعوبة في تحقيق الفتحة والنطق بها مع المقطع المذكور ، وذلك خلافاً للنطق بالمقطع القصير المؤلف من الصامت وكل من الكسرة أو الضمة .

٨. تتعرض بعض الصوامت المهموسة في اللهجة إلى التجهير ، كما تتعرض صوامت أخرى مجهورة إلى التهميس ، وذلك سعياً لإيجاد نوع من المماثلة ***Assimilation*** بين الأصوات المتجاورة ، ومن أجل تحقيق انسجام صوتي ونطقي بينها ، ومن هذا القبيل ، فإننا نسمع أبناء اللهجة يقولون في كلمة "أخضر" ***ax/dar*** الفصحى ، أغضر ***ax/dar***؛ أي بتجهير الخاء ، كما نسمعهم يقولون في كلمة " اجتماع " ***ijlti/manc*** الفصحى ، اشتماع ***is/ti/maac*** ؛ أي بتهميس الجيم .

وتجدر الإشارة ، في هذا المجال ، إلى أن نسبة الصوامت المهموسة التي يطرأ عليها التجهير في اللهجة المدروسة أكثر قليلا ، وأوضح كثيراً من نسبة الصوامت المجهورة التي يطرأ عليها التهميس ، ولعل هذا يعود إلى طبيعة البيئة التي تحيا فيها اللهجة موضع الدراسة ، فهي بيئة تبتعد في حياتها – نسبيا – عن الحياة التي تغلفها المدنية بزخرفها وتحيطها الحضارة الحديثة بغضارتها ، يضاف إلى ذلك أن معظم أبناء اللهجة المدروسة يحترفون ، في الأعم الأغلب ، مهنا تقتضي منهم عملا يستهلك معظم أوقاتهم في العراء والأرض الفضاء ، مما يدفعهم – مجبورين – إلى رفع أصواتهم في أثناء تخاطبهم ومحادثتهم ، ولا شك في أن الأصوات المجهورة أوضح في السمع ، تتلقاها الأذن في مسافة عندها قد تخفى نظائرها المهموسة

٩. تشترك اللهجة المدروسة والفصحى في اعتبار الصاد ، والضاد، والطاء ، صوامت مفخمة من الدرجة الأولى ، ولكن الفصحى تزيد صامتا مفخماً آخر هو الظاء الذي حولته اللهجة ، إلى صوت الضاد ، أو الزاي المفخمة ، كما تشترك اللهجة مع الفصحى أيضا في اعتبار الخاء ، والغين ، والقاف صوامت ذات تفخيم جزئي ، أو مفخمة من الدرجة الثانية ؛ أي أنها لا تصل في درجة تفخيمها إلى المستوى الذي تتميز به الصوامت المفخمة الأولى ، يضاف إلى ذلك ، أن صفة التفخيم في اللهجة – وكذلك في الفصحى – تعتري صامتي اللام ، والراء في سياقات معينة .

ولكن الفارق بين الصوامت المفخمة والمرققة في الفصحى ، ونظائرها في اللهجة، يكمن في كون التفخيم والترقيق في الفصحى يرتبطان " بالحروف " على حين يرتبطان في اللهجة – بالإضافة إلى ذلك – بالموقع في السياق ، ومن هنا فإن الصوامت المفخمة والمرققة في اللهجة تسعى أثناء تجاورها في مواقعها السياقية إلى إيجاد نوع من المماثلة ***Assimilation*** بينها من اجل تحقيق الانسجام والتناسب الصوتيين بين الأصوات المتجاورة.

من هنا فإن بعض الصوامت المرققة ، في اللهجة ، تتعرض – في سياقات معينة – إلى التفخيم ، فتتحول إلى نظائرها المفخمة ، كما أن اثنين من الصوامت المفخمة في اللهجة، وهما الضاد والطاء ، قد يتعرضان هما الآخران ، في حالات خاصة ، إلى الترقيق فيتحولان إلى نظيريهما المرققين ، وهما الدال والتاء ، كل ذلك بهدف إيجاد نوع من التماثل والتناسب بين الأصوات المتجاورة ، فيقولون ركد ، بدلاً من ركض ، ومدغ ، بدلاً من مضغ، ويقولون : عتشان بدلاً من عطشان ، ...الخ .

١٠.تتعرض بعض صوامت اللهجة – في بعض السياقات الخاصة – إلى تغيير في مخارجها وانتقالها إلى مخارج صوامت أخرى ، ومن أمثلة ذلك صوامت النون والميم ، والشين والسين ، والزاي والجيم ، والفاء والتاء ...الخ .

وفيما يأتي أمثلة سريعة على ذلك :

الكلمة في الأصل	الكلمة بعد تغيير مخرج الصوت في اللهجة
طنبور tan/buur	Tam/buur
حنبلي han/ba/lii	Ham/ballii
انبعت in/ba/ca(	)im/ba/ca/oo
جنب janb	jamb
ممتاز mum/taaz	منتاز mun/taaz
معزوز mac/zuuz	معجزوز Mac/juuz
عزيز ca/ziiz	عجيز Ca/jiiz
كزوز kka/zuuz	كجوز Ka/juuz
شجر sa/jar	Sa/jar

١١.يتعرض تيار الهواء ، المندفع من الرئتين عبر تجويف الفم ، مع بعض الصوامت الفموية في اللهجة ، إلى تغيير مجراه عبر تجويف الأنف ، ويتم ذلك – في حالات خاصة – في قلب صامت اللام الفموي إلى صامت انفي مناظر له صفة ومخرجا هو النون .

ومن أمثلة ذلك النطق اللهجي للكلمات الآتية :

امليح: im/liih(	امنيح im/niih(
بلور bal/luur	بنور ban/nuur
ليرا lee/raa	نيرا nee/raa
اسماعيل is/maa/ciil(	اسماعين is/maa/ciin(

١٢.من اجل تسهيل عملية النطق وبذل حد أدنى من الجهد العضلي أثناءه فان اللهجة تعمد إلى ما يسمى بالقلب المكاني ***Interversion/ Metathesis*** ، حيث تتبادل بعض الصوامت المتجاورة مواقعها في السلسلة الكلامية ، وقد اعترفت اللغة الفصحى بهذه الظاهرة إلى حد بعيد تحت مظلة تيسير النطق ، وإحداث نوع من الانسجام الصوتي ، وهو ما يتوخاه الناطق العامي في نطقه .

ومن أمثلة ذلك النطق اللهجي للكلمات الآتية :

زوج zawj	جوز jooz
زواج ra/waaj	جواز ja/waaz
صه sah	هص hus
حفر ha/far	فحر fa/har
أبله ab/lah(	)ah/bal

١٣. تتخلص اللهجة من تحقيق الهمزة في بعض المواقع ،وذلك إما بحذفها ، أو تحويلها إلى ياء ، حيث إن التخلص من تحقيق الهمزة ظاهرة لهجية قديمة معروفة عند قريش وأكثر أهل الحجاز ، أما تحقيقها فينسب إلى تميم وقيس .

ومن أمثلة ذلك النطق اللهجي للكلمات الآتية :

كأس ka)s	كاس kaas
بئر bi)r	بير biir
مؤنه mu)/nah	مونه muu/nah
سماء (sa/maa)	سما sa/maa
شتاء (si/taa)	شتا si/taa
سمراء (sam/raa)	سمرا sam/ra

١٤. تستخدم اللهجة المدروسة ، كغيرها من اللهجات العربية ، بعض البنى اللغوية المنحوتة ، وهي ، بذلك ، تزود المعجم اللهجي الخاص بها بمواد لغوية ثرَّة . ومن خلال دراستنا لبنى النحت في اللهجة ، وجدنا أن الأحرف التي تميل اللهجة إلى حذفها من تلك البنى المنحوتة ، هي تلك الأصوات التي تتسم بالصعوبة النطقية ، كالهمزة التي تعد من أشق الأصوات نطقاً .

ومن أمثلة ذلك قولهم : ليش ، بمعنى : لأي شيء . وقولهم : قديش ، بمعنى : قدر أي شيء . وقولهم : بعدين ، بمعنى : بعد أين ، وقولهم : كمان ، بمعنى ، كما أن ، وقولهم : لسّا ، بمعنى للساعة . وقولهم : كرمالك ، بمعنى كرماً لك .

١٥. تميل اللهجة إلى استعمال لاصقة اللاحقة "جي" في نهاية بعض الكلمات الدالة على المهن ، نحو قولهم : كنفنجي : أي الذي يعمل في مهنة صناعة الكنافة ، وبويجي ،

أي الذي يعمل في مهنة دهان الاحذية ، على نحو خاص ، وبوسطجي ، أي الذي يعمل في البريد، وغيرها كثير .

١٦. تستخدم اللهجة أعداداً كبيرة من الكلمات ذات الأصول غير العربية، ومنها كلمات ذات أصول فارسية ، وتركية ، وانجليزية ، وفرنسية ، وايطالية... وغيرها .

ومن أمثلة ذلك الكلمات الآتية :

- كلمات فرنسية الأصل ، نحو : أباجور، وأوتمبيل ، وبودرة ، وبلكون ، وجكيت ، وشزلون ، وشفير ، وصالون ...الخ .
- كلمات انجليزية الأصل ، نحو : تلفون ، وراديو ، و كيش ...الخ .
- كلمات تركية الأصل : اختيار ، واغا ، واوضه ، وباباغنوج ، وبالطو(يرجح انها تركية) ، وبرغي ، وبوش ، ودغري ، وشبشب ، وطنجرة ، وطازه ، وقازان ...الخ .
- كلمات ايطالية الأصل : بنطلون ، وفاتورة ...الخ .
- كلمات فارسية الأصل : برواز ، وبشكير ، وبيتنجان ، وبيكار ، وشاكوش ،و طربوش...الخ .

وبعد ، فهذه لمحات درس لغوي سريعة عرضنا فيها ، على نحو موجز ، بعض السمات الصوتية لإحدى اللهجات الفلسطينية البارزة ، وهي لهجة مدينة نابلس . وتجدر الإشارة ، في هذا المجال ، إلى أن هذه اللهجة العربية تتقاطع ، في بعض خصائصها الصوتية ، مع بعض اللهجات العربية الأخرى ، في أماكن مختلفة من عالمنا العربي ، الأمر الذي يؤكد عروبة فلسطين لغة ، ولهجات نطق وكلام ، فضلاً عن عروبتها أرضاً وشعباً ، كما ذكرنا في مستهل هذا البحث المتواضع .

الملامح الأسطورية في الحكاية الخرافية
حكاية جبينة نموذجاً

أ. د. إحسان الديك*

* أستاذ الأدب الشعبي والمنهج الأسطوري والأدب الجاهلي/ قسم اللغة العربية/ جامعة النجاح الوطنية/ نابلس.

الملامح الأسطورية في الحكاية الخرافية حكاية جبينة نموذجاً

بين الأسطورة والخرافة:

لا يستطيع دارس التراث الشعبي في بلد ما أن يتجاوز الملامح الأسطورية في هذا التراث، ذلك أنه ومن اسمه (إرث، موروث) ترثه الأجيال، وتحرص عليه، وتتناقله جيلاً بعد جيل، لارتباطه الوثيق بلا شعورها، وتعبيره عن اهتماماتها الروحية وخلجاتها النفسية.

وإذا كنا نعتمد على التاريخ، وعلم الآثار للوقوف على بدايات الإنسان وتطوره فكراً وحضارة، فإننا أيضاً نعتمد على الكلمة التي يمكن أن تكون أقوى من الحجر في هذا المجال، لاختراقها – بالتداول مشافهة – دروب الزمن السحيق حاملة تصوارته، نابضة بالحياة، حارسة لها من الضياع. فكثير مما حكاه ذاك الإنسان في عصوره الغابرة ما يزال يعيش إلى يومنا هذا، نراه ماثلاً في أقوالنا وأمثالنا وحكاياتنا وأغانينا.

وإذا كان بعضهم يرى في الأسطورة فرعاً من فروع الأدب الشعبي وأحد فنونه، فإني أراها أس هذا الأدب وأساسه، وأصله وجماعه، منها نبعت هذه الفنون، وعنه تفرعت، لأنها المرحلة الأقدم من مراحل الفكر الإنساني التي سبقت كل تاريخ مدون، ولأنها عماد ثقافة ذاك الإنسان، بل هي عقيدته ودينه و تاريخه المقدس، بها اهتدى، وبها تصور واقعه، وصان أخلاقه، وتجاوز محنه، وحقق آماله، واستقرت نفسه.

الأسطورة كما يصفها عبد الحميد يونس «تشبه المادة في أنها لا تكاد تفنى ولا تنعدم وإنما تتعدل صورها وأشكالها ومضامينها ووظائفها، أو تكمن في أعماق النفس الإنسانية وتؤلف ذلك الحشد الهائل من العقائد الثانوية والرواسب والأوهام والخرافات»[١].

والإنسان المعاصر ليس في حل منها، لأنها تمثل النسق الفكري الذي قامت عليه الثقافة البشرية، واحتوت تجارب الأسلاف وموروثات العصور، فظل هذا الإنسان – كما يقول جوستاف يونخ – «مهما بلغ من تحضّر، ما زال سلفه البدائي يكمن في أعماق أعماق نفسه»[٢]، أو كما يقول باشيلار: «حتى في الذهن النيّر ثمة مناطق مظلمة، كهوف تبقى في الظلال حية، حتى في الإنسان الجديد تبقى آثار الإنسان القديم»[٣].

تحضر الأسطورة في كل مظاهر الحياة، وتتجلى في الفن الذي نشأ في رحاب الدين ودرج في أحضانه، وتتجلى أكثر ما تتجلى في الفنون الشعبية وبخاصة الفنون القولية منها المعتمدة على المشافهة، يحملنا على ذلك أن اسمها عند الإغريق منسوبٌ إلى مكان صدورها، إذ «الأسطورة، ***Myhtos*** كانت تعني أول ما تعني عندهم شيئاً يلفظ من الفم ***Mouth***[٤] مصدر النطق والكلام والمشافهة. ومنها جاء علم الميثولوجيا ***Mythology***.

يؤكد علماء الانثربولوجيا أمثال "تايلور" و"لانج" "أن موضوعات الحكاية الخرافية تصدر عن تصورات دينية"(٥)، ويذكر فردريش فون لاين «أن الحكاية الخرافية لم تكن في أصلها سوى أسطورة آلهة ... عاشتا إحداهما بجانب الأخرى، فكلاهما قديم، وكلاهما نبع من أصول واحدة، وبهذا تكون الحكاية الخرافية «شكلاً غير جدّي» لأسطورة الآلهة، ولم يحدث الانفصال التام بين النوعين إلا في عصور متأخرة، حينما أمكن تمييز الديني بوصفه نقيضاً للدنيوي، ولم يحدث هذا بكل تأكيد في وقت واحد لدى جميع الشعوب، بل إنه لم يحدث لدى جميع طبقات الشعب الواحد دفعة واحدة»(٦).

تنتمي الأسطورة إلى الزمن الميثي القديم، وتشير الحكاية الخرافية إلى هذا الزمن، في بدايته بقول الراوي: «كان ياما كان في قديم الزمان» فكلاهما عاش في عالم ديني سحري مقدس، ويحكي أعمالاً متشابهة متجانسة، فالبطل الإلهي – في الأسطورة – يقضي على قوى العماء والشر، لتحقيق النظام في الكون، وتكرر الحكاية الخرافية هذا «الموتيف» بطريقة رمزية تصويرية، يضفي عليه القاص أحداثاً دنيوية نابعة من خياله بخفة ورشاقة، ليبعث الراحة والطمأنينة في نفوس سامعيه، وينتصر البطل الخيّر على الشر في النهاية، وهنا ينضاف الجانب الدنيوي إلى الجانب الديني الذي تقوم عليه الأسطورة.

«إن التشابه بين القصص الشعبية عند الأمم المختلفة من ناحية، وبينها وبين الأساطير من ناحية أخرى، يدل على أن هذا القصص الشعبي قد احتفظ بكثير من خصائص الأسطورة التي حورت في فنون الأدب الرسمي كالملحمة والتراجيديا، وسواء أكان التشابه بين الأساطير والقصص الشعبية راجعاً إلى أنها نبتت جميعاً في مكان واحد وتنوقلت بعد ذلك، أم إلى التشابه في نفسيات البشر الذين ضاعوا في أمكنة مختلفة من العالم فإننا محقون حين نبحث عن منطق الأسطورة الذي ينظم حوادثها»(٧).

والحكاية الخرافية الفلسطينية مثل بقية الحكايات الخرافية في مجتمع آخر، ترجع في أصولها إلى الجذور الإنسانية المشتركة المتوارثة، نلمح فيها ترسبات الأساطير والمعتقدات والديانات المتعددة كالروحانية والطوطمية والفتشية، والسحر والرؤى والأحلام، وتحمل في ثناياها إلى جانب ذلك ملامح مجتمعها في الزمان والمكان، وتتأثر بالظروف الاقتصادية والاجتماعية التي ينشأ عنها مواقف وتحديات تجاه الحياة.

وحكاية جبينة من عيون الحكايات الشعبية، احتفت بها الذاكرة الفلسطينية، وأنزلتها منزلة رفيعة، حفظها الكبار والصغار، والشيوخ والنساء عن ظهر قلب، وشقت طريقها في الأعمال الأدبية شعراً ونثراً، **فما سر هذا الحضور؟ وما بواعث هذا الاحتفاء؟**

ترتد هذه الحكاية على المرأة الأنثى شكلاً ومضموناً، وفي هذا الارتداد عودة إلى أعماق الماضي السحيق إلى المجتمع الأمومي الذي أسلم فيه الذكر زمان أموره دينياً ودنيوياً واجتماعياً إلى الأنثى التي قدست في كل الديانات القديمة وعبدت قبل أن يعبد الإله الذكر لقواها الروحية وايقاع جسدها المنسجم مع ايقاع الطبيعة.

ترتد شكلاً من خلال ارتباط روايتها – كغيرها من الحكايات الخرافية – بالنساء، حتى إن رجالاً كثيرين يقولون عن هذا النوع من الفن «حكايات عجائز» أو «ثرثرة عجائز» ويقولون عن الرجل المغرم بهذه الحكايات وروايتها «نسونجي» لأنه يميل إلى مجالسة النساء والاستماع إلى أحاديثهن، والرجل بطبعه يأبى هذه الصفة، ويفضل الجلوس في الديوان مع أقرانه، والاستماع إلى أحاديث المغامرة والبطولة الممثلة في السير الشعبية.

يعود الفضل إذن إلى النساء في المحافظة على الحكاية الشعبية ونقلها وتطويرها[٨]، لتميزهن بضروب من الكلام الأنيق والقدرة على التخيّل، والتأثير في السامعين، وعلى الرجل الذي يودّ رواية الحكاية أن يأخذ سمت النساء في السرد ويسير على هديهن لتكون روايته مرضية.

وليس هذا بغريب فقد تشبّه الكهان ورجال الدين في العصور القديمة بالمرأة الكاهنة في قولها وشكلها ولباسها؛ لاكتساب قدراتها الروحية القادرة على الوصل بين عالم الآلهة وعالم البشر.

ولعل طبيعة حياة الرجل في المجتمع البدائي التي اقتصرت على الصيد والتنقل وراء الطرائد، جعلت المرأة أقرب منه إلى أبنائها تحضنهم، وتحنوا عليهم، وتحدثهم بمثل هذا اللون من الحكي الغرائبي الذي يقوم على القص الشفوي المتخيل.

أما ارتدادها مضموناً فمن خلال دورانها حول البطلة الأنثى «جبينة»، مما يؤكد حضور عصر البطولة الذي كانت فيه الأنثى جنباً إلى جنب مع الذكر، أو تتفوق عليه مكانة وقداسة.

جبينة الأم الكبرى / عشتار:

تمتد جذور علاقة المرأة / جبنية بالأم الكبرى / عشتار إلى أعماق الماضي، حين رأى الإنسان القديم في المرأة المخصبة صنواً للأرض «فمن جسدها تنشأ حياة جديدة، ومن صدرها ينبع حليب الحياة .... وخصبها وما تفيض به على أطفالها هو خصب الطبيعة التي تهب العشب معاشاً لقطعان الصيد، وثمار الشجر غذاء للبشر .... لقد كانت المرأة سرّاً أصغر مرتبطاً بسرّ أكبر، سرّ كامن خلف كل التَّبديات في الطبيعة والأكوان، فوراء كل ذلك أنثى

كونية عظيمة هي منشأ الأشياء ومردّها وعنها تصدر الموجودات، وإلى رحمها يؤول كل شيء كما صدر»[٩].

كانت عبادة الأم الكبرى منتشرة عند كل الشعوب القديمة، قبل السومريين وبعدهم واختلفت أسماؤها باختلاف الأمم التي عبدتها فهي «إنانا» السومرية» و»عشتار» البابلية والأكادية و»أناتييس» الأشورية، و»عناة» الكنعانية، و»عشيرة» أو «أثيرة» الفينيقية «عشتروت» العبرانية، و»أفروديت» الإغريقية و»فينوس» الرومانية، و»ايزيس» المصرية، و»أناهيد» الفارسية، و»العزّى» أو «الزهرة» العربية[١٠].

هذه هي الأم الكبرى وإن تعددت أسماؤها، وتنوعت تجلياتها، سطع اسم عشتار من بين أسمائها واشتُهر بين الباحثين والدارسين لأن طقوس عبادتها هي عينها طقوس عبادة عشتار البابلية.

كانت عشتار في الفكر القديم تجسيداً للطبيعة الحية وقوة الاخصاب الكونية، وكان غيابها وعودتها في الملحمة السومرية «هبوط إنانا إلى العالم الأسفل» التي تناسخت في الملحمة البابلية «هبوط عشتار إلى العالم الأسفل» تمثيلاً لدورة الحياة في الطبيعة، فحين تغيب تجف الأرض» ويتوقف النسل وتتعطل مظاهر الحياة، وحين تعود، يعم الخصب، ويكثر الخير وينمو النبات[١١].

وهكذا تبدو جبينة في حكايتها، مثل عشتار، نراها علة الإخصاب الأولى، باعثةً السعادة وواهبةً الحياة، من خلال حرص الإناث الأخريات على مرافقتها لهن وكأنها الملكة وهن الوصيفات، ومن خلال احتفاء عناصر الطبيعة بها كما تحتفي بعشتار، ولهذا، فحين غابت عن دورها وطبيعتها، وتحولت إلى اللون الأسود / العبدة، باعتباره معادلاً موضوعياً للعالم السفلي الأسود الذي تغيب فيه عشتار، ندبت الكائنات هذا الغياب، وماتت الحياة، فهزلت الأبقار والأغنام، وأخذت مع الطيور وبقية الحيوانات تبكي مع بكاء جبينة حين تسمعها تغني بحرقة وألم:

يـــا طـيـــــور طـايـــره
ويـــا وحـــوشـــ ســـايـره
ســلـمـن ع أمّـــــي وابـــوي
وقـــولـــن جـبـيـنـة راعـيـــة
تـــرعـــى بـــقـــر تـــرعـــى
سخول تـقـيّـل تحـت الـدالـيـــة

ولا يختلف هذا الموتيف كثيراً عما ورد في أسطورة هبوط عشتار إلى العالم الأسفل التي تقول:

«ولما نزلت السيدة إشتار إلى الأرض التي لا يعود منها من يدخلها،
لم يعل الثور البقرة، ولم يقرب الحمار الأتان
والفتاة في الطريق لم يقترب منها الرجل»(١٢)

وحين تعود جبينة إلى سيرتها الأولى، وتتحرر من عبوديتها، كما بعثت عشتار من مرقدها في العالم الأسفل، تعود الحياة ويعم الخصب، فتتزوج من الأمير وتنجب الأولاد، وتعود إلى والديها فتعيد لهما البصر بلمساتها السحرية، ويخرجان من عالم الظلام – رمز الموت في الحياة الذي يشاكل غياب جبينة وغياب عشتار – إلى عالم الضياء والنور والحياة عالم عودة جبينة وعشتار.

وارتبطت جبينة بعشتار من خلال علاقتهما المشتركة بالماء، فلقد امتلأت آبار قرية جبينة بالماء لحظة عودتها، بعد أن جفت بانقطاع المطر لطول غيابها، وهكذا كانت عشتار في الفكر القديم ابنة الإله «آنو» الذي يسيّر الرياح والأمطار(١٣)، ظهرت على بعض الأختام والمطر ينهمر من بين يديها(١٤)، ولعل في نسبة العرب المطر إلى الكواكب في قولهم «مطرنا بنوء كذا» إشارة إلى الإله «آنو» وإلى ابنته النجمة ***Star*** / آشتار / عشتار / عيش الأرض / الزهرة "ألمع الكواكب وأجملها.

اللونان الأبيض والأسود:

تعود قداسة اللونين الأبيض والأسود إلى الذهنية البدائية التي رأت في اللون الأبيض لون عالم الآلهة والملائكة، عالم الضياء والخير والنماء، وفي اللون الأسود لون عالم الجن والموتى والظلام والشر والفناء. ومما يدلل على قدمهما وارتباطهما بالبدايات «أنهما أول لونين وضعت لهما ألفاظ لونية في معظم لغات العالم»(١٥).

هذان النقيضان بما يمثّلان وما يرمزان، هما الخيطان اللذان ينسجان مادة الكون في دورته الأبدية في صراع دوري درامي. تمثّلتهما الأسطورة في صراع آلهة الخير والحياة مع آلهة الشر والموت، في صراع بعل مع يم، وأوزوريس مع سيت، ومردوخ مع تعامة، وأهورا مازدا مع أهريمان، وغدا استرضاء وجه الإله الأبيض والانتصار له، واتقاء غضب الإله الأسود والخوف منه جوهر الطقوس والعبادات.

تنتمي جبينة من خلال اسمها الذي هو تصغير للجبنة على سبيل التحبب، ومن خلال لونها الأبيض إلى لون عالم الآلهة والسماء، فقد تمنت الأم أن ترزق بفتاة أنثى كأنوثة

الإلهة بيضاء كبياضها، جميلة كجمالها، وكأن باب السماء كان مفتوحاً فاستجابت الآلهة لها، فرزقتها بمثلها، لأن في استدعاء هذا اللون استرجاع لحامله الأنثوي الأول / عشتار / الزهرة.

وتنتمي العبدة من خلال لونها الأسود، وممارساتها الشريرة التي تلتقي مع الغول – رمز التغول والموت – شكلاً وفعلاً، إلى آلهة العماء والظلام التي سعت في البدء، وما تزال تسعى إلى السيطرة على الكون وخلخلة موازينه، وتهديد أمن الناس والتربص بهم.

إن شعور الإنسان الدائم – على مدى التاريخ – بعدم القدرة على التكيف مع الجماعة الإنسانية التي يعيش فيها أو تكيف الجماعة الإنسانية نفسها مع الكون الذي يحيط بها، هو الذي يدفعه دائماً إلى تمثيل هذا الصراع في الأساطير والأدب والقصص الشعبي بخلق أبطال خيرين وشريرين يعودن بهم إلى منابع الحياة الأولى لتستقيم الحياة كما استقامت في البدء.

على الرغم من كثرة الصعوبات التي قابلت البطلة جبينة وتكالب قوى الشر عليها في هذه الحكاية، مثل تخلي قريناتها عنها، وتركها في الليل على شجرة الدوم، ومجيء الغول عليها واقتيادها إلى قصره، وامتلاء قدحها ووعائها بالأفاعي والعقارب بدلاً من ثمر الروم، وتحولها من سيدة إلى عبدة، وفقدان بصر والديها وكذلك فقدان فلذات أكبادها (أولادها الثلاثة) دفاعاً عن عرضها وشرفها، – على الرغم من كل ذلك – انتصر الخير في النهاية على الشر، وتغلّب النظام على الفوضى، والضياء على العماء أي الأبيض على الأسود.

هكذا تحاول الحكاية إخراج اللاشعور الجمعي القار في أعماق النفس البشرية، والعودة بنا إلى أسطورة النشأة الأولى وخلق الكون، وما رافق هذه النشأة من صراع بين قوى الخير والشر بإسقاط أسطورية هذين اللونين على جبينة والعبدة، وشحنهما بالدلالات التي شكلت موروثاً جمعياً توارثه البشر على اختلاف الثقافات واللغات.

كما تحاول الحكاية الإشارة إلى مرحلة الاعتقاد بالإله الكوني الشمولي، الذي يمسك «بخيوط القوتين الكونيتين بذراعيه الاثنتين، فباليمنى يمسك قوة الحياة والخير، وباليسرى قوة الموت والشر، وهنا تغدو مسألة استرضاء وجه الإله الأبيض، واتقاء غضب وجهه الأسود، الموضوع الأساس للعبادة والطقوس»[١٦].

وهذا يقربنا مما قلناه سابقاً عن تناسخ عشتار في جبينة إذا نظرنا إلى جبينة والعبدة باعتبارهما وجهين للأنثى الواحدة وليس باعتبارهما شخصيتين منفصلتين، وهنا تتبدّى الأم الكبرى عشتار بوجهها الأبيض حين تكون ربة للحب والخصب والنماء حالّة في جبينة، وبوجهها الأسود حين تكون ربة للموت والدمار (ليليت) حالة في العبدة.

الخرزة الزرقاء:

اعتقد الإنسان القديم – اعتماداً على المذهب الروحاني – أن في الحجارة الكريمة قوى سحرية وتأثيرات غيبية عجيبة تجعلها قادرة على جَلْب الخير للإنسان ودرء الشر عنه. فاتخذ من أنواعها وأشكالها وألوانها، تمائم ورقى وتعاويذ، ومن أكثرها شيوعاً الخرزة الزرقاء التي اشتهرت على مرّ التاريخي وسيلة للوقاية من الأمراض والسحر والحسد، وحماية صاحبها من المصائب والشرور. ولا يزال الناس إلى أيامنا هذه يستخدمون هذه الخرزة التي في وسطها شكل العين منفرداً أو في وسط كف، يضعونها على صدر الوليد والعريس وباب المنزل الجديد للحماية وإبعاد الشر.

وترتبط أسطورة الخرزة بأسطورة العين التي تعود في جذورهما إلى أسطورة مصرية قديمة تمثل الإله في هيئة صقر «عينه اليمنى هي الشمس وعينه اليسرى هي القمر»[١٧] وحين «كانت العين إلهاً قديراً متحكماً يفيض بالخير والماء على من يشاء (العين = القمر = الماء) ويصيب بنعمته ونيرانه وعذابه من يريد (العين = الشمس = الحية)[١٨] مما يدل على ارتباطها بدالتين متناقضتين.

ولعل الخرزة التي وردت في الحكاية وأعطتها الأم لجبينة من هذا النوع لأن الحكاية تصفها زرقاء، وسمّتها بخرزة المنى لحمايتها، ووصفتها بأنها ناطقة، فحينما أرادت العبدة مرات ومرات الركوب محل جبينة على الفرس، كانت جبينة تستنجد بأمها، فترد عليها الخرزة بصوت الأم قائلة: «سوقي يا عبدة يا جارية، سيري بها» فتعتقد العبدة أن أم جبينة قريبة منها، فتسوق وتسير.

وكما يختفي صوت الإنسان أو يخفت إن كان بعيداً، كذلك بدا صوت الأم الآتي من الخرزة حين سقطت في الماء وابتعدت عنها جبينة، فظنت العبدة أن الأم بعيدة ولهذا أنزلت جبينة عن الفرس وتبادلت معها اللون عنوة، وركبت مكانها.

التضحية بالأبناء الثلاثة وقص شعرهم:

بعد أن عادت جبينة إلى سيرتها الأولى ولونها الأبيض، تزوجت من الأمير، وأنجبت له ثلاثة أبناء، وبعد زمن رآها زوجها حزينة، فسألها عن حزنها، فقالت له: إنها اشتاقت إلى والديها وترغب في زيارتهما، فأعد لها الأمير مجموعة من الفرسان لحمايتها، وفي الطريق أراد الجميع الراحة والنوم، فنامت جبينة مع أولادها في خيمة، فجاءها أحد الفرسان وراودها عن نفسه وإلا قتل أحد أبنائها، وفي كل ليلة كان يقتل واحداً من أبنائها، وقبل قتله كانت جبينة تقص خصلة من شعره وتحتفظ بها.

قد يُعتقد أن هذا «الموتيف» له علاقة بشرف المرأة العربية، وتضحيتها بكل شيء حفاظاً على عرضها، وهذا يتنافى مع طبيعة الأم التي تفضل الموت على أن ترى أحد أبنائها يقتل أمام ناظريها.

أرى أن في هذا الموتيف ملمحاً أسطورياً يمتد في عمق التاريخ، ويعود إلى مرحلة القربان البشرى حين كان يقدم الإنسان أطفاله قرابين للآلهة لحمايته وحفظه مما يحيق به من مهالك وأضرار، فقد ضحّى ملك مؤاب بابنه الأكبر رجاء فك الحصار عن مدينته[١٩]، وجرى الفينيقيون على شرعة التضحية بالابن البكر[٢٠]، ودليل ذلك من النص نفسه، فإذا استطاعت جبينة الهرب في الليلة الأخيرة، وبعد مقتل أبنائها الثلاثة، فلم لم تهرب في الليلة الأولى وتحافظ على أبنائها أحياء وإن كانوا بعيدين عنها؟

مما يعزّز هذا التوجه عدد الأبناء الثلاثة، والتركيز على هذا الرقم، وهو رقم مقدس في كل الديانات القديمة، يعود إلى اعتقاد القدماء بالثالوت الإلهي الذي يمثل الأسرة الإلهية على عزار البشر، فيتمثل في الإله الأب / القمر، والإلهة الأم الشمس، والإله الابنة أو الابنة / عشتر أو عشتار.

وتنضاف إلى دالة الرقم ثلاثة دالة قداسة الشعر، فما الدافع الذي دفع جبينة –= في ظل هذا الموقف العصيب، وقد انقسمت روحها بين خوفها على عرضها وخوفها على أبنائها – لقص خصلة من شعر كل ابن من أبنائها؟ وما السر الكامن وراء هذا؟

لا يمكن قَصْر تفسير هذا الطقس على أنه نتاج حزن جبينة على أبنائها، جرياً على ما كان يفعله القدماء، وما نفعله اليوم بقص الشعر حزناً على وفاة قريب.

هل قامت جبينة بهذا الطقس اعتقاداً منها بالقوة السحرية الكامنة في الشعر؟ أم اعتماداً على المذهب الفتشي الذي يقوم على تمثيل الجزء صورة الكل، فاعتقدت بحلول أرواح أبنائها في شعرهم أملاً بعودتها مرة ثانية إلى أجسادهم، على غرار ما ورد في حكاية بليبل الصياح حين حلت روحه في عظامه بعد ذبحه، وعاد إلى الوجود بعد أن استخرجت أخته عظامه وجمعتها؟

لا غرابة في ذلك، فقد كان وما يزال للشعر بعده الأسطوري، لاعتقاد القدماء أنه ممكن قوة الإنسان[٢١]، وكان الغرض من نثره على قبر الميت، تقديم القوة له لتساعده على القيام من موته، ولذا كان قص الشعر أو قطعه عملاً تعبدياً «فإذا مات البدائي قطع شعره، وحفظ في مكان خاص لا تراه النساء ولا غير المتطهرين»[٢٢].

ولعل فيما ورد في قصة شمشون ودليلة الغزية ما يشير إلى هذه القداسة وسر القوة. وبهذا تلتقي هذه الدوال الثلاث (التضحية بالأبناء، والرقم ثلاثة، وقص الشعر) لتشكل ملمحاً أسطورياً آخر يندغم مع الملامح الأسطورية السابقة للتأكيد على عنوان هذا البحث، وللتدليل على أسطورية الحكاية الخرافية.

الهوامش:

١. يونس، عبد الحميد: الحكاية الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥، ص٢١.

٢. أحمد، عبد الفتاح محمد: المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، ط١، دار المناهل، بيروت، ١٩٨٧، ص٣٨.

٣. جبرا، جبرا ابراهيم: الأسطورة والرمز، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص٤٠.

٤. رانفين، ك.ك: الأسطورة، ترجمة، جعفر صادق الخليلي، ط١، منشورات عويدات، بيروت – باريس، ١٩٨١، ص٦٤.

٥. دير لاين، فردريش فون: الحكاية الخرافية، ترجمة نبيلة إبراهيم، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣، ٦٧.

٦. المرجع السابق، ص١٥٣، ١٥٤.

٧. عيّاد: شكري محمد: البطل في الأدب والأساطير، ط٢، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧١، ص٧٥. وانظر ابراهيم، نبيلة: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط٢، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٤، ص٧٢.

٨. مهوّي، إبراهيم، وكناعنة، شرف: قول يا طير، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠١، ص٩.

٩. السوّاح، فراس: لغز عشتار (الألوهية المؤنثة وأصل الدين والأسطورة)، ط٦، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٦، ص٢٥.

١٠. الديك، إحسان: صدى عشتار في الشعر الجاهلي، مجلة النجاح للأبحاث، المجلد ١٥، خزيران ٢٠٠١، ص١٤٨.

١١. الديك، إحسان: عينية الحادرة ترتيلة استمطار في محراب عشتار، المجلة الأردنية للغة العربية وآدابها، المجلد ٦، العدد ٢، نيسان ٢٠١٠، ص١٩.

١٢. ديورانت، ول: قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محفوظ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، والقاهرة، ١٩٦٥، المجلد الأول ٢/٢٢٥، وانظر: هوك، صموئيل هنري: منعطف المخيلة البشرية، ترجمة صبحي الحديدي، دار الحوار للنشر والتوزيع. اللاذقية، ١٩٨٣، ص٣٢.

١٣. السواح، فراس: لغز عشتار ص٥٣.

١٤. المرجع السابق، ص٢١٢.

١٥. عمر، مختار، أحمد: اللغة واللون، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٢، ص١٦٥.

١٦. السواح، فراس: لغز عشتار ص٢٠٧.

١٧. كلارك، رندل: الرمز والأسطورة في مصر القديمة، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص٢١٤.

١٨. علي، إبراهيم محمد: اللون في الشعر العربي القديم، قراءة ميثولوجية، جروس برس، طرابلس لبنان، ٢٠٠١، ص٢٤٨.

١٩. ديورانت، ول: قصة الحضارة، مجلد ١، ج٢/٣١٩.

٢٠. زايد، عبد الحميد: الشرق الخالد، دار النهضة، القاهرة، د.ت، ص٣٠٢.

٢١. فريزر، جيمس: الفلكلور في العهد القديم، ترجمة نبيلة إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ٢/٧٤٢.

٢٢. النشار، علي سامي: نشأة الدين، دار نشر الثقافة، الاسكندرية، ١٩٤٩، ص١٢٣.

المصادر والمراجع:

١. إبراهيم، نبيلة: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط٢، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٤.

٢. أحمد، عبد الفتاح محمد: المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، ط١، دار المناهل، بيروت، ١٩٨٧.

٣. جبرا، جبرا إبراهيم: الأسطورة والرمز، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٤. الديك، إحسان: صدى عشتار في الشعر الجاهلي، مجلة النجاح للأبحاث، المجلد ١٥، حزيران، ٢٠٠١.

: عينية الحادرة ترنيمة استمطار في محراب عشتار، المجلة الأردنية للغة العربية وآدابها، المجلد ٦، العدد ٢، نيسان ٢٠١٠.

٥. دير لاين، فردريش فون: الحكاية الخرافية، ترجمة نبيلة إبراهيم، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣.

٦. ديورانت، ول: قصة الحضارة، ترجمة نجيب محفوظ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

٧. رانفين، ك، ك: الأسطورة، ترجمة جعفر صادق الخليل، ط١، منشورات عويدات، بيروت – باريس، ١٩٨١.

٨. زايد، عبد الحميد: الشرق الخالد، دار النهضة، القاهرة، د.ت.

٩. السواح، فراس: لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، ط٦، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٦.

١٠. عمر، مختار أحمد: اللغة واللون، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٢.

١١. علي، إبراهيم محمد: اللون في الشعر العربي القديم، قراءة ميثولوجية، جروس برس، طرابلس، لبنان، ٢٠٠١.

١٢. عياد، شكري: البطل في الأدب والأساطير، ط٢، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧١.

١٣. فريزر، جيمس: الفلكلور في العهد القديم، ترجمة نبيلة إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

١٤. كلارك، رندل: الرمز والأسطورة في مصر القديمة، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨.

١٥. مهوى إبراهيم، وكناعنة شريف: قول ياطير ، ط١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠١.

١٦. النشار، علي سامي: نشأة الدين، دار نشر الثقافة، الاسكندرية، ١٩٤٩.

١٧. هوك، صموئيل هنري: منعطف المخيلة البشرية، ترجمة صبحي الحديدي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ١٩٨٣.

١٨. يونس، عبد الحميد: الحكاية الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥.

الشعبونة في مدينة نابلس
بين التقاليد والدين

د. عمر عتيق*

* أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها/ جامعة القدس المفتوحة/ فرع جنين.

الشعبونة في مدينة نابلس بين التقاليد والدين

تعاين الدراسة تجليات (الشعبونة) بين التقاليد والدين في مدينة نابلس . وتقف الدراسة على ستة محاور ؛ الأول : الأصل اللغوي لـ (الشعبونة) ، والعلاقة بين تسمية شهر شعبان والتجليات الاجتماعية للشعبونة. والمحور الثاني : ليلة الشعلة (ليلة النصف من شعبان) .والمحور الثالث : تأثير الاحتفال بليلة النصف من شعبان في نابلس على العالم الإسلامي. والمحور الرابع ليلة النصف من شعبان بين الموروث الشعبي والخطاب الديني. والمحور الخامس : التواصل العائلي والموائد الشعبانية. والمحور السادس : التكافل الاجتماعي (الشعبونات الخيرية). والمحور السابع: الأغاني الشعبية في (الشعبونة).

حول الدلالة اللغوية لكلمة الشعبونة أو الشعبونية:

لم ترد كلمة الشعبونة أو الشعبونية في المعاجم – فيما أعلم – ، وأزعم أن الكلمة صيغة صرفية عامية اصطلح عليها للدلالة على الصيغة المفردة لشهر شعبان ؛ لأن جمع شعبان شعبانات وشعابين . [١] ويستخدم أهل الجزيرة العربية لفظ " الشعبنة " بدلا من " الشعبونة " .

وتحمل مادة " شعب " جينات دلالية تنسجم مع السياق الاجتماعي للعادات والتقاليد في مدينة نابلس التي تحرص على صلة الأرحام والتكافل الأسري والاجتماعي ،ففي اللغة التَأَمَ شَعْبُهم إذا اجتمعوا بعد التفرُّق ، وتَفَرَّقَ شَعْبُهم إذا تَفَرَّقُوا بعد الاجتماع.[٢] وتنسجم دلالة الاجتماع والالتئام مع الاجتماعات العائلية والموائد الشعبانية – كما سيتبين فيما بعد – .

وشَعْبانُ اسمٌ للشَّهْرِ سُمِّيَ بذلك لتَشَعُّبِهم فيه أَي تَفَرُّقِهم في طَلَبِ المياه ، وقيل في الغارات . وقال بعضهم : إنما سُمِّيَ شَعبانُ شَعبانَ ؛ لأنه شَعَبَ أي ظَهَرَ بين شَهْرَيْ رمضانَ ورَجَب والجمع شَعْباناتٌ وشَعابينُ كرمضانَ ورَمَاضينَ. [٣] وقيل :كانَ شَعْبَانُ شَهْرًا تَتَشَعَّبُ فِيهِ الْقَبَائِلُ، أَيْ: تَتَفَرَّقُ لِقَصْدِ الْمُلُوكِ وَالْتِمَاسِ الْعَطِيَّةِ .[٤]

وأزعم أن علاقة دلالية خفية تجمع بين دلالة تسمية شهر شعبان وطقوس الشعبونة ؛ إذ إن ذهاب القبائل العربية إلى الملوك لالتماس العطايا والهبات في شهر شعبان يتقاطع من الناحية الاجتماعية مع الدعوة إلى الولائم والموائد الشعبانية التي تعد مظهرا اجتماعيا تتجلى فيه قيم الكرم وحسن الضيافة والاستقبال وتقديم الهدايا النقدية والعينية .

ليلة الشعلة (ليلة النصف من شعبان):

الجذور التاريخية لإحياء ليلة النصف من شعبان:

يحتفي أهل مدينة نابلس بليلة النصف من شعبان ، وتشهد مساجد المدينة أجواء روحانية وشعائر دينية يُرتل فيها القرآن الكريم ، وتتضرع القلوب بالأدعية ، ويصدح المنشدون بالمدائح النبوية . وتذكر بعض المصادر التاريخية أن إحياء ليلة النصف من شعبان في فلسطين عامة نشأ قبل ألف عام تقريبا ، بوساطة شخص من نابلس يسمى(ابن أبي الحمراء) كما نص الطرطوشي في كتابه (الحوادث والبدع) بقوله : وأخبرني أبو محمد المقدسي؛ قال: « لم يكن عندنا ببيت المقدس قط صلاة الرغائب هذه التي تصلى في رجب وشعبان، وأول ما حدثت عندنا في أول سنة (٤٤٨ ه) ثمان وأربعين وأربع مائة حينما قدم علينا في بيت المقدس رجل من نابُلُس يعرف بابن أبي الحمراء، وكان حسن التلاوة، فقام، فصلى في المسجد الأقصى ليلة النصف من شعبان، فأحرم خلفه رجل، ثم انضاف إليهما ثالث، ورابع، فما ختمها إلا وهم في جماعة كثيرة ، وانتشرت الصلاة في المسجد الأقصى، وبيوت الناس ومنازلهم، ثم استقرت كأنها سنة إلى يومنا هذا . [٥]

تأثير الاحتفال بليلة النصف من شعبان في نابلس على العالم الإسلامي:

تشير بعض المصادر أن الاحتفال والصلاة في ليلة منتصف شعبان التي ابتدعها رجل من نابلس وهو ابن أبي الحمراء قد انتشرت في أرجاء بلاد المسلمين ، وهذا يعني أن نابلس هي المدينة الأولى التي أحدثت بدعة الاحتفال والصلاة في ليلة منتصف شعبان ، وأن انتشار هذه البدعة كان سببا في وضع بعض الأحاديث والأخبار المنسوبة إلى النبي عليه السلام ، وهو استنتاج يؤكده ما ذهب إليه علي الملا في كتابه (الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة) بقوله : ((وَهَذِهِ الصَّلَاةُ وُضِعَتْ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الأربعمائة وَنَشَأَتْ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَوُضِعَ لَهَا عدَّة أَحَادِيث مِنْهَا مَنْ قَرَأَ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ أَلْفَ مَرَّة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الْحَدِيثَ بطُوله وَفِيهِ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ مائَةَ أَلْف ملك يُبَشِّرُونَهُ وَحَدِيث مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ النِّصْف مِنْ شَعْبَانَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَة ثَلَاثِينَ مَرَّةً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ شُفِّعَ فِي عَشَرَة قَدِ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ . وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي لَا يَصِحُّ مِنْهَا شيء.)) [٦]

إيقاد المشاعل في ليلة النصف من شعبان في نابلس:

ظهر في مدينة نابلس في ليلة النصف من شعبان ما يسمى «ليلة الشعلة» ، فقد كان أهل المدينة يحتفظون بالرماد الناجم عن وقود التدفئة، فيعبئونه بالعلب ويضعون هذه

العلب المعبأة بالرماد على حواف أسطح بيوتهم، ثم يصبون عليها قليلاً من الوقود السائل «الكان» ويشعلونها.

وكان هناك نفر آخر من الأطفال والشبان يحملون هذه الشعلات ويطوفون في شوارع المدينة القديمة وأزقتها، وهم ينشدون أناشيد دينية خاصة في المناسبة ترافقهم في كثير من الأحيان «العدة»، وهي مجموعة من الشيوخ المنتمين إلى الزاوية الصوفية، فيحملون الطبول والصاجات والسيوف والرايات ويطوفون في طرقات المدينة وقصباتها، وهم يقرعون هذه الطبول والصاجات حتى ساعات متأخرة من الليل .[٧] ومن المرجح أن يكون إحياء ليلة الشعلة في مدينة نابلس امتداداً لإحياء ليلة « الوقيد «في الحجاز.

إيقاد المشاعل بين الطقوس الروحانية والجذور المجوسية:

تربط بعض المصادر إيقاد المشاعل في ليلة النصف من شعبان بما كان يفعله بعض البرامكة ، كما ورد في كتاب (ما وضح واستبان في فضائل شهر شعبان) ، وَهي مِمَّا أَحْدَثَهُ الْمُبْتَدِعُونَ اللَّيْلَةُ الَّتِي هِيَ لَيْلَةُ الْوَقُودِ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَ الْعَامَّةِ بِلَيْلَةِ الْوَقِيدِ، وَهِيَ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ وَأَوَّلُ مَا حَدَثَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الْبَرَامِكَةِ، وَكَانَتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ بِالْوَزَارَةِ الْمَرْفُوعَةِ السَّامِكَةِ، وَجَدُّهُمْ بَرْمَكُ هُوَ الَّذِي نُسِبُوا إِلَيْهِ، وَدِينُهُمُ الْمَجُوسِيَّةُ فِيمَا يَعُولُونَ عَلَيْهِ، فَأَدْخَلُوا فِي دِينِ الإِسْلامِ، مَا يُمَوِّهُونَ بِهِ عَلَى الطَّغَامِ، وَهُوَ جَعْلُهُمُ الإِيقَادَ فِي شَعْبَانَ، كَأَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الإِيمَانِ، وَمَقْصُودُهُمْ عِبَادَةُ النِّيرَانِ، حَتَّى إِذَا صَلَّى الْمُسْلِمُونَ فَرَكَعُوا وَسَجَدُوا، كَانَ ذَلِكَ لِلنَّارِ الَّتِي أَوْقَدُوا.... وَمَضَتْ عَلَى ذَلِكَ السُّنُونُ وَالأَعْصَارُ، وَتَبِعَتْ بَغْدَادَ فِيهِ سَائِرُ الأَمْصَارِ، إِلَى أَنْ أَخْفَتَ **اللَّهُ** صَوْتَهُمْ، وَقَدَّرَ هَلَكَتَهُمْ وَمَوْتَهُمْ، فَكَانَتْ نَكْبَتُهُمْ فِي زَمَنِ هَارُونَ الرَّشِيدِ.[٨]

واللافت أن رواسب طقوس البرامكة من حيث إيقاد النار في ليلة النصف من شعبان ما زالت تظهر في بعض الأماكن في الجزيرة العربية ، وبخاصة في بعض الحفلات التي يقيمها الشبان ،وتُعرف بـ (رقصة المزمار) ، كما يبدو في الصورة الآتية[٩] التي تشير إلى علاقة البرامكة بإيقاد النار في ليلة النصف من شعبان ، ولا يخفى تقديس المجوس للنار . واستئناساً بما تقدم فإن إيقاد المشاعل في ليلة النصف من شعبان في مدينة نابلس عادة يجب أن تتوقف بسبب جذورها المجوسية ، على الرغم من أن الذين يحتفلون بإيقاد المشاعل لا يعلمون الحقيقة التاريخية لنشأتها ، ولا يدركون الانحراف العقائدي الذي ترمز إليه النار في تلك الليلة.

السياق الروحاني لليلة النصف من شعبان بين نابلس والجزيرة العربية:

من المفيد أن نشير إلى الأجواء الروحانية التي تتجلى في ليلة النصف من شعبان في الجزيرة العربية ، وهي أجواء تشبه من حيث القداسة والبركة الفضاء الروحاني لهذه الليلة في مدينة نابلس ، فمن الغريب أن أهل مكة يعتقدون أن ماء زمزم يفور ويتصاعد حتى يصل إلى فوهة البئر أو يفيض فترى الناس يتهافتون ويتسابقون إلى الشرب من البئر لنيل البركة في ليلة النصف من شعبان .(١٠)

ليلة النصف من شعبان بين الموروث الشعبي والخطاب الديني:

يعتقد بعض أهل نابلس أن ليلة النصف من شعبان تصادف ذكرى تحول المسلمين عن قبلتهم الأولى في بيت المقدس إلى قبلة بيت الله الحرام في مكة المكرمة.و يقول المؤرخون عن ليلة الشعلة: «إن القدماء كانوا يروون بأن الله يقسم أرزاق الناس وأعمارهم للسنة الجديدة في هذه الليلة. و أن هذا الاعتقاد جعل دائرة الأوقاف وقتها توظف أشخاصًا بمرتبات سنوية زهيدة ليقوموا بالدعاء في ليلة النصف من شعبان، ويبتهلون للمسلمين بعد صلاة المغرب في المساجد.(١١)

ولا يخفى أن شيوع هذا الاعتقاد لدى شريحة اجتماعية في بيئة ثقافية في مدينة نابلس ناجم عن خطاب ديني مشوه ، ومؤسس على أحاديث موضوعة وروايات مصنوعة نحو ما نبه إليه الألباني في كتابه: (ضعيف الترغيب والترهيب) بأن الله عز وجل يطلع على عباده في ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد . ونحو ما رواه البيهقي من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتاني جبرائيل عليه السلام، فقال: هذه ليلة النصف من شعبان ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعور غنم بني كلب ولا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا إلى مشاحن ولا إلى قاطع رحم ولا إلى مسبل ولا إلى عاق لوالديه ولا إلى مدمن خمر.(١٢)

إن الاحتفال بليلة النصف من شعبان وإيقاد المشاعل ، والطواف في الأحياء والطرقات والأزقة ، وترديد الأناشيد الدينية ، وشيوع الأجواء الروحانية التي قد تصل لدى بعضهم إلى درجة الاعتقاد الراسخ بقدسية ليلة منتصف شعبان يعود إلى حزمة من العوامل المؤسسة على شيوع الأحاديث الموضوعة والأخبار المروية عن النبي عليه السلام ، وهي أخبار لا سند لها ، ومن البدهي أن عامة الناس يصدقون ما يسمعون ويقرؤون من أحاديث وأخبار تتصل بقدسية تلك الليلة من شعبان . ويزداد اعتقاد عامة الناس رسوخا ويقينا حينما يكون الكلام عن ليلة منتصف شعبان متصلا بالذات الإلهية ، نحو الحديث المروي عن علي

بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كان ليلة النصف من شعبان؛ فقوموا ليلتها، وصوموا يومها؛ فإن الله تعالى ينزل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا، فيقول: ألا مستغفر فأغفر له؟ ألا مبتلى فأعافيه؟ ألا مسترزق فأرزقه؟ ألا كذا؟ ألا كذا؟ ... حتى يطلع الفجر» .[١٣] ويعد مثل هذا الحديث الموضوع خلية نفسية ووجدانية شكلت ثقافة دينية في مدينة نابلس التي يعتقد بعض سكانها أن الله جل وعلا ينزل إلى السماء الدنيا في ليلة النصف من شعبان.

ومِنْ ذَلِكَ أَحَادِيثُ صَلَاة لَيْلَة النّصْف من شعْبَان ، كَحَديث يَا عَلِيُّ ، مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ النِّصْف مِنْ شَعْبَانَ مِائَةَ رَكْعَةَ بِأَلْف ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قَضَى اللَّهُ لَهُ كُلَّ حَاجَة طَلَبَهَا تلْكَ اللَّيْلَةَ وَسَاقَ جُزَافَات كَثيرَةً وَأُعْطيَ سَبْعينَ أَلْفَ حَوْرَاءَ لكُلِّ حَوْرَاءَ سَبْعُونَ أَلْفَ غُلَام وَسَبْعُونَ أَلْفَ ولْدَان إلَى أَنْ قَالَ وَيَشْفَعُ وَالدَاهُ كُلُّ وَاحد منْهُمَا في سَبْعينَ أَلْفًا. [١٤] واستئناسًا بأمثال هذه الروايات وأشباهها يمكن أن نعلل ظاهرة المناجاة والأدعية في ليلة منتصف شعبان التي يحرص عليها كثير من أهل مدينة نابلس .

وفي حديث :فَضْلُ شَهْرِ رَجَبٍ عَلَى الشُّهُورِ كَفَضْلِ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ وَفَضْلُ شَهْرِ شَعْبَانَ عَلَى الشُّهُورِ كَفَضْلِي عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَفَضْلُ شَهْرِ رَمَضَانَ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْعِبَادِ . وقد صنف الْعَسْقَلَانِيُّ هذا الحديث في جملة الأحاديث المَوْضُوعة .[١٥]

إن تلقي هذه الأحاديث الموضوعة في المستويين المقروء والمسموع أسهم في نشوء ثقافة روحانية خاصة بشهر شعبان ، وقد أفضت تلك الثقافة إلى ظهور طقوس روحانية ، وعادات وتقاليد امتزج فيها الموروث الديني المبتدع مع العادة التي تتحكم في الغالب بتفكير الإنسان وسلوكه .

وقد أسهم بعض المفسرين في تعزيز بدعة ليلة النصف من شعبان ، وما يصاحبها من طقوس مقدسة ، فقد زعم بعض المفسرين أن القرآن الكريم نزل في ليلة النصف من شعبان في تفسير قوله تعالى : ﴿**حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ**﴾ . (الدخان ٣) قال الألوسي : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ أي الكتابَ المبينَ الذي هو القرآن على القول المعول عليه في لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ هي ليلة القدر على ما روي عن ابن عباس وقتادة وابن جبير ومجاهد، وابن زيد والحسن وعليه أكثر المفسرين والظواهر معهم، وقال عكرمة وجماعة: هي ليلة النصف من شعبان. وتسمى ليلة الرحمة والليلة المباركة وليلة الصك وليلة البراءة. ووجه تسميتها بالأخيرين أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة والصك، كذلك أن الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة والصك في هذه الليلة. [١٦]

وقد تصدى جمهور العلماء للأحاديث الموضوعة والروايات المصنوعة والتفاسير الباطلة التي تجعل من ليلة النصف من شعبان ليلة مقدسة ، إذ نقل القرطبي عن بعض السلف قوله : لَمْ أُدْرِكْ أَحَدًا مِنْ مَشْيَخَتِنَا وَلَا فُقَهَائِنَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ . (١٧)

وكذلك نبه ابن باز بقوله : ومن البدع التي أحدثها بعض الناس: بدعة الاحتفال بليلة النصف من شعبان، وتخصيص يومها بالصيام، وليس على ذلك دليل يجوز الاعتماد عليه، وقد ورد في فضلها أحاديث ضعيفة لا يجوز الاعتماد عليها، أما ما ورد في فضل الصلاة فيها فكله موضوع، كما نبه على ذلك كثير من أهل العلم... والذي عليه جمهور العلماء: أن الاحتفال بها بدعة، وأن الأحاديث الواردة في فضلها كلها ضعيفة، وبعضها موضوع، وممن نبه على ذلك الحافظ ابن رجب في كتابه (لطائف المعارف) وغيره، والأحاديث الضعيفة إنما يعمل بها في العبادات التي قد ثبت أصلها بأدلة صحيحة، أما الاحتفال بليلة النصف من شعبان فليس له أصل صحيح حتى يستأنس له بالأحاديث الضعيفة. وقد ذكر هذه القاعدة الجليلة الإمام أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. (١٨)

ويرتبط بإحياء ليلة النصف من ليلة شعبان ما يُعرف بصلاة الألفية ؛ وسميت بذلك لأَنَّهَا يقْرَأ فِيهَا(قل هُوَ الله أحد) ألف مرّة ؛ لأَنَّهَا مائَة رَكْعَة في كل رَكْعَة يقْرَأ الْفَاتِحَة مرّة وَبعدهَا سُورَة الْإِخْلَاص عشر مَرَّات وَهِي صَلَاة طَوِيلَة مستثقلَة لم يَأْت فِيهَا خبر وَلَا أثر إِلَّا ضَعِيف أَو مَوْضُوع .وللعوام بهَا افتتان عَظِيم وَالْتزم بِسَبَبِهَا كَثْرَة الوقيد فِي جَمِيع مَسَاجِد الْبِلَاد الَّتِي تصلي فِيهَا .(١٩)

ويقول ابن دحي : وَقَدْ رَوَى النَّاسُ الأَغْفَالُ في صَلاة لَيْلَة النِّصْف منْ شَعْبَانَ أَحَاديثَ مَوْضُوعَةً، وَوَاحِدًا مَقْطُوعًا؛ فَكَلَّفُوا عِبَادَ اللَّه بِالأَحَاديث الْمَوْضُوعَة فَوْقَ طَاقَتهمْ منْ صَلاة مائَة رَكْعَة، في كُلِّ رَكْعَة الْحَمْدُ مَرَّةً، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ عَشْرَ مَرَّات، فَيَنْصَرِفُونَ وَقَدْ غَلَبَهُمُ النَّوْمُ، فَتَفُوتُهُمْ صَلاةُ الصُّبْحِ.(٢٠)

التواصل العائلي والموائد الشعبانية:

يتجلى التواصل العائلي في شهر شعبان بدعوة الأخوات المتزوجات والخالات والعمات بصحبة الأطفال للإقامة في بيوت آبائهن أو أشقائهن . وكانت الدعوات قبل سنوات تتم على نطاق واسع يتجاوز القرابة المباشرة ليشمل القرابة البعيدة في الهرم العائلي ، وأصبحت الدعوات تقتصر في الوقت الحاضر على القرابة المباشرة للأخوات والخالات والعمات اللواتي يقمن في بيت المضيف ثلاثة أيام وثلث اليوم الرابع .

ولعل امتداد حجم العائلة ، واتساع النطاق الجغرافي ، وتطور الحياة الاجتماعية ، واختلاف الظروف الاقتصادية ، وتغير الثقافة العائلية من العوامل التي أدت إلى تقليص دائرة المدعوين . ويرصد د. لطفي زغلول تقلص الحراك الاجتماعي العائلي في شهر شعبان ، إذ إن الشعبونة باتت تقتصر على يوم الجمعة، فبعد الصلاة يجتمعون في بيت الداعي يتناولون الأطعمة المقدمة وينتظرون الكنافة ولا تكاد الشمس تغرب حتى يعود الجميع إلى بيوتهم. (٢١).

وفي مقال (الشعبونة عادة متوارثة بين الأجيال في مدينة نابلس) تقول الباحثة رنا حمدان : مع مرور السنوات، وازدياد أعباء الحياة وتكاليفها بدأت هذه العادة بالانحسار بين أهالي نابلس، وبات الأمر قاصراً على دعوة الأب لبناته وأخواته وعماته على وجبة الغداء ليوم واحد. (٢٢) وبهذا يكون الإطار الزمني للشعبونة قد شهد تحولا زمنيا من ثلاثة أيام إلى يوم واحد ، ثم الاقتصار على يوم الجمعة .

وفي شهر شعبان ، وبخاصة الأيام التي تقام فيها الموائد والحفلات العائلية يُقدم ما يسمى " الفقدة " وهي مبلغ من المال ، أو نوع من الهدايا العينية إلى البنات والأخوات المتزوجات سواء كان مكان إقامتهن داخل مدينة نابلس أو خارجها .(٢٣)

الموائد الشعبانية «مهرجان عائلي» لاختيار العروس:

ترصد الباحثة رنا حمدان باعثا اجتماعيا يكمن في الدعوة لموائد « الشعبونة ، بقولها: وهناك أسباب أخرى للدعوة إلى الشعبونية مثل اختيار العروس والتعرف عليها عن قرب، فإذا أرادت إحدى النساء تزويج ابنها كانت تستغل وجود عدد كبير من الفتيات أيام شعبان؛ لتشاهدهن عن قرب، وتعاين مهارة الفتاة في فن الطهي والأمور المنزلية الأخرى .(٢٤) واستئناسا بهذا الوصف تعد الموائد الشعبونية وما يرافقها من حفلات عائلية « مهرجانا عائليا مصغرا « تستعرض فيه الفتيات مهارات الإدارة المنزلية ، كما يحرصن على إظهار أنفسهن بأبهى صورة ، وأجمل زينة ، ولا حرج في إظهار جمالهن وزينتهن ما دام الهدف أن تحوز الفتاة على إعجاب النساء اللواتي يبحثن عن « عروس « لأبنائهن ، وما دامت الحفلات مقتصرة على النساء والأطفال ، . فقد جرت العادة أن تدعى البنات والأخوات المتزوجات والعمات والخالات ، ثم يُدعى الأزواج والأولاد البالغون في اليوم الأخير.

ويضيف الكاتب مالك المصري أسبابا مهنية إلى جانب الأسباب الاجتماعية والعائلية للدعوات التي كانت تتجاوز القرابة المباشرة ، فبعض النساء كن يدعين لما يتمتعن به من مهارات فائقة في فن الطبخ وإعداد المأكولات الشعبية ، ولكن الدعوة كانت تتم من منطلق عائلي على الرغم أن الدافع الحقيقي يكمن في مهارتهن في إعداد الطعام .(٢٥)

تنوع طقوس الشعبونة بين العائلات:

تختلف طقوس «الشعبونة» من بيت لآخر، فعند بعض العائلات تبدأ الطقوس من وجبة الإفطار حتى المساء، بينما يفضل بعضهم أن تكون الدعوة على وجبة الغداء وتناول الحلويات النابلسية، وعادة ما يكون إعداد الحلويات في المنزل.[٢٦]

وتنتقل المدعوات من بيت إلى بيت وبخاصة الأخوات المتزوجات والخالات والعمات ، ويقتضي هذا التنقل أن يحرص المضيف على تقديم أصناف من الطعام تختلف عن الأصناف التي تناولها المدعون من قبل .وربما يلجأ المدعوون إلى المقارنة بين الموائد المتعددة ، لذا يحرص المضيف على دقة إعداد الطعام وتنوعه ؛ لتكون مائدته هي الأفضل نوعا وكما .

خصوصية الطعام في موائد شعبان:

تتميز موائد الشعبونة بالوجبات الشعبية الدسمة ، نحو الكوارع والكبة واللخنة والفسيخ والمفتول والمحاشي ، ويرى بعضهم أن تناول هذه المأكولات في شهر شعبان وبخاصة في الأيام التي تسبق شهر رمضان هو من باب " الوداع " لتلك الوجبات التي يتجنبها الصائمون في وجبة الإفطار في شهر رمضان؛ لأنها تقتضي قدرة على تحمل ارتفاع نسبة الدهون ، و هضم دسمها ، وتتطلب شرب السوائل بسبب ملوحة بعضها ، وهذا أمر لا يتأتى للصائم في شهر رمضان .

ويسهب مالك المصري في تعليل شيوع الأطعمة الدسمة المالحة في موائد " الشعبونة" بقوله : في شهر رمضان يعمد الصائمون إلى تفادي الأطعمة التي تزيد عطشهم ،وتنفخ بطونهم، فيمتنعون عن أكل الموالح والأطعمة الحريفة، ويقللون من تلك الأطعمة المولدة للغازات التي تؤكل مع الحلوى الرمضانية فتسبب تلبكًا في المعدة والأمعاء، ولما كانت مثل هذه الأطعمة على الرغم من مساوئها لذيذة شهية فقد جرت العادة أن يخصص شهر شعبان لمثلها، فإذا تلبكت المعدة فشهر رمضان كفيل بإصلاحها .[٢٧]

شهر شعبان بين الإقبال على الموائد الشعبانية والإقبال على العبادة والصوم:

إن شيوع ما لذ وطاب في موائد شعبان ليس حكرا على العادات والتقاليد في مدينة نابلس ، فصاحب كتاب « لطائف المعارف « يسهب في الحديث عن شيوع أصناف الطعام والشراب في شعبان وما يتخللها من حفلات ومجالس طرب وذلك بقوله : ربما ظن بعض(الجهال) أن الفطر قبل رمضان يراد به اغتنام الأكل لتأخذ النفوس حظها من الشهوات قبل

أن تمنع من ذلك بالصيام ، ولهذا يقولون هي أيام توديع للأكل . وأنشد لبعضهم:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فإن الوقت ضاق على الصغار

وقال آخر.

جاء شعبان منذرا بالصيام فاسقياني راحا بماء الغمام[٢٨]

ويبدو أن الاستعداد والتأهب لشهر رمضان قد اتخذ في السياق الاجتماعي والديني اتجاهين متناقضين ؛ اتجاه اجتماعي يرى أن الموائد الشعبانية واشتمالها على ما لذ وطاب من الأطعمة والأشربة ، والحفلات الترفيهية هي وداع للإفطار وتأهب للبدء بالصوم ، وهو الاتجاه الذي تقدم بيانه.

واتجاه ديني يرى أن شعبان مقدمة لرمضان شرع فيه ما يشرع في رمضان من الصيام وقراءة القرآن ليحصل التأهب لتلقي رمضان وترتاض النفوس بذلك على طاعة الرحمن ، فقد كان المسلمون إذا دخل شعبان انكبوا على المصاحف فقرؤوها ، وأخرجوا زكاة أموالهم تقوية للضعيف والمسكين على صيام رمضان. وقال سلمة بن كهيل: كان يقال شهر شعبان شهر القراء . وكان حبيب بن أبي ثابت إذا دخل شعبان قال: هذا شهر القراء وكان عمرو بن قيس الملائي إذا دخل شعبان أغلق حانوته وتفرغ لقراءة القرآن. وقد نظم بعضهم شعرا يحث على التفرغ للعبادة في شهر شعبان استعداد وتأهبا لشهر رمضان، نحو :

مضى رجب وما أحسنت فيه وهذا شهر شعبان المبارك
فيا من ضيع الأوقات جهلا بحرمتها أفق واحذر بوارك
فسوف تفارق اللذات قسرا ويخلي الموت كرها منك دارك
تدارك ما استطعت من الخطايا بتوبة مخلص واجعل مدارك
على طلب السلامة من جحيم فخير ذوي الجرائم من تدارك[٢٩]

وتشكل دلالة هذه الأبيات تباينا مع الأبيات السابقة التي تحث على الإقبال على الموائد الشعبانية والحفلات العائلية .

ويسوق صاحب كتاب لطائف المعارف موقفا يصور انتشار أصناف الطعام قبيل حلول رمضان ، واهتمام الناس بالموائد في شعبان في غير مكان . يقول : باع قوم من السلف جارية فلما قرب شهر رمضان رأتهم يتأهبون له ويستعدون بالأطعمة وغيرها فسألتهم فقالوا نتهيأ لصيام رمضان فقالت: وأنتم لا تصومون إلا رمضان لقد كنت عند قوم كل زمانهم رمضان ردوني عليهم.[٣٠]

التكافل الاجتماعي (الشعبونات الخيرية)

لا تقتصر الفعاليات الاجتماعية في شهر شعبان على الفضاء الأسري أو العائلي الذي تتجسد فيه مظاهر صلة الأرحام وتوطيد العلاقات الاجتماعية وتفعيل التواصل العائلي ، إذ تمتد مظاهر التكافل لتشمل المراكز والجمعيات الاجتماعية التي تُبادر إلى تنظيم وجبات غذائية تتسم بالبساطة وانخفاض التكاليف ، وتتم الدعوة إلى الموائد من قبل المنظمين ، ويدفع المدعون مبلغا ماليا مقابل تناولهم للوجبة الرمزية ، ثم تُصرف المبالغ للعائلات الفقيرة مباشرة ، أو تُحول المبالغ إلى جمعيات خيرية تتولى أمر توزيع ريع الدعوة أو الوجبة الخيرية ، ويُوزع قسطا من التبرعات على طلاب الجامعات ذوي الدخل المحدود ، وبهذا تتحول الأجواء الروحانية في شعبان إلى تجليات اجتماعية ،ويمكن تسمية ما تقدم بـ « الشعبونات الخيرية « .

الأغاني الشعبية في (الشعبونة):

تشيع الأغنية الشعبية في الحفلات العائلية التي تقتصر غالبا على النساء والأطفال ، وترافق الأغنيةَ الشعبية بعض الآلات الموسيقية البدائية كالطبل والدف . ويغلب على الأغنية الشعبية طابع المرح والتسلية ، ويشكل بعضها امتدادا للأغنية الشعبية في بلاد الشام وبخاصة التراث الغنائي السوري ، ويجسد هذا الامتداد والتماثل التراثي الغنائي العلاقة العضوية بين بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في نابلس ودمشق . **ومن أمثلة التواصل التراثي الغنائي بين مدينة نابلس ودمشق مطلع الأغنية الآتية :**

يا مال الشام يلا يا مالي طال المطال يا حلوة تعالي
طال المطال طال وطول لا بتغير ولا بتحول

وينسجم مضمون الأغنية الشعبية مع أجواء الفرح في الحفلات العائلية ، فتبرز الفكاهة والدعابة في النسيج اللغوي والدلالي للأغنية الشعبية ، نحو الأغنية الآتية :

إمو يا إمو يخليلو إمو — سبع كناين تعبر على إمو
جبلي هالفقوس وما باكل فقوس — حية بسبع روس تقرصلي إمو
جبلي السجادة وما في بالعادة — انهرت السجادة من دعسة إمو
جبلي هالخيار وما باكل خيار — سيف الخزندار يقطع راس إمو

وتتقاطع الأغنية الشعبية التي تُردد في شهر شعبان في مدينة نابلس مع الأغاني الشعبية في ليلة النصف من شعبان في المدينة المنورة من حيث الفكاهة والدعابة، إذ يجتمع سكان الحي أو الحارة ويطوفون على البيوت منشدين ((سيدي شاهين يا شربيت، خرقة مرقة، يا أهل البيت، لولا خواجة ما جينا، ولا طاحت كوافينا، حل الكيس واعطينا، إما مشبك وإلا فشار، وإلا عروس من الروشان... ». فيعطى لهم بعض المشبك أو الفشار وغير ذلك، وبعض الأحيان شيء من النقود، وإذا لم يعطهم أهل البيت شيئاً فإنه تتغير النغمة ويتحول النشيد إلى شيء من السب فيقولون: كبريته يا كبريته، ست البيت عفريته، وغير ذلك من الألفاظ. أما في حالة العطاء فإن أهل البيت يتلقون تحية على النمط السابق مع اختلاف المعنى: «ليمونة يا ليمونة ست البيت مزيونة، قارورة يا قارورة ست البيت غندورة)).[٣١]

خاتمة:

عاينت الدراسة تجليات (الشعبونة) بين التقاليد والدين في مدينة نابلس . ووقفتْ على سبعة محاور ؛ **الأول** : الأصل اللغوي لـ (الشعبونة) الذي تجلى فيه التقاطع الدلالي بين المعنى اللغوي لمادة (شعب) وسياق العادات والتقاليد في شهر شعبان.

والثاني : ليلة الشعلة (ليلة النصف من شعبان)، التي توقد فيها المشاعل ، وكشفت عن التداخل بين الطقوس الروحانية والجذور المجوسية لإيقاد المشاعل .ورصدت الدراسةُ الجذور التاريخية لإحياء ليلة النصف من شعبان قبل ألف عام تقريبا ، بوساطة شخص من نابلس يسمى(ابن أبي الحمراء).

والثالث : تأثير الاحتفال بليلة النصف من شعبان في نابلس على العالم الإسلامي ، ونبهت الدراسة إلى المصادر التي تؤكد أن نابلس هي المدينة الأولى التي أحدثت بدعة الاحتفال والصلاة في ليلة منتصف شعبان..وفي المحور ذاته اعتنت الدراسة بالتشابه بين الأجواء الروحانية في نابلس والطقوس الروحانية في الجزيرة العربية .

والمحور الرابع ليلة النصف من شعبان بين الموروث الشعبي والخطاب الديني ، وقد نبهت الدراسة إلى تأثير الأحاديث الموضوعة والروايات المصنوعة على اعتقاد شريحة اجتماعية بأن الله عز وجل يتجلى على عباده في ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد ، وغيرها من الاعتقادات التي لا أصل

لها . إن تلقي هذه الأحاديث الموضوعة في المستويين المقروء والمسموع أسهم في نشوء ثقافة روحانية خاصة بشهر شعبان ، وقد أفضت تلك الثقافة إلى ظهور طقوس روحانية ، وعادات وتقاليد امتزج فيها الموروث الديني المبتدع مع العادة التي تتحكم في الغالب بتفكير الإنسان وسلوكه.

والمحور الخامس : التواصل العائلي والموائد الشعبانية من خلال دعوة الأخوات المتزوجات والخالات والعمات بصحبة الأطفال للإقامة في بيوت آبائهن أو أشقائهن. ولعل امتداد حجم العائلة ، واتساع النطاق الجغرافي ، وتطور الحياة الاجتماعية ، واختلاف الظروف الاقتصادية ، وتغير الثقافة العائلية من العوامل التي أدت إلى تقليص دائرة المدعوين.

والمحور السادس : التكافل الاجتماعي (الشعبونات الخيرية)التي تمثل بالمراكز والجمعيات الاجتماعية التي تُبادر إلى تنظيم وجبات غذائية تتسم بالبساطة وانخفاض التكاليف ، وتتم الدعوة إلى الموائد من قبل المنظمين ، ويدفع المدعون مبلغا ماليا مقابل تناولهم للوجبة الرمزية ، ثم تُصرف المبالغ للعائلات الفقيرة مباشرة ، أو تُحول المبالغ إلى جمعيات خيرية .

والمحور السابع: الأغاني الشعبية في (الشعبونة) ويغلب عليها طابع المرح والتسلية ، ويشكل بعضها امتدادا للأغنية الشعبية في بلاد الشام وبخاصة التراث الغنائي السوري .وتتشابه الأغنية الشعبية في نابلس والمدينة المنورة من حيث الفكاهة والدعابة.

هوامش الدراسة

١. لسان العرب : مادة شعب

٢. المصدر نفسه : مادة شعب

٣. المصدر نفسه : مادة شعب

٤. ابن دحي أبو الخطاب عمر بن حسن : ما وضح واستبان في فضائل شهر شعبان . قرأه وعلق عليه: جمال عَزُّون . مكتبة أضواء السلف، الرياض . ط ١ ، ٢٠٠٣ ، ص ١٣

٥. انظر : الطرطوشى ، أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشى الفهرى الأندلسي الحوادث والبدع . تحقيق : علي بن حسن الحلبي . دار ابن الجوزي . ط ٣ ، ١٩٩٨ ، ص ١٣٢

٦. انظر :ٌ الملا ، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين : الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة. تحقيق : محمد الصباغ . دار الأمانة / مؤسسة الرسالة – بيروت،ص ٤٦١

٧. انظر : زغلول ، لطفي : الشعبونة في نابلس : عادة أصبحت تقليدا . دنيا الوطن . http://www.alwatanvoice.com

٨. ابن دحي أبو الخطاب عمر بن حسن : ما وضح واستبان في فضائل شهر شعبان. ص ٤٧

٩. ٩.انظر : باقازي ، أمل : الشعبنة عادة حجازية لتوديع الفطر واستقبال الصوم. جريدة الشرق الأوسط الأربعاء ٢٧شعبان ١٤٣٠ هـ ١٩ أغسطس ٢٠٠٩ العدد ١١٢٢٢ . http://www.aawsat.com

١٠. رفيع ، محمد : مكة في القرن الرابع عشر . نادي مكة الثقافي الأدبي ، مكة المكرمة ، ١٩٨١ ، ص ١٢٢

١١. انظر : زغلول ، لطفي : الشعبونة في نابلس : عادة أصبحت تقليدا. (مرجع سابق)

١٢. الألباني، محمد ناصر الدين : ضعيف الترغيب والترهيب. مكتبة المعارف – الرياض ، ط ٥ ، ج ١ ، ص ٥٦

١٣. انظر : الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي الحوادث والبدع . ص ١٢٨

١٤. انظر :ٌ الملا ، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين : الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة. ص ٤٦١

١٥. انظر : المرجع نفسه ، ص ٢٥٥

١٦. الألوسي ، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني : روح المعاني في تفسير القرآن

العظيم والسبع المثاني. تحقيق : علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ ، ج ١٣ ، ١١٠

١٧. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني : البدع والنهي عنها . تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم مكتبة ابن تيمية، القاهرة– مصر، مكتبة العلم، جدة – السعودية الأولى، ١٤١٦ هـ ، ص ٩٢

١٨. ابن باز ،عبد العزيز بن عبد الله : التحذير من البدع . الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد . الأولى، ١٤١٢هـ ، ص ٣٠

١٩. المقدسي، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الدمشقي المعروف بأبي شامة (المتوفى: ٦٦٥هـ) : الباعث على إنكار البدع والحوادث . المحقق: عثمان أحمد عنبر ، دار الهدى – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٨ – ١٩٧٨، ص ٣٤

٢٠. ابن دحي أبو الخطاب عمر بن حسن : ما وضح واستبان في فضائل شهر شعبان. ص ٣٠

٢١. انظر : زغلول ، لطفي : الشعبونة في نابلس : عادة أصبحت تقليدا. (مرجع سابق)

٢٢. انظر : حمدان ، رنا : الشعبونة عادة متوارثة بين الأجيال في مدينة نابلس. ٢٦ / ٦ / ٢٠١٢ شبكة راية الإعلامية http://www.raya.ps/news/view:49394

٢٣. انظر : المصري ، مالك فايز : نابلسيات من بواكير الذكريات والوجوه والصور الشعبية . مكتبة خالد بن الوليد ، نابلس ، فلسطين ، ط ١ ، ١٩٩٧ ، صذ١٢٩

٢٤. انظر : حمدان ، رنا : الشعبونة عادة متوارثة بين الأجيال في مدينة نابلس. ٢٦ / ٦ / ٢٠١٢ شبكة راية الإعلامية http://www.raya.ps/news/view:49394

٢٥. انظر : المصري ، مالك فايز : نابلسيات من بواكير الذكريات والوجوه والصور الشعبية .ص ١٣٩

٢٦. انظر: حمدان ، رنا : الشعبونة عادة متوارثة بين الأجيال في مدينة نابلس. (مرجع سابق)

٢٧. انظر : المصري ، مالك فايز : نابلسيات من بواكير الذكريات والوجوه والصور الشعبية . ص ١٣٩

٢٨. السلامي ، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن:لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف. دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط ١ ، ٢٠٠٤ ، ص ١٤٥

٢٩. المرجع السابق . ص ١٣٤

٣٠. المرجع السابق . ص ١٤٦

٣١. بن سليم ، أحمد سعيد: المدينة المنورة في القرن الرابع عشر (بحوث تاريخية واجتماعية وعمرانية وعادات وتقاليد) . دار المنار ، ط ١ ، ١٩٩٣ ، ص ٢١٩

الأسواق التاريخية في مدينة نابلس

د. شامخ علاونه*

* أستاذ مساعد في التاريخ الإسلامي/ جامعة القدس المفتوحة/ فرع رام الله والبيرة.

الأسواق التاريخية في مدينة نابلس

ملخص البحث:

يتناول البحث موضوع الأسواق الشعبية التاريخية في مدينة نابلس، والتي ما زالت تحتفظ بتراثها التقليدي المعماري والشعبي الخاص، حيث نجد سوق الخان أو السوق السلطاني الرئيس في المدينة، وهو أكبر أسواق مدينة نابلس، وسوق القطن الذي تصفه المراجع التاريخية بأنه سوق كثير الازدحام، وسوق البصل وسوق الخضار الشرقي وسوق الفاكهة الغربي، وسوق الغزل، وسوق الفحم، وسوق السكافية، وسوق النجارين، وسوق اللحامين وسوق العطارين.

يناقش القسم الثاني من البحث السلع وأنواعها والحوانيت التي كانت في تلك الأسواق؛ كما يتطرق البحث لبعض أسعار السلع وبعض الضرائب التي كانت تجبى على بعض السلع في تلك الأسواق، خاصة أن غالبية هذه الأسواق يعود تاريخها للعصر العثماني، ويتناول البحث بعض الساحات العامة التي كان يمارس فيها تجارة تشبه التجارة التي كانت تتم في الأسواق التجارية.

الأسواق التاريخية:

تتميز مدينة نابلس بأسواقها التي شابهت وما زالت أسواق مدينة حلب ومدينة دمشق، وخاصة التي تعود للفترات المملوكية والعثمانية، وقد شهدت هذه الأسواق نشاطاً تجارياً وحرفياً متميزاً ، بفضل تجارها الأغنياء، الذين ما يزالون يمارسون هذه الحرفة، حيث تعدّ مدينة نابلس العاصمة الاقتصادية الفلسطينية من حيث الصناعة والتجارة التي تتم في أسواقها المختلفة، وقد وفر التجار من القرى المجاورة والمدن المجاورة كل ما يحتاجه أهل نابلس من سلع ومواد غذائية مختلفة، كما أن مدينة نابلس من المدن القليلة المكتفية ذاتياً فهي تصدر الفائض للمناطق المجاورة، وبخاصة إلى مدن البلقاء حيث كان هناك وكلاء للتجار النابلسيين يجوبون منطقة بلاد الشام حتى منطقة الأناضول(١).

لقد أسهمت عوامل عدة في جعل مدينة نابلس من أهم المراكز التجارية في منطقة بلاد خاصةً، فموقعها الجغرافي جعلها على الطرق التجارية القادمة من الشمال إلى الجنوب، وكذلك الطرق القادمة من الشرق إلى الغرب، فمدينة نابلس تعدّ المعبر التجاري الذي يقع وسط فلسطين من الجهات كافة، حيث إنها تصل ما بين المتوسط ومنطقة الغور(٢).

ومن جانب أخر تعدّ مدينة نابلس صناعية –كما أسلفت– من الدرجة الأولى من بين المدن الفلسطينية؛ لأنها جمعت أنواعاً عدة من الصناعات التقليدية التحويلية كصناعة

الصابون والفحم والزيتون وغيرها من الصناعات المختلفة وهذه الصناعات تعود بفضل المكانة الزراعية التي وفرت الخامات الأساسية لهذه الصناعة؛ فعلى سبيل المثال فائض الإنتاج من الاستهلاك المحلي والتصدير من زيت الزيتون كان يتم به صناعة الصابون، وبالتالي توفر المواد الخام أو الصناعة، وبالتالي أصبح هناك أيضاً في الإنتاج الصناعي، وبهذا الشكل تطور مفهوم مكانة نابلس التجارية الذي انعكس إيجاباً على وضع سكانها ورفاهتهم في مختلف الفترات، وحتى الفترات الحالية إذا يتمتع تجار نابلس بمكانة اقتصادية واجتماعية متميزة، وبالتالي أصبح في مدينة نابلس طبقة تسمى – نوعاً ما – الطبقى الوسطى بفعل نشاط التجار (ويقول العمري في وصف المدينة من الناحية الاقتصادية مدينة يحتاجها غيرها، ولا تحتاج لغيرها) [٣]. أما على الصعيد الداخلي كغيرها من المدن الإسلامية، فقد تركزت في أسواق رئيسة وسويقات أو ساحات جانبية كانت تباع فيها أصناف مختلفة من المحاصيل الزراعية، حيث انتشرت في المدينة أسواق تجارية عدة متخصصة وهي موضع هذا البحث.

تعد الأسواق من أهم العناصر التي تتميز بها المدينة الإسلامية،خاصة الأسواق المتخصصة في المهن المحددة، حيث نجد أسماء الأسواق بأسماء المهن أو السلع التي كانت تمارس أو تتم من خلالها، ومن يدخل في الأسواق القديمة في مدينة نابلس تطالعه روائح البهارات أو السلع التي تباع في أهم عنصر معماري أُسِّس في المدن الإسلامية كافة، ومن ثم أنشئت دار الإمارة، وفيما بعد الأسواق والخانات والمباني العامة كالحماماتً.

الأسواق المسقوفة وغير المسقفة في مدينة نابلس:

توجد الأسواق المسقوفة في مدينة نابلس على امتداد الطرق المؤدية للبوابات الرئيسية في المدينة التي كانت موجودة في العصر المملوكي والعثماني، والتي ما زال بعضها موجوداً لغاية الآن، خاصة المنطقة الغربية بالقرب من جامع الخضرة، حيث السوق المسقوف الذي يقع وسط البلدة القديمة والذي يعرف باسم سوق السلطان، والسوق المسقوف المعروف بسوق اللحامين، والسوق المعروف بسوق القيسارية والسوق الغربي والسوق الشرقي[٤].

التخطيط المعماري للأسواق:

تنقسم الأسواق التاريخية في مدينة نابلس إلى أسواق رئيسة وأسواق فرعية، فعلى سبيل المثال الأسواق الرئيسة كسوق (السلطان)، وسوق الفحم، وسوق القطانين هي أسواق خُطِّط بشكل طولي حتى تتسع لعدد كبير جداً من المحلات التجارية، وهذا عدا عن كونها تمارس فيها أنشطة تجارية ليس فقط لسكان المدينة، بل للقرى والمناطق المجاورة، أما

الأسواق الثانوية فهي أسواق خططت بشكل عرضي أو صغير أو ثانوي على مداخل الحارات، والسبب أن النشاط التجاري قد يقتصر على سكان المدينة، وبعض من يقصد هذه الأسواق من القرى المجاورة.(٥)

سوق خان السلطان (التجار):

الموقع: يقع سوق خان التجار وسط البلدة القديمة في المدينة؛ حيث ما زال هذا السوق يحتل مكانة تجارية حيث يتفرع عنه أسواق فرعية عدة في الوقت الحاضر.

التسمية: خان السلطان/خان التجار/: جاءت التسمية من الوظيفة التي بني من أجلها هذا البناء المعماري المميز في مدينة نابلس، ففي بعض المصادر التاريخية يطلق عليه اسم خان السلطان؛ أما المراجع الحديثة وعند عامة الناس فيطلق عليه اسم خان. أما في المصادر التاريخية فيطلق عليه اسم خان الوزير كما ورد في سجل محكمة نابلس الشرعية(٦).

تاريخ البناء:

يعود تاريخ بناء سوق السلطان أو خان التجار(١٥٦٣-١٥٦٩م) من قبل رئيس الوزراء والصدر الاعظم السلطان لالا مصطفى باشا (١٥٠٠-م١٥٨٠)، هو قائد عسكري وصدر أعظم عثماني في دمشق. كان اللالا ألبانياً أو بوسني الأصل . وفي دمشق وصل إلى مستوى «بيلر بي» (اي بي الي) في دمشق الشام . كان قائد القوات العثمانية خلال حصار مالطا سنة ١٥٦٥م وفي فتح قبرص عام ١٥٧٠م وجورجيا عام ١٥٧٨م حمل الصدارة العظمى سنة (١٠٠٣هـ /الموافق ١٥٩٥م) ،لقب ب»لالا» وهي كلمة تركية تعني المربي. دفن في دمشق بمنطقة (سوق السنانية)، وكذلك دفن في المكان نفسه أحد أهم رجالات دمشق حفيده خليل مردم بك، هناك جامعان مسميان باسمه أحدهما في دمشق والآخر في قبرص. الصدر الأعظم بالعثمانية صدر أعظم أو وزير أعظم، وهو أعلى منصب تحت السلطان مع السلطة المطلقة له، وهو الذي يحمل ختم السلطنة، وسلطة تعيينه وعزله حق للسلطان فقط، وتنعقد جلسات الوزراء بأمره للاطلاع على شؤون الدولة، ويجتمعون في قصر الباب العالي وهو قصر توبكابي. ويوجد أيضا في الباب العالي جميع مكاتب الوزراء مع الصدر الأعظم. ولقب الوزير الأول أو وزير أعظم هو لقب رسمي بالأردية للإشارة إلى رئيس وزراء باكستان. كان لقب الوزير هو المستخدم خلال المراحل الأولى للدولة العثمانية. وأول من لقب بالصدر الأعظم كان الوزير خليل خير الدين باشا وزير السلطان مراد الأول. والغرض من اللقب الجديد هو تمييز حامل الختم السلطاني من الوزراء الآخرين. ثم بدأ اللقب

الجديد «صدر أعظم» يحل محل اللقب القديم «وزير أعظم» تدريجياً، وإن كان لهما المعنى نفسه والرتبة نفسها. وخلال التاريخ العثماني، ظهرت ألقاب جديدة للصدر الأعظم مثل الصدر العالي والوكيل المطلق وصاحب الدولة والسردار الأكرم والسردار الأعظم والذات العالي؛ وكلها تعكس ما للصدر الأعظم من مكانة أراد لها سلاطين آل عثمان أن تكون مهيبة للغاية[٧].

المخطط المعماري للبناء:

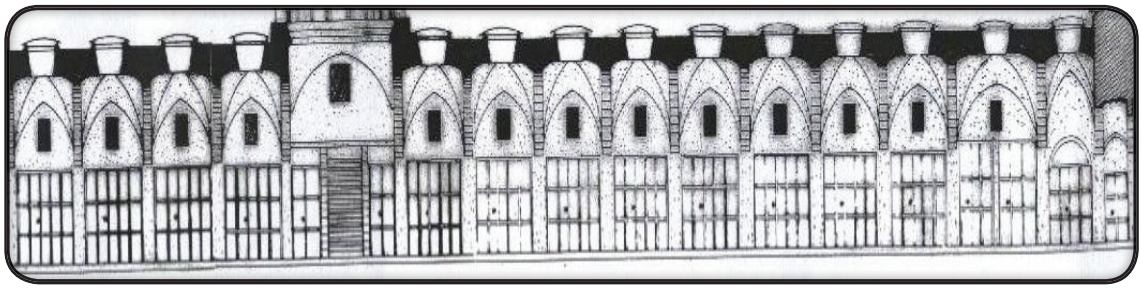

مقطع الواجهة الجنوبية لسوق الخان(بلدية نابلس)

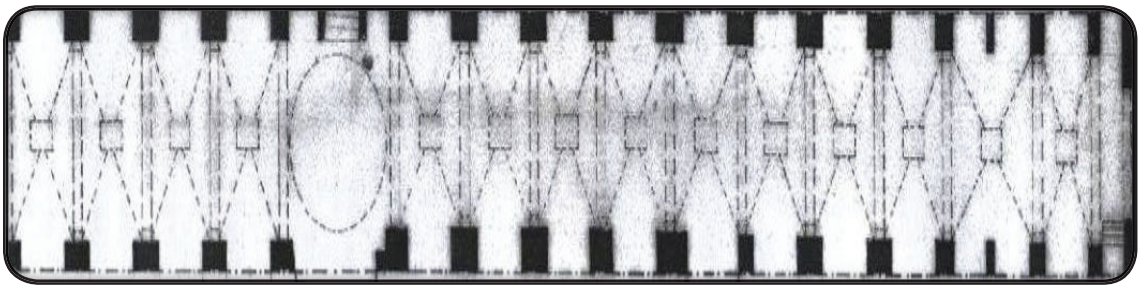

المسقط الأفقي لسوق الخان (بلدية نابلس)

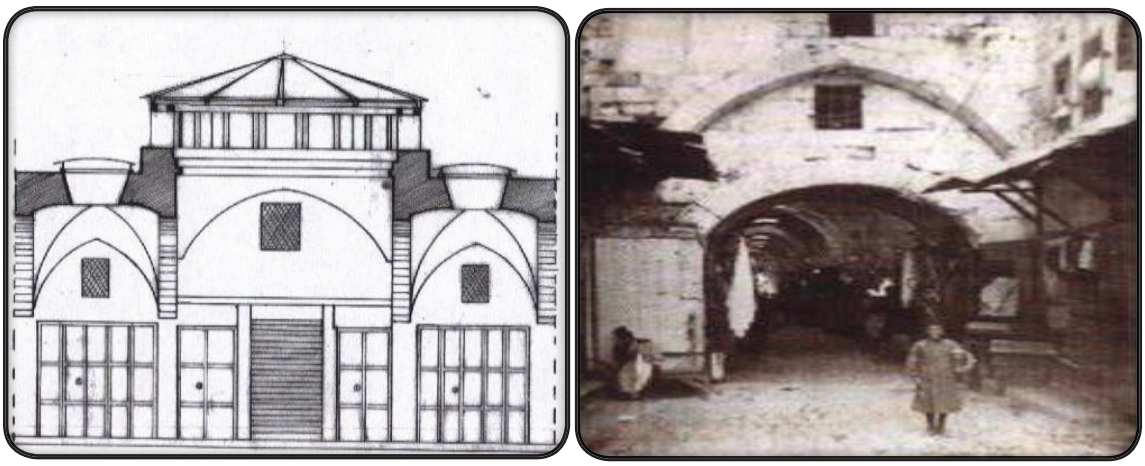

المدخل الشرقي لسوق خان التجار مقطع من الواجهة الجنوبية للخان

الوصف المعماري:

يتكون الخان من صفين من المحلات التجارية: جنوبي وصف شمالي، حيث يوجد في كل صف أربعة عشر متجراً وبيتاً لطحن وعمل القهوة ومطحنة للقمح التي كانت تشغَّل بواسطة الحيوانات[٨]، كما يوجد للخان بوابتان: بوابة شرقية وبوابة غربية، وكانت هذه الأبواب تغلق ليلاً، كما وجدت المكاسل على مدخلي البوابة وقد أزيلت عندما قامت بلدية نابلس بترميم مداخل الخان عام ١٩٠٦م، وهذا يدل على وجود وظيفة الحراسة وهذه الأبواب كانت تفتح فقط مع الصباح عند الساعة الثامنة أو أغلب الأحيان بين الثامنة والتاسعة، الخان من الخانات المسقوفة مع وجود نوافذ جانبية وأخرى علوية للإنارة والتهوية بين كل عقد وأخر يوجد نافذة، كما هو الحال في معظم الأسواق في دمشق والقدس وحلب والخليل، فهي في غالبيتها بنيت في الفترة العثمانية، وتحمل تقريباً التصميم المعماري نفسه حيث الأقواس العثمانية النصف مدببة تقريباً، خاصة على المداخل الجانبية والمدخل الشرقي والغربي للسوق، كما أن البيوت التي بجانب السوق من الجهة الغربية ترتفع عن مستوى السوق، ويصعد إليها بدرج، أما التي من الجهة الشرقية الشمالية فهي مع مستوى السوق تقريباً[٩].

سوق القطن:

الموقع: يقع السوق خلف المسجد الكبير من الجهة الغربية، ومدخله الغربي من جهة ما يعرف بساحة منارة السلطان عبد الحميد، أو ساحة المنارة التي شيدها السلطان عبد الحميد الثاني بمناسبة الاحتفال بجلوسه على العرش.

التسمية: أطلق عليه اسم القطن نسبة إلى المادة التي كانت تباع فيه، والتي لا تقتصر على القطن كعملية بيع وشراء، وانما يقصد بذلك عملية التنجيد وصناعة الفراش من (اللُحف كما يطلق عليها أهل نابلس)، والمخدات حيث كانت هذه المهنة من أهم المهن المنتشرة في المدينة، وما زال هذا السوق محافظاً على إستمرارية هذه المهنة حيث توجد بعض المحلات في هذا السوق تقوم بصناعة اللحف والمخدات بالطريقة اليدوية، وهي عملية ضرب القطن بواسطة سلك معدني حتى تتفت أو تتجزأ عن بعضها بعضاً. أشتهر هذا السوق بشدة ازدحامه كما يذكر النمر، وهناك مثل نابلسي ما زال بعضهم يردده « ضيعت فاطيمة بسوق القطن»[١٠]. يذكر أن ريف مدينة نابلس كان مشهوراً بزراعة القطن حيث يلاحظ من خلال سجلات محكمة نابلس الشرعية، وخاصة في الأراضي الإقطاعية، والمقصود بالأراضي الإقطاعية.

يعد عهد الإقطاع من أقدم الأنظمة المستخدمة في الدولة العثمانية فيما يتعلق بملكية وجبايتها الضرائب، والذي توارثته عن الدول السابقة، التي ترجع في أصولها إلى العصر السلجوقي[١١]، كانت الدولة تعدّ الأراضي ملكها الخاص ، ولها الحق في جمع الضرائب والرسوم والأعشار، فقد قسمت الأراضي الإقطاعية بشكل عام في الدولة العثمانية إلى أربعة وهي مرتبة حسب أهميتها، وقد اتضح هذا التقسيم بشكل مبين من خلال دفتر لواء نابلس***(T.D 250)***. والذي يعود لسنة (٩٥٥ هـ/ ١٥٤٨م)[١٢].

١. التيمار[١٣]: ويعد أقل أو أصغر مستويات الإقطاع العثماني، دخله السنوي يبلغ ما بين(٣٠٠٠-١٩٠٠٠)، وقد يبلغ أو يصل إلى مستويات أدنى من ذلك ليصل دخل التيمار الواحد إلى(٢٠٠٠) أقجة[١٤]، والتيمار يعني الأراضي التي تقتطع للجند مقابل الخدمات التي يقدمونها للدولة [١٥]. وتفيد بعض المصادر التاريخية أن هذا النوع من الإقطاعات كان منتشراً في الدولة العثمانية بشكل كبير جداً[١٦].

٢. الزعامت كنظام إقطاعي يأتي في المرتبة الثانية بعد التيمار، ويبلغ دخل هذا الإقطاع(١٩٠٠٠-٩٩٠٠٠) [١٧] أقجة، وكان يمنح هذا الإقطاع للجنود السباهية[١٨]، وقد ذكرت بعض المراجع أنه وجد في نابلس زعامت كانت محلية، وليست من الجنود السباهية[١٩] وهي من العائلات المتنفذة في مدينة نابلس وخاصة طوقان وعبد الهادي[٢٠].

٣. الخاص وتعني الإقطاعات الخاصة بالسلطان وعائلته ووزرائه، وقادة الجيش في الدولة، وهي من أجود الأراضي الزراعية وأفضلها من حيث خصوبتها،ويصل دخلها إلى (٩٩٠٠٠-١٠٠٠٠٠) أقجة، كما ألحق ببعض المناصب الإدارية لينفق أصحاب هذه المناصب من وارداته، وفي عهد السلطان سليمان القانوني احتكرت السلطة حق منح الإقطاعات إلا في حالات قليلة [٢١].

٤. الملكانة: وهي الإقطاعات التي صدرت براءات منحها عن السدة السلطانية، أو من ينوب عنها في دمشق وعكا بصيغة تفيد التمليك، أو تجديد براءات التيمارجية والزعماء والملتزمين باستمرار،إلى أن رسخت أقدامهم فيها، وغدت ملكانة للمقطع وذويه من بعده، ومن الأمثلة على ذلك براءة إقطاع دزدار في القدس والخليل وغيرها من المدن الفلسطينية[٢٢]. وكذلك من خلال المنازعات التجارية وتحصيل الضرائب، حيث كان من بين المحاصيل الزراعية التي تجبى مادة القطن، وبالتالي فإن توافر المادة الخام أو الأساسية لهذه الصناعة جعلها تزدهر كصناعة الصابون وغيرها من الصناعات[٢٣].

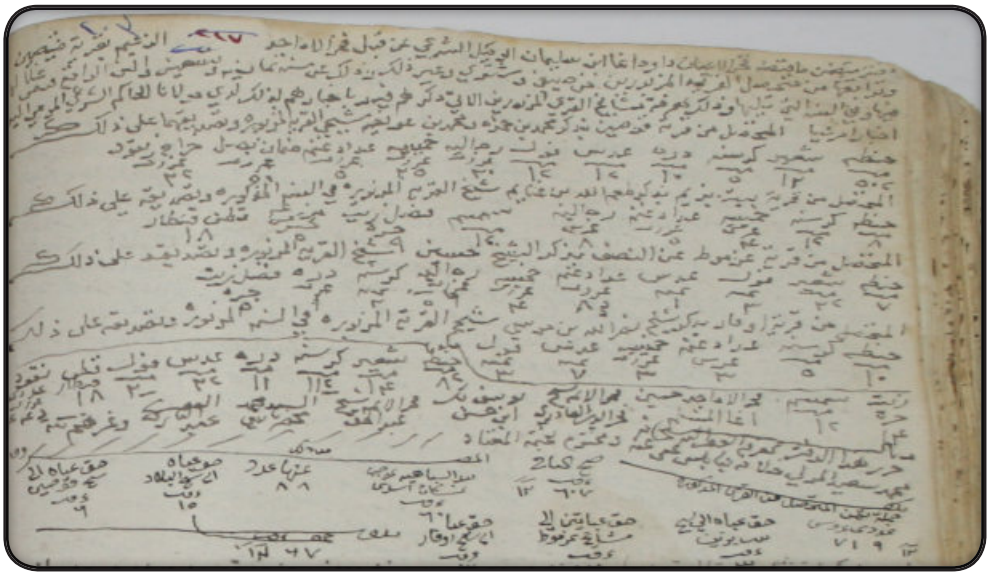

(صورة عن سجل محكمة نابلس الشرعية، سجل رقم ٢، لسنة ١٠٩٥ه/ ص، ٢٠٣)

"نص الحجة"

"دفتر يتضمن ما قبضه فخر الأعيان داود أغا ابن سليمان الوكيل الشرعي من قبل فخر الأماجد الزعيم بقرية قوصين وتوابعها من متحصل القرية المذكورة من صيفي وشتوي، وغير ذلك عن سنة ثمان وتسعين وألف قبض فيها وفي السنة التي تليها، وذلك بمعرفة مشايخ القرى المذكورة الأتي ذكرهم بأخبارهم بذلك لدى مولانا الحاكم الشرعي المدعو إليه إخباراً شرعياً المتحصل من قرية قوصين بذكر محمد بن حمدان ومحمد بن عويضة شيخي القرية المذكورة وتصديقهما على ذلك:

قائمة بالمواد التي جبيت من قرى قوصين، بيت بزيم،عزموط..." المتحصل من قرية بيت ابزيم

حنطة ٨ كرسنة ١٢ خمسين قرش عداد غنم عدد٥ رجالية ٨ قرش سمسم ١٢ زيت ٩ جرة

يتضح كما يلاحظ من نص الحجة الشرعية الواردة في سجل محكمة نابلس الشرعية، سجل رقم ٢، أن الضرائب التي كانت تجبى على سلع عدة من بينها مادة القطن، حيث نورد بعض الأمثلة على ذلك، فيرد أن قرية عزموط [٢٤]، تم تحصيل الضرائب التالية منها لتلك السنة ٧أكياس حنطة، ٣٢ كيس شعير،٣ فول، ٢ عدس، ٨٤ رأس غنم، ذرة، ٥ جرة زيت،

كرسنة ٣، كما يذكر أن تم تحصيل ١٨ قنطار قطن من قرية بيت أمرين، كما يتضح من النص أن مشايخ تلك القرى كانوا يكافأون بمنحهم (حق)، بمعنى ثمن عباءة لكل شيخ يقوم بمساعدة الدولة العثمانية بتحصيل هذه الضرائب.حيث يذكر أنه تم منح مشايخ عزموط ثمن عباءتين، وشيخ قرية قوصين ثمن عباءة، وشيخ قرية بيت بزيم، وثمن عباءة لشيخ البلاد لا يذكر من المقصود بشيخ البلاد.

مثال أخر على توافر مادة القطن في قرى نابلس:

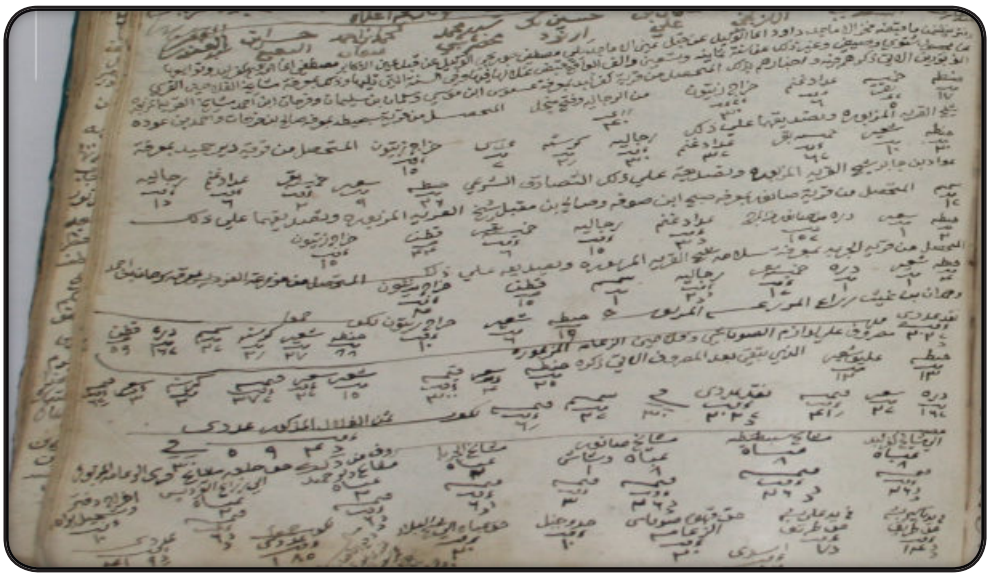

ورد في سجل محكمة نابلس الشرعية السجل رقم ٢، لسنة١٠٩٥ هـ، ص ٢٠٣، أنه في هذه السنة تم تحصيل الضرائب التالية من القرى التابعة للواء نابلس؛ حيث نجد أن قرية كفر اللبد وقرية دير حميد لم يُزرع فيها القطن، بينما قرية الجربة وقرية صانور جُمع ١٥ كيساً من القطن، وكما هي العادة ورد في نهاية الحجة أنه تم منح (حق) ثمن عباءة لمشايخ تلك القرى.

تاريخ البناء:

لا يوجد نص تأسيسي يوضح تاريخ بناء السوق، والسوق أقدم من الناحية المعمارية من سوق السلطان، ولكن يرجح أن تاريخ البناء يعود للفترة المملوكية وبداية الفترة العثمانية، حيث يوجد السوق في الجهة الشرقية من حي القصبة.

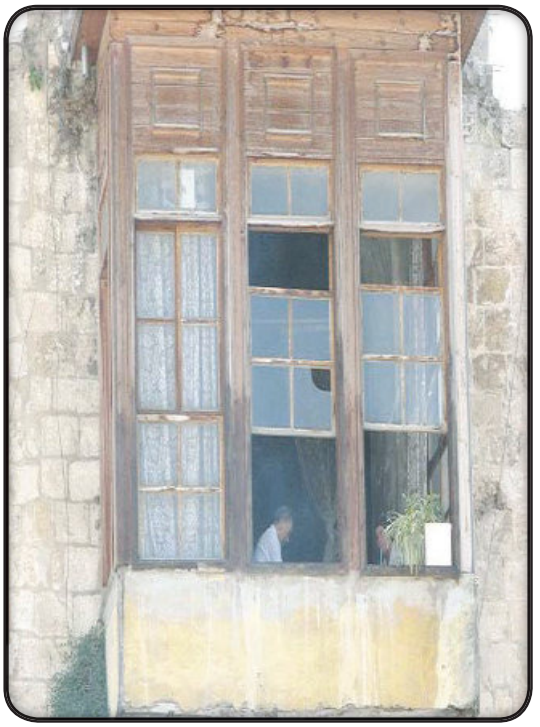

أحدى النوافذ القديمة التي تطل على سوق القطن حي القصبة في مدينة نابلس

نموذج لبعض صناعات نابلس في هذا السوق والذي ما زال موجوداً لغاية هذا اليوم.

سوق البصل:

الموقع: يقع في الجهة الغربية من البلدة القديمة في مدينة نابلس، يعدّ مدخل السوق من الجهة الشمالية إحدى بوابات البلدة القديمة، ويعدّ السوق من الأسواق المهمة في المدينة؛ وهو من بين الأسواق التي حافظت على تسميتها، حيث ما زال يباع فيه أصناف عدة من الخضار والفواكه وتمارس فيه مهن اخرى.

التسمية : جاءت التسمية نسبة إلى نوع السلعة التي كانت تباع فيه، والتي ما زالت لهذا اليوم، ولكن السوق يختلف عن سوق السلطان حيث يتخلل هذا السوق بيوت سكنية إذ يوجد بين كل متجرين أو ثلاثة متاجر مدخل مستقل لبيت سكني مع ساحة سماوية تشبه البيوت الشامية إلى حد كبير:

تاريخ السوق: لا يوجد تأريخ محدد لبناء السوق، السوق الذي يعدّ من الأسواق الجانبية للبلدة القديمة، ومن خلال نمط البيوت التي تتخلل السوق فهي تعود للفترة العثمانية المبكرة عندما اُستحدثت بعض الحارات الجديدة في مدينة نابلس.وهو من الأسواق المكشوفة في مدينة نابلس

منظر عام لسوق البصل في نابلس

سوق العطارين:

الموقع: يقع مع نهاية تقاطع سوق البصل وسوق الحدادين، حيث الجهة الغربية من حي القصبة، لا زالت تمارس مهنة العطارة في هذا السوق إلى يومنا هذا، ولكن ليس بجميع متاجر هذا السوق.

التسمية: تشتهر مدينة نابلس برائحة العطارة لمن يتجول في البلدة القديمة، ويتفنن التجار في عرض بضائعهم في هذا السوق؛ وقد جاءت التسمية نسبة إلى تخصص هذا السوق ببيع هذه البضاعة، والتخصص في الأسواق ما زالت بعض المدن الإسلامية كدمشق وحلب وفاس ومكناس والرباط والقدس وغيرها من المدن الاسلامية تحافظ على هذا الطابع، فالتخصص في بيع البضاعة نفسها في السوق ذاته يجعل التنافس أكبر بين التجار وبالتالي يكون السعر أرخص على المستهلك، فهذه سياسة اقتصادية اتبعت في المدن الاسلامية، وهي نهج مميز ضمن الاقتصاد الإسلامي.

تاريخ السوق: يعود للفترة المملوكية حيث النمط المعماري السائد، وهو يعدّ امتداداً لخان التجار من الجهة الجنوبية.

سوق الحدادين:

الموقع: يقع سوق الحدادين نهاية سوق البصل من الجهة الغربية، وأيضاً جنوب سوق العطارين، ويربط بين الأسواق الثلاثة تقاطع طريق يؤدي إلى حي القصبة من الجهة الغربية.

التسمية: كانت أنواع الحدادة تمارس كافة في هذا السوق، خاصة صناعة الفؤوس وأدوات الحراثة ، وهو من الأسواق غير المسقوفة في المدينة، يوجد في هذا السوق خان الوكالة، أو الوكالة الفروخية، التي تنسب لأل فروخ حكام مدينة نابلس القدس، وحكمت الأسرة الأميرية المملوكية الأصل وهي أسرة (عائلة) آل فرّوخ، وكانت تلك الأسرة حلقة الوصل بين آل طراباي في شمال فلسطين وآل رضوان في الجنوب (غزة)، وقد شغل أفراد آل فرّوخ وظيفة إمارة الحج الشامي لأعوام عدة، وتعاونوا مع حلفائهم على منع فخر الدين الثاني من الاستيلاء على القدس كما خطط لذلك، وقاموا بحماية الحجاج كل عام، ومن أشهر آل فرّوخ الذين تصدّوا لتوسعات فخر الدين، الأمير محمد بن فرّوخ الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه الأمير فرّوخ بن عبد الله وهو في طريقه إلى مكة على رأس قافلة الحج الشامي. وكان محمد قد عزل عن نابلس مرات عدّة، ثم عاد إليها بفضل الدعم الذي لقيه من العثمانيين ضد عدوه الأمير فخر الدين الذي طمع بمنح حكومة نابلس لأبنائه وأعوانه، وتولى محمد بن فرّوخ إمارة الحج الشامي معظم الفترة ما بين(١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م) إلى(١٠٤٨ هـ/١٦٣٩ م)[٢٥].

تاريخ الخان: يقع خان الوكالة الفروخية جوار المدخل الغربي لخان التجار حيث شيده حاكم نابلس الأمير فروخ باشا أمير الحج الشامي في العصر المملوكي عام ١٦٣٠ ليكون مقراً لتجميع الحجاج، ونزول القوافل التجارية، فكان بمثابة مركز رئيس للتجارة يأتي إليه التجار من جميع محافظات الوطن. من أجل البيع والشراء، وكان الطابق الأرضي منه إسطبلاً للخيل والدواب، والطابق العلوي فندقاً ينزل فيه النزلاء. وتأثر الخان بزلزال عام ١٩٢٧، وانهدم منه الجزء الجنوبي – والجنوبي الغربي، وتبقى منه الجزء الشرقي، والمنطقة الغربية الشمالية تأثر جزء ضئيل منها. والخان بمعانيه المتعددة يعني: الفندق، والحانوت، والمتجر، والحاكم، والأمير، وقد انتشرت الخانات كمحطات للقوافل التجارية على طول الطرق التي تمر بها، واعتاد التجار أن يأتوا اليه ببضائعهم ومواشيهم للأستراحة وللتزود بالمواد التنموية والماء، وكانت هذه الخانات توفر للتجار الأمن والطمأنينة من اللصوص والمحتالين. لذلك على الأغلب، فإن تاريخ بناء السوق يعود للفترة المملوكية، ويعتقد أنه بني في الفترة المملوكية.

كما تذكر المصادر التاريخية أن مدينة نابلس كانت تحتوى على سويقات وأسواق أخرى ما زال بعضها قائماً وبعضها الآخر تغيرت معالمة، وأصبح يطلق عليه مسميات أخرى كسوق الحميدية وسوق المنارة والسوق الشرقي والسوق الغربي، وجادات كثيرة منتشرة داخل الأحياء والحارات، وكانت التجارة تقتصر فيها على سكان تلك الأحياء.

سوق القيسارية:

الموقع: يقع السوق في حارة القيسارية في الجزء الجنوبي الشرقي من مدينة نابلس، وتعرف اليوم بحارة الجبالية، وهي مدخل مدينة نابلس من الجهة الجنوبية الشرقية.

التسمية: التسمية ليست عربية فكلمة قيسارية مأخوذة من قيصر وهي رومانية، وتعني مجموعة من المحلات التجارية حيث يوجد مثل هذا السوق في غزة والشام وغرناطة، وهي أسواق صغيرة الحجم، والممر الذي يتوسطها صغير جداً ليس كبقية الأسواق الأخرى، كان يباع فيها القماش وغيره من البضائع كالحلي.

تاريخ السوق: يعود للفترة العثمانية، أما التسمية فتعود لكونه أحد الأحياء الرئيسة لنابلس الرومانية.

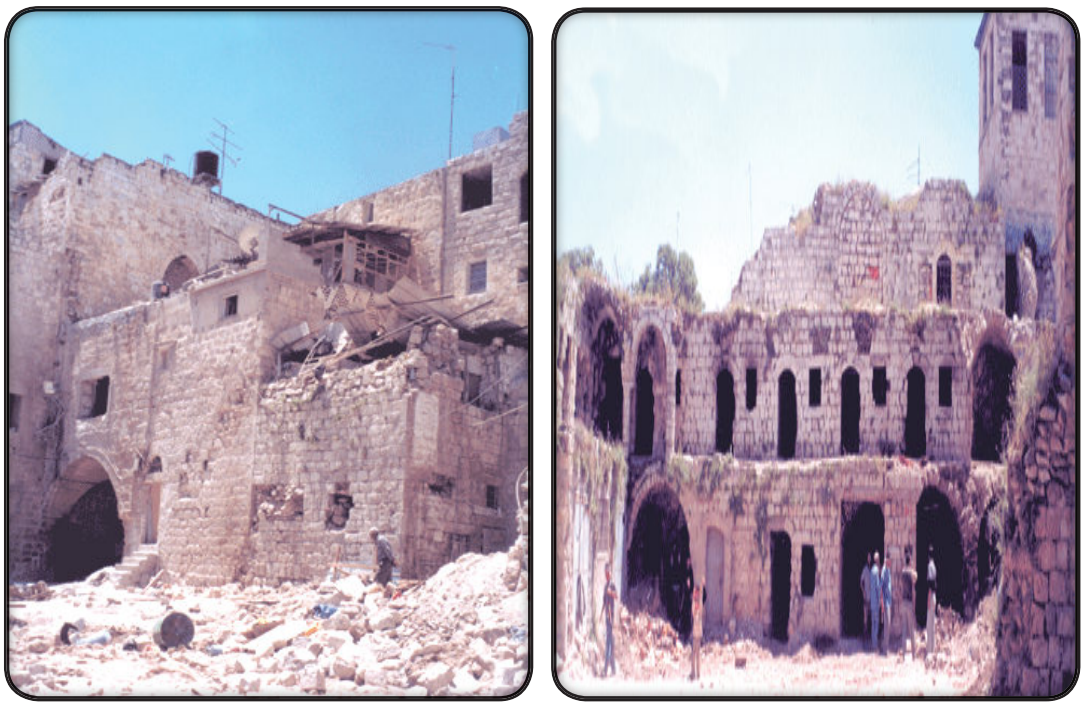

حارة القيسارية من الداخل مدخل القيسارية الشرقي

الضرائب التي كانت تفرض على البضائع في السوق:

تذكر سجلات محكمة نابلس الشرعية أن هناك أنواعاً عدة من الضرائب كانت تدفع على البضائع التي ترد إلى الأسواق المختلفة والمتعددة في المدينة:

نص الحجة رقم ٢، سجل محكمة نابلس الشرعية، لسنة١٠٩٩ / ١٦٨٠م ، سجل رقم ٢، ص .٢٠٦

« حضر محمد بن الحاج علاء الدين الحنيني، وأبرز من يده ممسكاً من قدوة أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام صاحب العز والمجد والاحترام مولانا سليمان بك أمير لواء نابلس لا زال سعده على الفرقدين تتلألأ صورته، وجه تحرير الحروف هدانا إلى ناقلين الحروف محمد بن علاء الدين وكنعان بن خليل جميع احتساب نفس نابلس تابع خواص همايون عن باج فواله وغلال ودكاكين وباج حلاوة وسوق دواب ومصبغة ومدبغة وغيره عن مدة سنة كاملة تمضي من تاريخه أدناه بمبلغ قدره تسعماية غرش صحاح ميري وخدمة ماية غرش صحاح يكون الجملة من غير تكرار ألف غرش صحاح منها عن ستة شهور الشتوية ثلاثماية وثلاث وثلاثين غرش وثلث صحاح وعن ستة شهور الصيفية ستماية وسبعة وستين غرش الاثلث صحاح وحضر الحاج رمضان الشامي وضمن وكفل محمد وكنعان المذكورين مال وذمة الضمان الشرعي من غير إكراه له في ذلك ولا إجبار له وأذنا لهم يتصرفوا في الاحتساب على القانون المعتاد من غير معارض اليهم فيه تحريراً في غرة شهر محرم سنة تسع وتسعين وألف وطلب مولانا الحاكم الشرعي قيده بالسجل المحفوظ حفظاً لأصله فأجابه إلى مطلوبه وأمر بتقييده في السجل وسطر ما هو الواقع تحريراً في شهر ربيع الثاني سنة تسع وتسعين وألف.

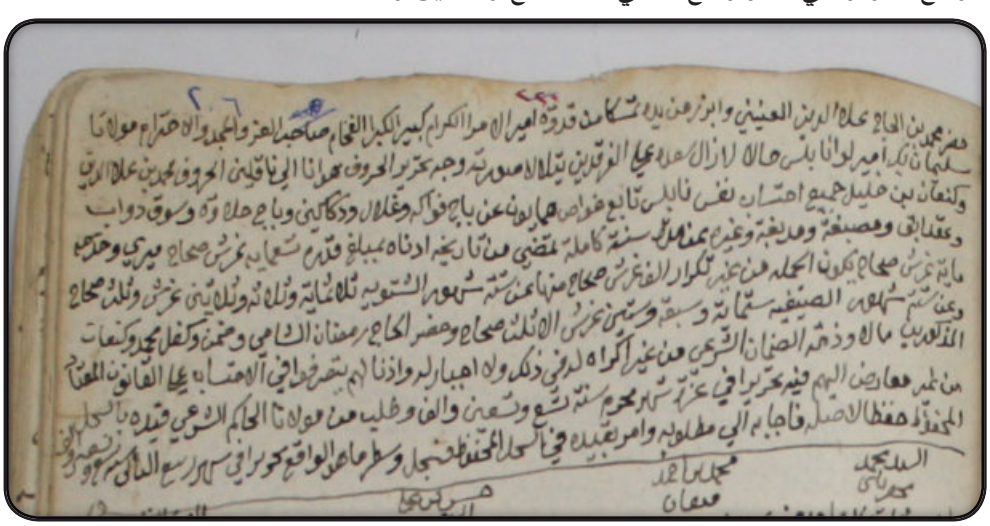

سجل محكمة نابلس الشرعية، لسنة١٠٩٩ / ١٦٨٠م ، سجل رقم ٢، ص ٢٠٦

أنواع الضرائب التي كانت تفرض على الأسواق والبضائع:

ورد في سجل محكمة نابلس الشرعية بعض أنواع الضرائب التي كانت تفرض على البضائع الواردة إلى الأسواق، حيث ترد هذه الضرائب تحت مسمى باج، وباج لفظة فارسية معناها المعجمي: (الأشياء والأموال)، أما في التاريخ المالي، فقد استخدمت بمعان مختلفة، فقد تطلق على الهدايا والأموال التي يأخذها السلطان من الأمراء والسلاطين الذين دون المستوى، كما تطلق على العشر والخراج الذي يؤخذ من الضباط والرعايا في البلاد، وعلى الرسوم الجمركية التي تؤخذ من الوافدين والمغادرين والتجار. أما ما نقصده بالباج هنا، فهو الرسوم التي تؤخذ من الأموال التي تجلب إلى الأسواق والأسواق المؤقتة للبيع والشراء[٢٦]. **في أغلب الأحوال بلغت نسبة الباج ما مقداره ٢٠٪ على الأنواع المختلفة من السلع:**

- **باج فواكه وغلال** : ضريبة على أنواع الفواكه كافة، من تفاح، وعنب، وبطيخ، ومشمس، وغيرها من الفواكه والغلال مثل القمح والشعير والكرسنة والذرة والقطن والسمسم.

- **باج دكاكين**: الضريبة التي كانت تفرض على الدكاكين تسمى ضريبة السوق، أو باج السوق ولا يرد في نص الحجج الشرعية مقدار هذه الضريبة التي كانت تفرض على الدكاكين.

- **باج حلاوة**: الضريبة التي كانت تفرض على صناعة وبيع الحلاوة، وهي كانت تصنع داخل معاصر السمسم في نابلس، وليس كبقية الغلال الأخرى تأتي من الأرياف والقرى التابعة للمدينة.

- **وباج سوق دواب**: الضريبة التي كانت تفرض على الدواب التي كانت تباع في السوق، وإلى فترة قريبة كانت بلدية نابلس تجبي هذه الضريبة من سوق المواشي من البائع والمشتري بنسبة بسيطة، حيث كان يأخذ آقجة عن كل خروفين، وتؤخذ اقجتان عند ذبح الثور، وعلى بيع الفرس أقجتان على كل عملية بيع وليس لمجرد الدخول للسوق، وبعض التجار كان يتهرب من عملية دفع الباج ويتفق مع صاحب السلعة على إخراجها من السوق بدعوى عودة صاحبها بها دون بيعها وتتم عملية البيع خارج السوق[٢٧].

- **باج مصبغة ومدبغة**: الضريبة التي كانت تفرض على عملية صباغة ودباغة قماش أو صوف أو قطن او غيرة.

لم تقتصر على الضرائب التي ذكرت بل هناك أكثر من تلك الضرائب التي كانت تتغير من فترة إلى أخرى حسب والي الولاية أو حاكم الصنجق.

علاقة الأسواق التاريخية بالتراث الثقافي في نابلس:

يظهر من خلال سجلات محكمة نابلس الشرعية أن هناك علاقة وثيقة للأسواق في إدامة بعض التقاليد الشعبية النابلسية، وذلك من خلال عمليات التبادل التجاري التي كانت تتم في الأسواق؛ فقد كانت هذه الأسواق بؤرة تجمع العائلات القروية التي كانت تأتي لتحضير (كسوة العروس والعريس) وشرائها، فبداخل هذه الأسواق تتم عملية شراء كل ما يتعلق ببعض المناسبات وارتباطها بتاريخ مدينة نابلس وثقافتها وتراثها، وبذلك فقد أدتت دروا رئيساً في إدامة التقاليد الثقافية والاجتماعية، وما يترتب عليها من زيارات لأماكن أخرى في المدينة كالحمامات والساحات العامة.

ساهمت الأسواق التاريخية بتمويل حدث تراثي وثقافي وديني ألا وهو قافلة الحاج الشامي أو الركب الشامي ، فمن خلال مداخل تلك (السويقات) جمع سويقة وهي مصطلح ظهر من خلال سجلات محكمة نابلس الشرعية ، وذلك عن طريق اقامة الاحتفالات بوداع قافلة الحجاج من خلال الغناء التراثي والديني وكذلك استقبال القافلة عند عودتها من مكة، وذلك من خلال توزيع أنواع الحلوى المختلفة على رواد السوق.

للأسواق التاريخية في مدينة نابلس دور ثقافي وتراثي من خلال إدامة بعض التقاليد الثقافية والمحافظة عليها وذلك من خلال الاستمرارية في صنع بعض الحلويات والمأكولات التي وجدت ما قبل العصر العثماني في مدينة نابلس والتي ما زالت موجودة لغاية الآن مثل: (الزلابية، والعوامة، والقطايف وغيرها من المأكولات التراثية والثقافية.

إن علاقة الأسواق بالحياة اليومية جسدت واقعاً تراثياً على مر العصور والأيام؛ وذلك من خلال المساهمة في بعض التقاليد بطريقة غير مقصودة وذلك من خلال التجار الوافدين إلى أسواق مدينة نابلس، وما ترتب على ذلك من احتياجات مختلفة، كبناء الحمامات العامة في المدينة، وكذلك تطور النظام المائي فيها من خلال الأسبلة المنتشرة عند بداية أو وسط كل سوق من أسواق المدينة وكثير منها أنشئ من تجار وأرباب بعض المهن، وذلك بدافع الثواب والأجر.

مما لا شك فيه أن أسواق مدينة نابلس كانت مسرحاً لتراث ثقافي وحضاري متميز من خلال بعض العادات الاجتماعية التي كانت تتميز بها أسواق مدينة نابلس، وخاصة الاحتفالات الدينية كالمولد النبوي والهجرة النبوية ومناسبة رأس السنة الهجرية والأعياد المختلفة.

الخاتمة:

مما لا شك فيه أن الاسواق التاريخية في مدينة نابلس تعدّ من أبرز السمات المعمارية البارزة في المدينة ؛ والتي ساعدت على نمو المدينة وتطورها عبر التاريخ، حيث أدت هذه الأسواق التي مورست من خلالها الأنشطة التجارية كافة، خاصة التي كانت تعتمد على المحاصيل التجارية المنتجة محلياً والتي ذكرناها في سياق هذا البحث.

تطورت تلك الاسواق مع تطور المدينة في العصر المملوكي والعثماني، حيث أصحبت هذه الأسواق في أغلبها أسواق مسقوفة، وذلك لاستدامة ممارسة النشاط اليومي، والتي أصبحت لا تقتصر على المواسم السنوية، وبالتالي لا بد من توفير سبل الرخاء والرحالة للتجار والمتسوقين من داخل المدينة أو من الأرياف والقرى المجاورة، لكي تقي الناس من البرد والحر، وهذا التسقيف أدى إلى نمو الحركة التجارية اليومية وتطورها في تلك الأسواق.

إن التخصص في تلك الأسواق ساهم فيما يعرف بالتنافس التجاري بين التجار في المدينة، وعليه فإن التنافس في السوق ذاته بين التجار يؤدي إلى رخص الأسعار، وهذا أدى أيضاً إلى تنشيط الحركة التجارية، والذي انعكس عل الوضع الاقتصادي، ومن ثم الاجتماعي على سكان مدينة نابلس.

تنوعت تلك الأسواق ما بين التجارية ومنها الحرفية كسوق الحدادين أو سوق العطارين وهي المسميات ذاتها التي نجدها في المدن الاسلامية مثل القدس والرباط وحلب ودمشق وغيرها من المدن الإسلامية مع احتفاظ كل مدينة ببعض الأسواق الخاصة بها لتوفر البضائع المحلية فيها.

الهوامش:

١. احسان النمر. تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٥، ج٤، ص٢٨٨.

٢. عبد الله عارف، مدينة نابلس(دراسة إقليمية) دمشق، ١٩٦٤،ص ١٢-١٣.

٣. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط١، المركز الإسلامي للبحوث، ١٩٨٦، ص١٨٧

٤. محمد عيسى صالحية، سجل أراضي ألوية(صفد، نابلس، غزة، قضاء الرملة) عمان، ١٩٩٩، ص١٢٣.

٥. مالك فايز المصري، نابلسيات، مكتبة خالد بن الوليد، نابلس،١٩٧٩، ص٦٥.

٦. سجل محكمة نابلس الشرعية، سجل ١، لسنة ١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٦م ،ص١٩٣.

٧. بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية (نبيه أمين فارس، منير البعلبكي). ١٩٦٨. ط٥. دار العلم للملايين، بيروت. ص٤٧٤؛ أنظر ؛ اينالجيك، خليل: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار (محمد.م.الأرناؤوط). ٢٠٠٢. ط١. دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان. ص١٥٢.

٨. مالك فايز المصري، نابلسيات، مكتبة خالد بن الوليد، نابلس،١٩٧٩، ص٦٧.

٩. مالك فايز المصري، نابلسيات، مكتبة خالد بن الوليد، نابلس،١٩٧٩، ص٦٧.

١٠. إحسان النمر. تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ج٢،مطبعة النصر التجارية، نابلس، ١٩٦١، ص٢٩٨.

١١. أمين مسعود أبو بكر، ملكية الأراضي في متصرفية القدس،(١٨٥٨-١٩١٨)، ط١،مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ،١٩٩٦ص٢٠٤.

١٢. دفتر مفصل لواء نابلس(٩٥٥ هـ/ ١٥٤٨م).

١٣. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب العربية، ط٥، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٦٨،ص ٤٥٨.

١٤. الأقجة: وحدة نقد تركية؛ ضربت لأول مرة في عهد السلطان أورخان في مدينة بورصة عام (٧٢٩ هـ-١٣٢٨م)، وتزن ربع مثقال ، ويزن المثقال (٤،٢٢٠غم) أنظر: فانتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل جميل العسلي، ط٢، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠، ص٩.

١٥. سلطان علي ، تاريخ الدولة العثمانية، مكتبة طرابلس العلمية، طرابلس،د.ت، ص١٨٢.

١٦. أسد رستم، ، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي، منشورات كلية العلوم والآداب، الجامعة الأمريكية بيروت،لبنان، ١٩٣٠م، ص٣٦.

١٧. محمد عدنان البخيت و نوفان الحمود، دفتر مفصل لواء عجلون،(طابوا دفتري رقم ١٨٥)، الجامعة الأردنية، عمان،١٩٩١،ص ١٦.

١٨. السباهية الجنود الفرسان الذين تم منحهم إقطاعات محددة مقابل تقديم فارس مجهز للحرب مقابل ٣٠٠٠ أقجة من دخل الزعامت أو الإقطاع السنوي، وهم من أقدم أنواع الجنود في الدولة العثمانية، كان لهم مصلحة في دوام الاقطاعات وهم خليط من الأجناس من أتراك وعرب وأكراد، كان يرأسهم ضابط برتبة ألآي بك؛ عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ، ص ٤٧.

١٩. محمد عيسى صالحية ، سجل أراضي ألوية (صفد، نابلس،غزة، وقضاء الرملة)، ط١، جامعة عمان الأهلية، ١٩٩٩،عمان، ص٢٧.

٢٠. إحسان النمر ، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ٤ج، جمعية عمال المطابع التعاونية، نابلس، ١٩٧٥، ، ج٢، ص٢٢٣.

٢١. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ص ٤٦.

٢٢. أمين مسعود أبو بكر ، ملكية الأراضي، ، ص ٢٠٨.

٢٣. سجل محكمة نابلس الشرعية، سجل رقم ٢، لسنة ١٠٩٥ هـ ، ص٢٠٣

٢٤. قرية عزموط: تقع إلى الشرق من مدينة نابلس، حيث تبعد ٦ كيلو متر ، تتربع على ربوة مرتفعة أسفل قمة جبل عيبال.

٢٥. الحسن بن محمد البوريني، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، تحقيق: د.صلاح الدين المنجد، ج٢، دمشق ١٩٥٩، ١٩٦٦، ج٢، ص٢٧٣ ؛ محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤ ج، القاهرة (١٢٨٤هـ /١٨٦٩م)، ج١، ص٢٢١.

٢٦. أحمد آق كوندوز، التشريع الضريبي عند العثمانيين، ترجمة فاضل بيات، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، عمان ١٤٢٥ه/٢٠٠٤، ص٨٦.

٢٧. أحمد آق كوندوز، التشريع الضريبي عند العثمانيين، ترجمة فاضل بيات، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، عمان ١٤٢٥ه/٢٠٠٤، ص٨٧.

قائمة المصادر والمراجع:

١. سجل محكمة نابلس الشرعية، سجل ١، لسنة ١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٦م .

٢. سجل محكمة نابلس الشرعية، سجل رقم ٢، لسنة ١٠٩٥ هـ .

٣. احسان النمر. تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٥، ج٤.

٤. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط١، المركز الإسلامي للبحوث، ١٩٨٦.

٥. أمين مسعود أبو بكر، ملكية الأراضي في متصرفية القدس،(١٨٥٨–١٩١٨)، ط١،مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ،١٩٩٩.

٦. أسد رستم، ، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي، منشورات كلية العلوم والآداب، الجامعة الأمريكية بيروت،لبنان، ١٩٣٠م.

٧. الحسن بن محمد البوريني، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، تحقيق: د.صلاح الدين المنجد، ج٢، دمشق ١٩٥٩، ١٩٦٦، ج٢.

٨. أحمد آق كوندوز، التشريع الضريبي عند العثمانيين، ترجمة فاضل بيات، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، عمان ١٤٢٥ه/٢٠٠٤.

٩. اينالجيك، خليل: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار (محمد.م.الأرناؤوط). ٢٠٠٢. ط١. دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان.

١٠. بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية (نبيه أمين فارس، منير البعلبكي). ١٩٦٨. ط٥. دار العلم للملايين، بيروت.

١١. عبد الله عارف، مدينة نابلس(دراسة إقليمية) دمشق،١٩٦٤.

١٢. محمد عيسى صالحية، سجل أراضي ألوية(صفد، نابلس، غزة، قضاء الرملة) عمان، ١٩٩٩.

١٣. مالك فايز المصري، نابلسيات، مكتبة خالد بن الوليد، نابلس،١٩٧٩.

١٤. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب العربية، ط٥، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٦٦.

١٥. فانتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل جميل العسلي، ط٢، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠.

١٦. سلطان علي ، تاريخ الدولة العثمانية، مكتبة طرابلس العلمية، طرابلس،د.ت.

١٧. محمد عدنان البخيت و نوفان الحمود، دفتر مفصل لواء عجلون،(طابوا دفتري رقم ١٨٥)، الجامعة الأردنية، عمان،١٩٩١.

١٨. محمد عيسى صالحية ، سجل أراضي ألوية (صفد، نابلس،غزة، وقضاء الرملة)، ط١، جامعة عمان الأهلية، ١٩٩٩،عمان.

١٩. محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤ ج، القاهرة (١٢٨٤هـ /١٨٦٩م)، ج١.

المزارات النابلسية
نفحات إيمانية وتثبيت للهوية

د. أحمد سليمان سعيد بشارات*

* أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها/ جامعة القدس المفتوحة/ فرع طوباس.

المزارات النابلسية نفحات إيمانية وتثبيت للهوية

مقدمة:

انتشرت المقامات والمزارات في فلسطين، ولا تخلو منطقة من مزار أو مقام، وتعد المزارات والمقامات امتدادا لهوية الأمّة وعراقتها، وارتباطها بالأرض، فالعظماء والمجاهدون والأحرار، تصدوْا للدفاع عن هذه الأرض، وعملوا على الحفاظ عليها، ودرء الأخطار المحدقة بها.

وتطلع الغزاة بحقد لتلك المقامات، وحاولوا التخلص منها بشتى الطرق، لإبعاد الأمة عن ارتباطها التاريخي والحضاري، فعملوا جاهدين على استبدالها، ووضع مواقع أخرى عليها لطمس هويتها، وتقليل ارتباط الإنسان بها.

وفي الوقت نفسه، هَبَّ قادة عظام لنجدة الأمة، والحفاظ على مآثرها، فجاء صلاح الدين الأيوبيّ، وطهر الأرض من رجس الحاقدين، ووضع حداً للإعتداء على هذه المآثر.

إن الباحث حاول دراسة المزارات والمقامات في مدينة نابلس، وتوقف عند كثير من المعلومات التي يشوبها اللبس حول المزار أو المقام الواحد، وتناول المزارات والمقامات ليوضح أهميتها وأنواعها، ثم تناول أهم المزارات في مدينة نابلس، وأهم المساجد، وتوقف عند مؤامرات طمس هوية المدينة، وانتهى بالخاتمة. **وتوصلت الدراسة إلى النتائج الآتية**:

١. تؤرخ المزارات والمقامات لتحرير صلاح الدين لمدينة نابلس، وتوثق عرى الصلات بين بغداد ونابلس، وبين العالمين العربي والإسلامي.

٢. مصطلح حرب الحضارات قديم حديث،تمثل في محاولة طمس الهوية، واللغة، والتخلص من المزارات والمقامات.

٣. يختلط على المرء المسجد والمزار في مدينة نابلس؛ لبناء أكثر المساجد بالقرب من مزار أو مقام.

٤. المزارات والمقامات نفحات إيمانية، نشأت من بذور الزهد والصوفيّة، وازدهرت في عصر المماليك

المقامات والمزارات:

لا عجب أن انتشرت المقامات والمزارات في المدن والقرى ورؤوس الجبال وأطراف الصحراء، وما بقي منها أقل بكثير مما اندثر. ويمكن تقسيم أصحاب المقامات إلى قسمين: قسم قبل الإسلام وآخر بعده، والأول يتكون من الأنبياء الذين اعترف الإسلام بنبوتهم مثل:

نوح وابراهيم ولوط ويعقوب واسحق ويوسف وزكريا وأقاربهم، ومنهم من التصقت به صفة النبوة دون أن يكون كذلك، نحو: الإسكندر ويامين وغيرهم، ويوجد في فلسطين ٥٧ مقاماً من مقامات الأنبياء، ويتألف القسم الثاني من أقرباء الرسول كالحسين والفضل، وقد أحصي من أقرباء الرسول عشرة بينهم امرأتان، واتضحّ أن كثيراً منهم لم يُدْفنوا في فلسطين، وكثرت مقاماتهم وأضرحتهم في غور والأردن، ومن الأولياء الصالحين: أقطاب الصوفية، العبّاد والزهْاد والخلفاء وهم مؤسسو الزوايا، والنساك، والمجاهدون، وكثير منهم لم تُعرف أسماؤهم. (أحمد المرعشلي و آخرون، ١٩٨٤م ،غ/٢٥٧).

وكثرت هذه المقامات في العصر المملوكي، وكانت مراكز تعليميّة، وأطلق المماليك عليها مسميات عدة منها: الخانقاوات، والزوايا، والجوامع، والمساجد، ولقد أدت هذه المراكز أدواراً متعددة في الحياة العلمية والتعليمية والدينية.(محمد الحافظ النقر، ٢٠٠٦م،ص١٩٠).

تعلق عامة الشعب بالأولياء، وجعلوا لهم منزلة سامية من الاحترام، فقدموا لهم النذور، وأقسموا عند قبورهم الأيمان، وتلوا الدعوات، وأقاموا الصلوات والمواسم والاحتفالات، وكان للأولياء سلطان قوي على الناس وقوة وحجة روحية، وكثيراً ما يعزى النجاح والفشل إلى الولي، والإفراط في تقديس الأولياء أمر شائع عند المسلمين والمسيحيين، وتبعاً لذلك حظيت المقامات بعناية مستمرة من تجميل وإصلاح وتقديم للهدايا، وقد يسمى المقام بالمزار أو القبة أو المشهد وهو في معظم الحالات رباعي الشكل، له باب واطئ، ونافذة واحدة على الأغلب، وهناك محراب بجانب القبر الذي يكون وسط غرفة المقام، وقد يشتمل على غرفتين ومساحة أو مسكن للشيخ، وبنيت المساجد عند مقامات الأولياء.**والمقامات على أنواع**: (أحمد المرعشلي وآخرون، ١٩٨٤م، ٤/٢٥٨)

١. مقامات فيها أضرحة، إمّا داخل مبناها، وإمّا في المساحة المجاورة له.
٢. مقامات بلا أضرحة، وكأنها أقيمت تخليداً لولي.
٣. قبور بلا أي نوع من أنواع البناء.
٤. كهوف تضم أضرحة أو لا تضم، ومثالها مغارة الأدهمية في القدس.
٥. مقامات تتألف من سور بسيط محيط بقطعة أرض.
٦. مقامات تقتصر على شجرة أو كومة من الحجارة. وقد تكون بجوار الينابيع والآبار.

وارتبطت البيوت التي ينزل بها الصوفي في عهد صلاح الدين بالتعليم، وقد خصص صلاح الدين الخانقات للصوفية: وهي لفظ مأخوذ من الفارسية، ومعناه البيت الذي ينزل

فيه الصوفي، وأوقف عليها أوقافاً سخية، ويتم فيها تعليم أصول الصوفية نظرياً، وتطبيقياً إذ يقومون بالشعائر الصوفية فيها.

ونتيجة لازدهار التصوف شيِّدت العديد من المزارات في فلسطين، وغيرها من البلدان، ظهر من الخانقاوات: الصلاحيّة، التنكيزية، الدوادارية في بيت المقدس.

والزوايا في الأصل مبان صغيرة، أو مسجد للصلاة والعبادة، وأصبح يعني منزل الصوفي، واختلطت الأسماء عند المعاصرين بالرغم من تشابهها عند السلاطين.(محمد الحافظ النقر، ٢٠٠٦م، ص١٩٠_١٩١).

بذور التصوف:

أما كلمة تصوف فهي تحمل أربعة فروض: الأول إن الصوفي منسوب إلى الصوف، والثاني يكون منسوباً إلى صوفة، وهو رجل انفرد لخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام، واسمه الغوث بن مرّ، والثالث أن يكون مشتقاً من الصفاء، والرابع أن يكون منسوباً إلى كلمة (سوفيا) اليونانية، ولم يذكر المؤلف معناها.(زكي مبارك، ١٩٣٨م، ١/ ٥١).

وكان الصوفيون يعرفون باسم القراء والزهاد والنساك، وكان ملحوظاً فيهم أنهم من أقطاب الأدب والبيان(زكي مبارك، ١٩٣٨م، ١/ ٦٦).

وقد ظهرت بذور التصوف الأولى في نزعات الزهد القوية التي سادت في العالم الإسلامي في القرن الأول الهجري، ويعود ظهورها إلى عاملين: الأول: المبالغة في الشعور بالخطيئة، والثاني الرعب الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الآخرة، وسرعان ما تحول الزهد إلى التصوف، وأول من تسمى بالصوفية علي أبي هاشم الكوفي، واول (خانقاه) بنيت للصوفية بالرملة في فلسطين(أبو العلا عفيفي، ١٩٤٧،ص٢-٣).

الأولياء:

مميزات الأولياء:

ينتمي الأولياء إلى الجنسين على الرغم من تغليب الذكور على الاناث، وخير ما يمثل المرأة في نابلس الخضرا التي تحوز على الاحترام والتقدير، ويقال إن الخضراء هي ابنة يعقوب التي رفض تزويجها لوثني، وعند دخول العريس إلى الخضراء صرخت ثلاث صرخات كما وصّاها والدها، فمات العريس، وتظهر الوليات كنساء في أواسط العمر، ويعرف الأولياء بمشيتهم الملكية، وعيونهم الثاقبة ونظرتهم الهادئة، وقوامهم المنتصب. أما الأولياء الذكور فغالبيتهم من الجنس الأبيض، وفيهم زنوج، وألوان الثياب تنتمي لثلاث

مجموعات: أحمر وأخضر وأبيض، وكثير من الأولياء يرتدون حطّة بيضاء وجبة، أو لفة حمراء وثوبا أبيض، وأولياء أحفاد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يلبسون غطاء أخضر لرؤوسهم.

ويقال بأن (الخضرا) ترتدي نقاباً أخضر وإزاراً أبيض، ويقال إن (بشر الحافي) يظهر وهو يمشي عاري القدمين، كما كان الحال في حياته. ويفترض أن (الخضرا) تأخذ حماماً كل خميس في حمام الدرج.

كرامات الأولياء:

ومما يسمع عند المزارات موسيقا منبعثة من المزار، وهي إما غناء أو مدائح، أو موسيقا للدراويش، ناتجة عن عدة آلات موسيقيّة، واحياناً تكون الموسيقا أصوات عالية يسمعه الناس ويخرجون من بيوتهم، ولقد حدثني رجل يزيد عمره عن الثمانين ونيف أنه رأى مجموعة من الدراويش(أشباح) يسيرون في الليل إلى ضريح أحد الأولياء، وتصحبهم أصوات لآلات موسيقية في غور الأردن.

ويحظى الأولياء بكرامات، والكرامة هي علامة الولي، وتترجم بالاعتقاد بأن هناك قدرة خاصة للولي ممنوحة من الله لتدل على صلته بالله تعالى. وأفضل مثال على الكرامة معاقبة من يسرق ممتلكات الولي، أو وضعت تحت رعايته.

ومن الكرامات القدرات العضلية، والأولياء يستطيعون رفع عمود أو اثنين من الأعمدة الحجرية بيد واحدة، وهذه الميزة موجودة خاصة عند الأولياء في نابلس، ويملكها السلطان (عبد الغافر) و (رجال العمود) و (الشيخ طه) و(عبد القادر)، وهناك كرامات أخرى كثيرة، (توفيق كنعان، ١٩٨٨، ص ٢٥٤–٢٧٣).

ومن المثير أن بعض الأولياء يملكون قوة خاصة ضد بعض الأمراض فهم متخصصون في نوع واحد منها، فمن أجل الأمراض العقلية يتجهون إلى ستنا الخضرا، وأما الخضر فهو أكثر الأولياء قدرة في هذا المجال، أما الأمكنة التي استحم فيها أيوب ففيها فرصة للشفاء من الأمراض الجلدية. ويشفي مزار الشيخ الرفاعي من لدغة الأفعى في فلسطين، أما شفاء الأمراض العصبية والعقلية فتعهد لمقامات الخضر المنتشرة في أنحاء الوطن. وقد يستخدم الناس الأعشاب التي تنمو بالقرب من المزار كعلاج.(توفيق كنعان، ١٩٨٨، ص١٤٠).

أنواع المزارات:

إن أهم ما يميّز المزار المقام أوالضريح، وتأتي الأشجار وقنوات المياه في المرتبة الثانية، وهناك عوامل أخرى ذات أهمية أقل، ولا يمكن اعتبار أي مكان مقدس، بمعنى أنه

مسكون من جانب قديس، **ما لم يتوافرْ فيه شرطان**:

١. القيام بطقوس دينية مثل حلف اليمين، النذور، إشعال المصابيح، حرق البخور.

٢. تكرار حصول ظاهرة غير طبيعيّة، مثل سماع الموسيقا الدينية، رؤية الضوء ينبعث تلقائياً، أو حدوث عقوبة قاسية لأحد المارة (توفيق كنعان، ١٩٨٨،ص ٦٦–٦٧).

أما الطقوس والممارسات التي تتعلق بالمزارات والأماكن المقدسة فيمكن ترتيبها كما يلي:

١. الممارسات الدينية، وتقسم إلى أقسام عدة، على نحو: التلفظ بكلمات التقوى، الصلوات، الأدعية، الاحترام.

٢. يتمثل القسم الثاني في وضع الممتلكات تحت حماية الولي، وقد يقوم الناس بأعمال منها: ربط الخرق، الأمور المتعلقة بالشفاء، القسم، آداء النذور، الاحتفالات في الأعياد والمواكب(توفيق كنعان، ١٩٨٨، ص١١٥).

وقبل دخول المزار يستأذن الزائر الولي بأن يسمح له بزيارته، وعند دخول المزار يلفظ الرجل كلمة يا ستار، يا حافظ، يا آمين(توفيق كنعان، ١٩٨٨، ص١١٦).

وإلى جانب طلب الإذن نقابل حالات تطلب المساعدة من الولي.(توفيق كنعان، ١٩٨٨، ص١١٦–١١٧).

ويقرأ الزائر الفاتحة أو سورة من القرآن، والدعاء عند دخول المقام، أو إذا مرّ بالمكان(كنعان، ١٩٨٨، ص١٤٠).

ومما يجدر ذكره أن الرحالة زاروا البلاد العربيّة، ومن ضمنها فلسطين، ووصفوا زيارة المقامات والمزارات وفي مقدمتها: المسجد الأقصى، وقبة المعراج، وقبة الخضر، وقبة سليمان، وقبة موسى.(كامل جميل العسلي،١٩٩٢م، ص ٣٦–٣٧)

وتتألف الزوايا في العصر المملوكي في مدينة نابلس من مجموعة من الغرف لتدريس القرآن وتحفيظه، وساهمت هذه الزوايا في تطوير الحركة العلمية في المدينة والقرى المحيطة، وانحسر دورها في تدريس القرآن والفقه والتصوف، يضاف إليها الخدمات المعتادة التي تقدمها للفقراء والمساكين والزوار.(رئيسة عبد الفتاح طلب العزة، ١٩٩٥م،ص١٤٣).

المقامات والمزارات:

المقام والمقامة: المجلس. ومقامات الناس: مجالسهم، والمقامة والمقام: الموضع الذي تقوم فيه (اللسان مادة قوم).

والمزار لغة هو موضع الزيارة، وفي الحديث :إن لزورك عليك حقاً، الزور: الزائر وهو مصدر، وُضع موضع الاسم. والزأْرة: الأجمة ذات الماء والحلفاء والقصب (اللسان مادة زور). فالكلمتان مقام ومزار يجمعان الإقامة والموضع.

أما المزار اصطلاحاً فهو مكان اكتسب القداسة بسبب وجود قبر أو شبح أو ولي من أولياء الله فيه، أو روح صالحة خيّرة لمجاهد أو شهيد تسكنه، ولذا أصبح المزار رمزاً تتجمع حوله أفئدة الناس، وتحج إليه لتقديس ساكنه الذي يمثل طموحات الناس في الحياة الخيّرة، والمجاهدين، والشهداء والأبرار. (نمر سرحان، ١٩٨٩م، ص٩).

ويطلق الناس على المكان الذي به ضريح الولي أسماء مختلفة منها: المزار والمقام والمشهد والطربة والتربة والقبة، وقد يطلق هذا الاسم الأخير على مقام ليست له قبة.

ويختلف موقع المقام من مكان إلى آخر، فقد يكون وسط القرية أو في مدخلها، أو بالقرب منها، ولكن غالباً ما يكون على موقع مرتفع خارج القرية، ويندر أن يوجد في بطن واد، وقد يكون وسط مقبرة. (جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٩م، ص١٤٧) .

وأخذت المقامات شكلاً معيناً(مربع عادة) فوقه قبة، ويكون له منفذ رئيس، ونافذة صغيرة، وتختلف المقامات حسب أصحابها، أو أصحاب الطرق الصوفية، أو مشاهير الأولياء.(جامعة القدس المفتوحة،٢٠٠٩م، ص٢٤٧)

ويعود تعدد الأضرحة في المزار الواحد لصفات تجمع أصحاب الأضرحة منها: القرابة، أو الشهادة،أو الصلاح، وقد يتصل بالمزار كهف أحياناً. وبهذا قد يجمع المقام ضريحاً وكهفا وشجراً وعين ماء.

المزارات والمقامات في مدينة نابلس:

المعروف عن مدينة نابلس كثرة المزارات والمقامات، لتوالي القادة والسلف الصالح عليها، وكانت المدينة حصناً حصيناً ومطمعا للقوات الغازية من الرومان والصليبيين الذين طهرهم المماليك.

وتدلل أسماؤها على ذلك فشكيم تسمية كنعانية بمعنى الكتف، ونيابولس تسمية رومانية: تعني المدينة الجديدة، ونابلس تسمية أطلقها عليها العرب المسلمون حينما فتحها عمرو بن العاص، وبلغت المدينة مكانة عالية إذ كانت مسكنا للأنبياء والعلماء والأولياء والصالحين، ولقد سكنها يعقوب بن اسحق عليه السلام (جبر البيتاوي: المقامات والمزارات في نابلس بين الموروث الديني والتراثي، ص٧).

وقد يختلط المزار والمقام والمسجد في مدينة نابلس؛ لأن المساجد بنيت في معظمها بالقرب من ضريح أو مزار، **وتسهيلاً للدراسة يمكن تقسيم المقامات والمزارات إلى:**

أولاً- المزارات والمقامات منفردة أو مجتمعة (مزار أو مقام مع ضريح أو بدونه) وهي:

- **قبر يوسف عليه السلام:**

يقع شمالي بئر يعقوب، ويبعد حوالي سبعمائة متر، ويعتقد بأنه قبر يوسف عليه السلام، علما بأن يوسف عليه السلام توفي في مصر، ولم ينقل جثمانه إلى نابلس أو الخليل؛ لأن الأنبياء يدفنون حيث ماتوا، ويعتقد أيضا بأن أبناء يعقوب باعوا أخاهم في هذا المكان. (مسلم الحلو، د.ث، ص١٠٤). ويروى أن يعقوب عليه السلام لما هاجر إلى فلسطين، وقف أمام قرية سالم قضاء جنين، ثم أنشأ بين قرية سالم وبلدة نابلس معبداً لله، وحفر بئراً، وعندما حانت وفاته أوصى بأملاكه بين جبلي جرْزيم وعيبال إلى ولدة يوسف عليه السلام . (زهير عبد اللطيف غنايم وآخرون،٢٠٠٠م،ص١٨٠).

أما عبد الغني النابلسي فيذكر أثناء رحلته إلى القدس أنه زار مزار يوسف ـ عليه السلام ـ في دمشق في الشام ثم أضاف أننا وجدنا ضريح يوسف ـ عليه السلام ـ في بلاد الخليل، وقبر يوسف هو خارج السور السليماني من جهة الغرب بداخل المدرسة المنسوبة للسلطان الملك الناصر حسن، وتسمى الآن بالقلعة (عبد الغني النابلسي،١٩٠٢م، ص٦٣).

- **بئر يعقوب:**

يقع في أطراف مدينة نابلس في وسط السهل الذي يفصل بين جرزيم وعيبال شرقاً، ويعتقد أن هذه البئر حفرها يعقوب عليه السلام، ويبلغ عمقها٤٠م. والتقى السيد المسيح بالمرأة السامرية، وطلب منها شربة ماء، فرفضت؛ لأنها سامرية. يقول بورشاد: «جلس المسيح على حافة البئر، وطلب من المرأة السامرية أن تسقيه». (بورشاد،د.ث، ص١٠٩)، ولهذا تدعى البئر أيضاً ببئر السامرية، وبنت الملكة هيلانة كنيسة ضخمة فوق البئر، وعمرّها الصليبيون بعد أن هدمت، والآن فوقها كنيسة. (مسلم الحلو، د.ث، ص١٠٣) . ويروى أنه لما حانت وفاة حضرة يعقوب أوصى بأملاكه إلى ولده يوسف. (محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت، ٢٠٠٠م،ص١٨٠) ويقال: إن الصليبيين أقاموا كنيسة فوق البئر، ودمرّها صلاح الدين عقب فتح نابلس.(سعيد البيشاوي، د.ث،ص١٠٩).

ولو كان المكان يسمح بالاجتهاد لأدعى الباحث أن بئر يعقوب هو البئر الذي ألقي فيه يوسف (قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) (يوسف، آيه١٠) فالبئر عميق، والمكان تسير فيه القوافل لأنه بين جبلين،

ويطلق على البئر حزن يعقوب، وكل هذه الأمور تدلل على ما ذهب إليه الباحث، والله تعالى أعلى وأعلم . وهناك أربعة آراء حول البئر أهمها على الترتيب: بئر وثبان، بئر سنجل، بئرالحبيب ، بئر يعقوب.

♦ **رجال العمود:**

تقع قبور رجال العمود في القسم الشرقي من مدينة نابلس، ويقال إن أربعين نبياً دفنوا فيها، ويقول السامريون إن القيصر (زينو) قتل سبعين من زعمائهم عندما حاولوا تنصيرهم، ويزعم بعضهم أن (بلوطة مورة) هو المكان الذي نصب عليه ابراهيم خيمته عندما زار البلاد لأول مرة، ويظهر من خلال الروايات أن مشايخ العامود دفنوا في هذا المكان، ودفن محمد عامود النور، وولديه الشيخ صالح، والشيخ سعد الدين. (مسلم الحلو، د.ث،ص١٠٣).

ولما زار المكان عبد الغني النابلسي قال: ثم توجهنا إلى زيارة الأنبياء الأربعين، ودخلنا في داخل المقبرة، ورأينا مدفناً عظيماً، يشتمل على أماكن عدة، وفيه مغارة الأربعين، وفي تلك المغارة عمود؛ لهذا سموا رجال العمود، وأضاف أنه يوجد مقام لعلي رضي الله عنه. (مصطفى الدباغ، ١٩٨٨م،ص٢٣٧).

وامتاز مقام العامود على سائر مقامات نابلس بأن صلاة الاستغاثة تقام فيه كلما توقف المطر. (إحسان النمر، ١٩٧٥م،ص١٧٤).

♦ **عماد الدين:**

يقع هذا المزار بالقرب من رأس جبل عيبال، وإلى الشمال من مزار زميله مجير الدين، والمزار بعيد نسبيا، ومسالكه وعرة، ومساحة الغرفة التي يقوم فيها الضريح تقرب من خمسة وعشرين متراً مربعاً، والضريح طوله أربعة أمتار، وتتصل هذه الغرفة بغرفة أخرى واسعة هي بمثابة مسجد، له محراب وقبة عالية. (مصطفى الدباغ، ١٩٨٨م، ٦/ ٢٣٤). ويرّجح أن يكون هذا المزار لأحد قادة صلاح الدين الأيوبي الذي استشهد عندما غزا التتار نابلس سنة ٦٥٨هـ .

واختلفت الآراء حول صاحب الضريح، وزعم بعضهم أنه قبر يوحنا المعمدان، لكن الصباغ يرجح أنه ليس كذلك، فالتسمية جاءت من اسم عماد الدين وحرفت، وأظن أن الضريح لقائد من قواد صلاح الدين إخوة السلاح، وأخوة الدفاع عن المدينة الباسلة التي تعرضت للعدوان، ويزيد هذا الرأي قوة كثرة قادة صلاح الدين الذين استشهدوا على هذه الارض. وهناك رأي آخر يقول: إنه ضريح علي بن شجاع. وأهل المدينة يميلون إلى أن هذا الضريح لعماد الدين.

♦ **مجير الدين**:

يقع غربي المستشفى الوطني أسفل جبل عيبال، ويتكون من غرفة مربعة الشكل فيها ضريح، وتوجد خارج الغرفة دوحة وارفة. ولهذا المقام أهمية كبيرة؛ لأن النساء ينذرن له النذور، ويضئنه بالزيت، ويقمن أفراحهن حوله. (مصطفى الدباغ، ١٩٨٨م، ص٢٣٤).

♦ **الشيخ غانم**:

يقع على جبل جرزيم، ولعله يضم رفات أحد بني غانم الدين الذي يعود نسبه إلى غانم الأنصاري، ومن المحتمل أن يكون هذا قبر الشيخ غانم بن عيسى بن الشيخ غانم المتوفى سنة ٧٧٠هـ، والمدفون بالقرب منه ولده الشيخ عبد السلام، وربما تعود أصول الشيخ غانم إلى قرية بورين، الواقع خلف المقام، وكان من الأتقياء، وسكن القدس عندما حررها صلاح الدين، والله أعلم .(مصطفى الدباغ، ١٩٨٨م، ص٢٣٧).

♦ **زاوية القدم**:

وهي موجودة في محلة قريون، وهي الزاوية الرفاعية للشيخ الشعبي، ومن موظفيها الأمير والي بن علي السباهي النابلسي، بالإضافة إلى زاوية البسطامية، والزاوية السعدية بمحلية الحبلة.(ختام محمد مطاوع،١٩٩٨م، ص١٦١).

♦ **الشيخ بدران**:

ويقع ضريحه غربي السرايا القديمة، وهذا الشيخ من رجال القرن السابع الهجري. وقد ذكره عبد الغني النابلسي أثناء رحلته، يقول:»فسرنا حتى أقبلنا على (نابلس) فخرج إلى لقائنا أهلها الكرام حتى دخلنا مدرسة الشيخ بدران....فجلسنا في تلك المدرسة المباركة حتى ورد الركب الشامي. (عبد الغني النابلسي، ١٩٠٢م، ص٦٣) والمدرسة التي ذكرها النابلسي كانت موجودة لفترة قريبة.

وينطلق من هذا المزار أصحاب الطرق الصوفية بالطبول والصنوج في المناسبات الدينية. (آمال عزات السجدي،٢٠٠٢م،ص٦٧). ويظن العامة أنه والد الشيخ العماد ومجير الدين، وقد ذكره صاحب شذرات الذهب والنجوم الزاهرة باسم العماد عبد الحافظ بن بدران، والشيخ بدران يختلف عن ابن بدران.(إحسان النمر،١٩٧٥م، ص١٧١)

♦ **السري**:

يقع على جبل جرزيم غربي نابلس، وفي هذا المقام ضريح يقال إنّه للشيخ محمد السقطي، ويقع على جبل عال غرب المدينة، ومقامه بناية كبيرة اعتاد الدراويش أن يحتفلوا

بالذكر فيها، ويدقوا الطبول كل خميس. والسري الذي ينسب إليه المقام هو أحد الأولياء المشهورين، واتخذ تلاميذ السري قرية الجنيد مكانا للعبادة. (مصطفى الدباغ، ١٩٨٨م، ٢٣٢/٦)، والمرجح أنه اتخذ للذكر، وصاحبه دفن في بغداد.

♦ **مصلى آدم**:

هذا المكان غير معروف، ولكن ياقوت الحموي ذكره، «وبظاهر نابلس جبل ذكروا أن آدم عليه السلام سجد فيه».(مصطفى مراد الدباغ،١٩٨٨م،٢٣٢/٦) .والسري من رجال التصوف له قبر بسيط، وكان صاحبه قد قدّس الله تعالى، وقبره في بغداد، ومقامه بناية كبيرة تستعمل تكيّة(إحسان النمر: تاريخ جبل نابلس والبلقاء،١٩٧٥م،ص١٦٨)

♦ **زاوية بشر الشافي**:

يقع غربي جامع الأنبياء، وهو عبارة عن غرفة كبيرة واسعة بها ضريح ينسب إلى بشر أحد رجال العشيريّة، ولكن ذلك غير مثبت لثبات وفاة المذكور في بغداد٢٢٧هـ.

ويرجح بأن يكون المكان لأتباعه.(مسلم الحلو،د.ث، ص١٠١) (ختام محمد مطاوع، ١٩٩٨م، ص١٦٢) وظلّ السكان إلى حد قريب يشعلون عليه السرج، وينذرون له النذور التي منها غطاء للقبر من القماش الأخضر، ويقولون إنه تمزق. وكان كل من يمرّ عنده يربط شريطة على حديد نافذته، وكان يربط الصبيان من شرابة الطربوش(خيطان) على ذلك الحديد، وبعض الرجال تقطع من بطانة القُنباز. ويقول إحسان النمر إنه كان كتّابا للتعليم، ويضيف بأنه تعلم فيه. وهدم في زلزال ١٩٢٧ وأعادت بناءه الحاجة عزيزة عبد المجيد (النعاجي)، واستولت عليه الأوقاف وقسمته إلى قسمين: القسم الشرقي فيه الضريح، والغربي محلات تجارية.(إحسان النمر، ١٩٧٥م، ص١٧٠)

♦ **الدرويشية**:

زاوية في حي القريون، وبها قبر الدرويش مراد واخيه محمد(مسلم الحلو، د.ث، ص١٠١) ويطلق عليه التوتة الدرويشية لوجود شجرة توت كبيرة بقربها. وقد كان في المكان تكيّة درويشية. (إحسان النمر، ١٩٧٥م،ص ١٧٢)

♦ **مقام الشيخ مسلم**:

يقع هذا المقام في أقصى الشرق، ولم تتوافر معلومات عنه(آمال عزات السجدي، ٢٠٠٢م، ص٦٧). وهناك مسجد الشيخ مسلم العمادي، جنوب مسجد الأنبياء، ومقام الأنبياء، ومقام الرملي قريب من جامع النصر. ولم تُذكر عنها أية معلومة. لكن إحسان النمر يقول: إن المسجد الكبير يستخدم للتعليم، وكان بالقرب من الضريح، وكان يعرف

بحوش الشيخ المسلم.(احسان النمر، ١٩٧٥م ، ص١٧٠) وجرت العادة أن تحيي فرق خاصة بالزوايا المناسبات الدينية، ويطلق عليها النابلسيون(العدّة) وتتكون من مجموعة من الرجال الذين ينتمون إلى زاوية، أو مقام، وهم يحملون الأعلام الدينية، والسيوف، والطبول.(تحرير خليل عودة ومحمود عطا الله، ١٩٩٩م ، ص ١٩١)

- **صخرة الست سليمية في الجبل الشمالي (عيبال):**

يعتقد بعض الناس أن سليمية عابدة مِصْرية طار نعشها ودخل في جوف هذه الصخرة، وصار الناس يشعلون لها السروج، فكانت بنات آوى تلعق الزيت، وتطفئ السروج المشتعلة، وكانت النذور تقدم في هذا المكان.

وذكر الشيخ عبد الغني النابلسي أن في المكان ضريحين لسليم وسلمي، وكانا يتعبدان أسفل هذه الصخرة، ويظهر أن أهل الخير من ملاكي كروم الصبر في تلك المنطقة، قد بنوْا لهما جداراً يظلهما من الشمس، وبعد موتها قامت فكرة عند الصعاليك بأن تحت الصخرة كنز، فهدموا جزءاً من المكان. (إحسان النمر،١٩٧٥م، ص ١٦٥–١٦٦)

- **الشيخ مسعود:**

يوجد مقام الشيخ مسعود في نهاية البلدة القديمة، وهو صاحب كتّاب، وكانت تشعل السروج في المكان لوقت قريب. (احسان النمر، ١٩٧٥م، ص ١٧٢)

- **مقام الشيخ بلال:**

يقع على قمة جبل فوق وادي الباذان (احسان النمر، ١٩٧٥م، ص ١٧٥)

وهناك مقامات عديدة بالقرب من المدينة.

وتشبه مساجد مدينة نابلس المزارات لوجود أضرحة الأتقياء والشهداء في صحون تلك المساجد، أو بالقرب منها، والمسجد هو كل مكان يُسَجد فيه، وهو من الألفاظ الإسلامية. (ختام محمد ذيب مطاوع، ١٩٩٨م ، ص ١٥٥).

ثانيا ـ مساجد مدينة نابلس التي لها علاقة بأضرحة الاتقياء:

- **جامع الخضراء:**

يقع في حي الياسمينة، ويقال إنه تأسس في المكان نفسه الذي حزن فيه يعقوب ـ عليه السلام ـ على ابنه يوسف، ويعود تاريخ بنائه إلى عام ١٢٩٠م. (نبيل الأغا،١٩٩٣م،ص٣٠٧). وأقيم هذا الجامع على مقام الخضر في نابلس قرب الجامع الكبير. ومسجد الخضراء أقيم في نابلس زمن المنصور قلاوون، وقد دمرت مئذنة المسجد، ثم أعيد بناؤها مرة أخرى. (سعيد البيشاوي، ١٩٩١م،ص٢١١). وقد ذكره عبد الغني النابلسي إذ يقول:» عثرنا على

عين ماء هناك تسمى عين العسل، ثم توجهنا إلى جهة مسجد الخضراء، فدخلنا إلى جامع قديم البنيان متهدم الجوانب والأركان، فيه بركة مربعة الجوانب مساوية للأرض، والماء يجري على أفواه سواقيها». (عبد الغني النابلسي.١٩٠٢م، ص٧٤). والمسجد كان بيتاً ليعقوب. ويعرف الجامع باسم جامع يعقوب. (مسلم الحلو، د.ث، ص٩٨)

وتعددت المزارات في فلسطين التي تحمل اسم ولي الله الخضر، والخضر الأخضر، وحظي هذا الولي باحترام كبير في صفوف الشعب من أتباع الديانتين الاسلامية والمسيحية، ولقد وجدنا مقامات ومزارات في مواقع كثيرة منها: جبل الكرمل، والقدس، ونابلس، وحيفا، وغزة. ويضيف الباحث أن لهذا الولي مزاراً أو محل إقامة في بلدة طمون شمال شرقي نابلس. وكثرة المقامات والمزارات للخضر في كل أنحاء فلسطين إشارة إلى أهمية الولي، ويقال بأنه رمز للقتال وحمل السلاح وركوب الخيل. (نمر سرحان، ١٩٨٩م، ص١٢)

وقد كتب على أحد مقامات الخضر(عجائب الخضر كثيرة ما هي قليلة. هنا في محل القديس العظيم جورجيوس اللابس الظفر المستشهد في الحروب) وهذه العبارة تحفز الناس للشهادة في الحروب، ويظهر أن هذا القائد يدفع الناس للدفاع عن الأرض وحمايتها(نمر سرحان، ١٩٨٩م، ص١٣)، ويقال إن أولاد يعقوب دفنوا في مسجد الأنبياء، ولهم ضريح كبير في إحدى غرفه (نبيل الأغا، ١٩٩٣م، ص٣٠٩)

- **جامع النصر**:

يقع وسط البلدة القديمة، وأقيم على كنيسة بزنطية في القرن الثاني الميلادي، وأعيد بناؤه بعد الزلزال الذي ضرب مدينة نابلس عام ١٩٢٧م، وجاءت التسمية نتيجة لانتصار المسلمين على الإفرنج في المكان نفسه الذي بني فيه المسجد، أو لدفن شهداء المسلمين في صحنه، وهو الأرجح. (مسلم الحلو، د.ث، ص١٠٠) والصليبيون بنوا كنيسة (معبد السيّد) في المكان، وبعد استرداد مدينة نابلس حُوِّلت هذه الكنيسة إلى جامع النصر.

- **جامع الأنبياء**:

يقع قرب محطة سكة (الحديد) وأشارت بعض المراجع إلى أن المكان يحوي رفات أجساد أبناء يعقوب، علماً بأن أبناء يعقوب رحلوا إلى مصر ولم يعد الآ يوسف عليه السلام. (مسلم الحلو، د.ث، ص١٠١).

- **الجامع الكبير**:

يقع شرقي المدينة ومدخله الرئيس من جهة الشرق، وكان هذا الجامع في السابق كنيسة، وقد حوّلها القائد صلاح الدين إلى جامع، ويوجد على كل جانب من جانبيه

الشرقيين ثمانية أعمدة رخامية متناسقة تدعم القوس الذي يعلوها. وكان هذا المسجد يحوي مدرسة يسكنها الطلبة من خارج فلسطين، وحوله سوق، وفي أروقتة يرقد مصطفى بك الغفاري، ونستدل على ذلك من خلال نقش موجود على المسجد بالخط النسخي الجميل، جاء فيه:

"هذا قبر المرحوم، مصطفى بك الغفاري، عليه رحمة الباري، باشراه رضوان بك أمير الركب المصري في ربيع الأول لسنة ١٠٥١هـ/١٥٨٦م من محمد حبيب".

وهناك لوحة أخرى من الرخام مثبتة فوق العمود القائم في الساحة الشرقية التي تسبق الجامع الكبير، ونجد النقش الآتي:

إذا ما جئت نابلس(نابلسا) فبادر وعرج نحو جامعها الكبير
تجده عامراً يدعو بخير وتأييد لمولانا الوزير
أتى التاريخ لطفا يا مجيد.

ويتضح من هذا النقش أن سليمان أمير الحج الشامي عمّر هذا الجامع سنة ١١٣٩ه. (رئيسة عبد الفتاح ،١٩٩٩م، ص ١٦٠-١٦١).

وهناك وقف على الجامع الكبير الصلاحي يتمثل في: حمام وطاحون وعدد من الدكاكين وأشجار من الزيتون، وعرف من موظفي الجامع الكبير الصلاحي الشيخ أحمد شهاب المشهور بابن مكية الكاتب على وقف الجامع، والشيخ خليل غرس الدين البسطامي الذي كان إماماً، والشيخ الشرابي النابلسي.(ختام محمد ذيب مطاوع، ١٩٩٨م، ص ١٥٧).

وهناك مساجد أخرى منها:(ختام محمد ذيب مطاوع، ١٩٩٨م، ص ١٥٩-١٦٠).

- **جامع الساطون**: ويدعى جامع الساطون أو الساطور.
- **جامع التينة**: يقع في محلة القريون.
- **الجامع العمري**: يقع في محلة الغرب.
- **جامع تنكز**: يقع في محلةالحبلة، وبني في عهد الوالي أبو سعيد تنكز الذي توفي سنة ٧٤١هـ، وهذا المسجد كان في الأساس مشفى.
- **جامع العين**: في الأصل كنيسة، واستبدلها الحاكم حسين باشا من النصارى بدران هي كنيسة الروم الأرثدوكس في الحي الغربي من المدينة حيث بنوْا عليه الكنيسة الحالية، وبني بجانبه سبيلاً عبارة عن عين ماء، ولهذا أطلق عليه جامع العين، ويعرف اليوم بجامع البيك لأن مصطفى باشا قام بتوسعته.

المزارات والمقامات ودورها في إبراز الهُوية:

يأخذ تاريخ مدينة نابلس بعداً خاصاً في التاريخ الإسلامي، فالمدينة كانت محل اهتمام ومنطقة تجاذب، حاول الصليبيون السيطرة عليها، وطمس هويتها لما لها من دور بارز في المقاومة، ومقارعة الأعداء، وتضاريسها بالغة الأهمية في زمن كان القوس والسهم والخيل سلاحاً، كما أن موقعها له أهمية كبرى.

والمزارات والمقامات تشد الأذهان إلى ماض عتيد، وتدلل على حجم اهتمام المماليك وصلاح الدين بهذه المدينة. وما المسميات التي يحاول الاحتلال ترويجها الاّ تهويد وطمس.

تصفية الهوية وإلغاؤها:

تحتل مدينة نابلس بؤرة الشمال الفلسطيني، وتقترب من الحدود الأردنية الفلسطينية، فالمدينة تتكئ على عيبال وجرزيم، وتمد ساقيها إلى نهر الأردن، فهي شامخة بعروبتها وإسلامها وتاريخها، وكانت مدار اهتمام، وبؤرة صراع على مدى التاريخ، وتلاحقت موجات الغزو عليها تباعاً، وهبت قوافل المدافعين عنها، فلاحقت جيوش صلاح الدين فلول الصليبيين الغازين، وحرروا المدينة وأعادوا لها هيبتها.

وتعظم المدينة بأهلها وروادها عبر محطات الزمن، فسكنها الأتقياء والمجاهدون، وانتشر عبق الروحانية من العابدين المقيمين على أرضها، و احتضنت الأرض أجسادهم الطاهرة.

إنّ التطلع إلى هذه الأرض، جعل الغزاة ينفذون خططاً شيطانية، تهدف إلى طمس الهوية العربية، والإسلامية، والفلسطينية، فعمدوْا إلى محاربة الأحياء والأموات، والأسماء والتاريخ واللغة والدين.

لقد تدافعت جيوش الطامعين الصليبيين إلى هذه الأرض، وحاولت إلغاء الإرث الحضاري العربي الإسلامي في هذه المدينة، فأقامت الكنائس على المزارات والمقامات في هذه المدينة، وتعد هذه الخطوة خطوة متقدمة في صراع الحضارات وطمسها.

وحاول المغتصبون عبر الزمن تزييف التاريخ، ونشر الادّعاءات ظناً منهم أن ذلك يغير وجه المدينة، لذا نجد اختلافاً حول أسماء المزارات والمقامات، وقد تلتبس المسميات من النقيض إلى النقيض، وهذا كلّه ينصب على طمس الهوية.

ولم تسلم اللغة عماد الدين، ولغة التواصل من الاعتداء فتغيرت الأسماء وحرّفت الأعلام، وانتشرت لغة المستعمرين، كل ذلك يسير بشكل منظم ومخطط، ونحن في سبات عميق.

واللغة كالوطن تعرضت للتهويد، فضربت اللغة في عقر دارها، وهذا التهويد اللغوي يعادل قطع الرأس بالنسبة إلى الفلسطينيين، وهذا العمل أشد خطورة من الحروب، فاللغة هي التي توحد الفكر الجماعي لأي شعب من الشعوب، ولأي أمة من الأمم. (حسين أبو كته، ٢٠١٠م، ص٤٩)

ومدينة نابلس هي جزء من أرضنا، وتعاني كما تعاني أي بقعة في فلسطين. وهذا التسارع بهدف تغيير معالم المدينة بهذه الوتيرة يدفع الأمة والمؤسسات التعليميّة لتقف وقفة بطولية، حتى لا تأخذ هذه المتغيرات صفة الواقعيّة.

ومما يبعث على القلق أنه في القرن الماضي ظهرت أبحاث عديدة عن بيت المقدس وفلسطين عموماً تدّعى الموضوعية، وكنّا قد فرحنا لها إلاّ أن القارئ المتعمق في هذه الدراسات يُصْدَم بغلبة النظرات الكنسية المتعصبة في كتابات المستشرقين من أمثال: ستفن رنسيما ولامونت وديفيد جاكسون وستون وغيرهم. أمّا الدارسون اليهود فقد كرسوا جُلّ اهتمامهم لإيجاد دور لليهود في التاريخ وخاصة في بيت المقدس.(محمد الحافظ النقر، ٢٠٠٦م، ص٥).

ويقطن في هذه المدينة العرب المسلمون، واليهود السامريون، وقليل من النصارى، وتسود روح التآخي والمودة بين الديانات الثلاث.

ونلاحظ أن الحملة الصليبية صَبّت جام حقدها على الأماكن المقدسة والمزارات، وما له امتداد إسلامي في هذه البقعة المقدسة من الأرض، فسارعت لطمس هوية الشعب العربي، وحاولت طمس ملامح الإرث الحضاري، والديني، والإسلامي على وجه الأرض، فعمدت إلى بناء الكنائس على مقامات الأتقياء والأنبياء في أماكن عدة في هذه المدينة

وتظهر المزارات مدى انتماء أصحابها إلى هذه الأرض، فلقد استشهدوا، وتتضح صلات القرابة بين بعض أصحاب الأضرحة، ويلاحظ أيضاً تعدد الأضرحة في المقام الواحد أحياناً.

وقد يختلط على المرء المزار مع المسجد، لأن بعض المساجد أقيمت بجوار الأضرحة واشتهرت هذه المساجد منذ فترة بعيدة.

والمدينة قلعة منيعة هاجمها الصليبيون، وعاثوا فيها فساداً وخراباً، وخلصها صلاح الدين من رجسهم، وما أضرحة الأتقياء، وقادة صلاح الدين إلاّ منارة تضيء المدينة صباح مساء تذكرنا بعظمة المدينة، وستبقى هذه الأضرحة والمزارات في هذه المدينة الباسلة شاهداً على عظمة المدينة.

خاتمة:

انتشرت المزارات والمقامات في مدينة نابلس سهولها وجبالها، وتربعت قمم الجبال وسفوحها، وأخذت مكانها كخط أول للدفاع عن المدينة وسكانها. وكانت هذه المزارات منبراً لتعليم الدين وملجأ للتصوف والتعبد.

ويكرم سكان مدينة نابلس هؤلاء الاتقياء الذين أقاموا في هذه المدينة، بتقديم النذور، ويتقرّبون إليهم بالدعوات، ويضيئون مزاراتهم، ويقيمون الاحتفالات بالطبول عند تلك المقامات.

وتؤرخ المقامات والمزارات لحقب تاريخية، وترتبط بهوية هذا الشعب وبالامّة العربيّة والاسلاميّة برباط الهموم والمشاعر المشتركة، فهذه المزارات لأتقياء ضحوا بدمائهم، وأفنوا عمرهم في هذه البلاد، وهم من منابت شتى.

ويتضح صراع الحضارات في المقامات والمزارات، فلقد عاث الصليبيون فساداً، وحاولوا تغيير المعالم وطمسها، وتعدّ المقامات دليلاً واضحاً على قدسية المدينة وأهميتها.

النتائج والتوصيات:

من أبرز النتائج التي توصل إليها البحث:

١. تتوزع المزارات على رؤوس الجبال وسفوحها.

٢. وأغلب أصحاب المزارات مجاهدون أتقياء واكبوا القائد صلاح الدين ، لذا كانت شعارات القتال والجهاد ملازمة لمقاماتهم

٣. ويغلب على المزارات في نابلس وجود ضريح أو أضرحة فيها، وقسم منها يخلو من ذلك.

٤. يزيد عدد المزارات على ثلاثين مزاراً، والتبست التسميات بفعل عوامل طمس الهوية الحضارية.

٥. تظهر المزارات أهمية المدينة دينياً، وتظهر قداستها إذ توالى عليها القادة وسكنوها ودافعوا عنها.

٦. أقيم قسم من المساجد في مدينة نابلس بجانب ضريح أو مزار، وسميت بعض المساجد بأسماء أصحاب هذه الأضرحة.

٧. تقرّب السكان لزمن قريب إلى أصحاب المقامات والمزارات بإشعال السروج وتقديم النذور.

٨. أثَّر زلزال ١٩٢٧م على المقامات والمزارات، وهدّم جزءا منها.

٩. تكشف المزارات عن علاقة وثيقة بين بغداد ونابلس التي حررها صلاح الدين، فكثير من أصحاب المزارات والمقامات دفنوا في بغداد ومقاماتهم في نابلس.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. آمال عزت السجدي: بلدية نابلس القديمة في صور قبل الاجتياح الاسرائيلي في نيسان عام ٢٠٠٢م وبعده، نابلس، المكتبة الوطنية،٢٠٠٢م.

٣. إحسان النمر: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، نابلس، مطبعة جمعية المطابع التعاونية، نابلس، ١٣٩٥ه،١٩٧٥م.

٤. أحمد عبد الرحمن حمودة وآخرون: موسوعة المدن الفلسطينية، ط١، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٠.

٥. أحمد المرعشلي وآخرون: الموسوعة الفلسطينية،ط١، دمشق،١٩٨٤م.

٦. بورشاد: وصف الأرض المقدسة،ترجمة سعيد البيشاوي، مراجعة وتدقيق مصطفى الحياري، عمان، دار الشرق، د.ث.

٧. تحرير خليل عوده ومحمود عطا الله: نابلس بين الماضي والحاضر، جامعة النجاح الوطنية، مركز التخطيط والتوثيق،١٩٩٩م.

٨. توفيق كنعان: الأولياء والكزارات الاسلامية في فلسطين، ترجمة نمر سرحان، فلسطين، منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية، ١٩٨٨.

٩. رئيسة عبد الفتاح طلب العزة: نابلس في العصر المملوكي(٦٤٨ه-٩٢٣ه)، ط١، نابلس، دار الفاروق للثقافة،١٩٩٩م.

١٠. زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ط١، مطبعة الرسالة، ١٣٥٧هـ، ١٩٣٨م.

١١. عبد الغني النابلسي: رحلتي إلى القدس،مكتبة القاهرة، ١٩٠٢م.

١٢. أبو العلا عفيفي: في التصوف الإسلامي وتاريخه، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م

١٣. سعيد البيشاوي: نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية خلال الحروب الصليبية، عمان، المكتبة الوطنية، د.ت.

١٤. كامل العسلي: بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين،عمان، المكتبة الوطنية، ١٩٩٢م.

١٥. محمد الحافظ النقر: تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي،ط١، عمان، دارالبداية، ٢٠٠٦م.

١٦. محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الكاتب: ولاية بيروت، دراسة وتحقيق: زهير عبد اللطيف غنايم وآخرون، فلسطين، المكتبة الوطنية، ٢٠٠٠م.

١٧. مسلم الحلو: قصة مدينة نابلس(سلسلة المدن الفلسطينية) ط٣، د.ث.

١٨. ابن منظور: اللسان،ط٢، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧م.

١٩. مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين. ط٤، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٨م.

٢٠. نبيل الأغا: مدائن فلسطين، ط١، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان دار فارس، ١٩٩٣م.

٢١. نمر سرحان: المباني الكنعانية في فلسطين،ط١ عمان، دار الكرمل للنشر، ١٩٨٨م.

٢٢. وزارة الاعلام ، مؤتمر القدس،ط١، القدس مؤسسة إحياء التراث والبحوث الاسلاميّة، ٢٠١٠م.

٢٣. وليد محمد الكيلاني: لوحات شعرية من التراث النابلسي، ط٤، نابلس، شركة ألوان، ٢٠٠٧م.

الأبحاث والدراسات:

١. جبر خضير البيتاوي: المقامات والمزارات في نابلس بين الموروث الديني والتراثي، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠١١م.

٢. ختام محمد ذيب مطاوع: لواء نابلس في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين السادس والسابع الميلاديين، إشراف د.محمود علي عطا الله، رسالة ماجستير فلسطين، جامعة النجاح الوطنية، ١٤١٨ه، ١٩٩٨م.

٣. رئيسة عبد الفتاح طلب العزة: نابلس في العصر المملوكي ٦٤٨-٩٢٣هـ (١٢٥٠-١٥١٧م) رسالة ماجستير، اشراف: د.نعمان جبران، الاردن، جامعة اليرموك، ١٩٩٥م.

الجلسة الثانية

المحور الثاني: التراث الشعبي الفلسطيني وتجلياته في محافظة نابلس

- أدب الأمثال الشعبية في المأكولات النابلسية.

د. زهير إبراهيم

- التراث السامري في نابلس.

أ. اسحاق السامري

- الأغنية الشعبية النابلسية.

د. عبد الرؤوف خريوش ، م. طاهر باكير

- الحناء في التراث الشعبي الفلسطيني (نابلس نموذجاً).

د. طالب الصوافي

- الحكاية الشعبية النابلسية.

أ. سرفناس حمد

- واقع المصنوعات القشية الشعبية التراثية بين الأصالة أوالانتماء والطمس والاندثار.

د. إدريس جرادات

- طقوس الحمامات الشعبية في مدينة نابلس.

أ. رائدة عيسى

جامعة القدس المفتوحة

أدب الأمثال الشعبية في المأكولات النابلسية

د. زهير إبراهيم*

* أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها/ غير متفرغ بجامعة القدس المفتوحة/ فرع نابلس.

أدب الأمثال الشعبية في المأكولات النابلسية

تناول البحث الموسوم بـ (**أدب الأمثال الشعبية في المأكولات النابلسية**) جانباً من الفولكلور القولي المتمثل بالأمثال التي يتداولها النابلسيون في مأكولاتهم.

ترجع أهمية البحث لكونه مرتبطاً بالهوية والخصوصية التي تتجلى في شريحة من المجتمع الفلسطيني، وما ينطبق عليهم يسري على أهل فلسطين بعامة فالتاريخ والنضال يجمعهم سوياً في أفراحهم وأتراحهم ومأكولاتهم، حيث الإنسان الفلسطيني بوصفه حاملاً للثقافة في تفكيره أو شعوره أو تصرفاته لسلطة المجتمع والتراث التي تنتقل اجتماعياً من الآباء إلى الأبناء .

سار هذا البحث على المنهج الوصفي والاستقرائي لما يتداوله النابلسيون من أمثال يرددونها في مأكولاتهم، حيث يعبر المثل عن حياة الفرد فوق أرضه وسط بيئة معينة، فهو المرآة التي يُرى ما بداخلها، وتكشف عمّا حولها؛ وبناء عله فهو كنز من التجارب الإنسانية التي مرت من قديم الزمان ومن خلال حوادث ومواقف استطاع العقل البشري أن يصوغها في جمل قصيرة ومكثفة، وبذلك فهو قيمة خلقية مصطلح على قبولها في شعبها، يتناولها الناس عندما يعيد الزمان نفسه وبشكل مختلف ، بينما الوقائع التي قيلت فيها يعيشها الناس في أي حقبة من الزمن.

لقد عالج البحث مصادر الأمثال الشعبية، وخصائصها، وفوائدها، وأنواعها، ومصادرها، وصلتها بالمأكولات الشعبية النابلسية التي من أهمها الكنافة، والمطبق، والعوامة، والمقلوبة، والمسخن، والمحاشي، والعكوب، والمسقعة، واليلنجي، والششبرك، وعرض البحث لمجموعة من الأمثال ذات الدلالة في المأكولات الشعبية وتوصل البحث إلى أن الأمثال الشعبية وثيقة تاريخية واجتماعية، وأنها المرآة التي تعكس ما بداخلها وتكشف عمّا حولها وكل ما يمت إليها بصلة من عادات وتقاليد وقيم وتاريخ.

مقدمة :

المثل الشعبي في معظم الحالات تعبير عن نتاج تجربة شعبية طويلة تخلص إلى عبرة وحكمة، وتؤسس على هذه الخبرة الحضّ على سلوك معين، أو التنبية من سلوك معيّن. والأمثال أشبه بالرواية الشعبية حيث يقصّ قصة موجزة فيسهم في تكوين وجدان الطفل حين يلقنه أركان الحكمة الشعبية ومعارج السلوك المستحبة. ومجموعة الأمثال الشعبية، على تنافر بعضها في كثير من الحالات، تكوّن ملامح فكر شعبي ذي سمات ومعايير خاصة، فهي إذن جزء مهم من ملامح الشعب وقسماته وأسلوب عيشه ومعتقده ومعاييره الأخلاقية.

والمثل جملة مفيدة موجزة متوارثة مشافهة من جيل إلى جيل. وهو جملةٌ محكمة البناء بليغة العبارة، شائعة الاستعمال عند مختلف الطبقات. وإذ يلخص المثل قصة عناءٍ سابق وخبرة غابرة اختبرتها الجماعة فقد حظي عند الناس بثقة تامة، فصدّقوه لأنه يهدي إلى حل مشكلة قائمة بخبرة مكتسبة من مشكلة قديمة انتهت إلى عبرةٍ لا تنسى، وقد قيلت هذه العبارة في جملة موجزة قد تغني عن رواية ما جرى.

والمثل ليس مجرد شكل من أشكال الفنون الشعبية، وإنما هو عملٌ كلاميٌ يستحث قوةً ما على التحرك، ويعتقد قائل المثل أنه يؤثر أعظم الأثر في مسار الأمور وفي سلوك الناس. فالمعنى والغاية يجتمعان في كل أمثال العالم وهي، وإن اختلفت في تركيب جملها أو في اصطلاحها أو مدلول حكمتها أو سخريتها، كتابُ ضخم يتصفح فيه القارئ أخلاق الأمة وعبقريتها وفطنتها وروحها.

والمثل الشعبي الفلسطيني بعامة والنابلسي بخاصة يعبّر أصدق تعبير عن حياتهم فوق أرضهم الممتدة من البحر إلى النهر، ومن الصحراء إلى الجليل، وسط بيئات مختلفة حسب الموضع الجغرافي، فهناك البيئات البحرية، الداخلية، الجبلية، والصحراوية، لذلك فإن التعدد والتنوع نتاج جغرافيا المكان والتطور التاريخي، مما يؤدي في بعض الأحيان إلى تباين بالمفاهيم من منطقة إلى أخرى، ولا يلغي هذا الاختلاف البسيط وحدة المفاهيم التي قام عليها المثل الشعبي لأنه المرآة التي ترى ما بداخلها وتكشف ما حولها وكل ما يمت بصلة إليها[1].

الأمثال الشعبية:

تستمد الأمثال الشعبية من عدة مصادر

فمنها ما استمد من حكاية أو نكتة شعبية: ((مثل مسمار جحا)) ((بين حانا ومانا ضاعت لحانا))، وقد يستعمل المثل بين الناس ولا يعرف كل من يستعمله تفاصيل الحكاية أو الحادثة التي وراءه، وإنما يتعاملون مع الإيحاء العام لعبارته، مثل: ((صيف وشتا على سطح واحد.. كيف بيصير؟)) أو ((شو عرفك شو تحت ذيلها؟)) أو ((اللي بعرف بعرف واللي ما بعرف بقول كف عدس))، أو ((مثل قصة الحية)).

وتنوع الأمثال الشعبية وفق ما يلي:

١. ما اقتبس عن الفصحى بنصه أو بشيء من التغيير الطفيف: ((وافق شن طبقه)) ((دوام الحال من المحال)) ((الساكت عن الحق ناطق بالباطل)) و((ما ساقطة إلاّ وراها لاقطة)) عن ((لكل ساقطة لاقطة)) أو ((الموت ولا الذليّة)) عن ((المنية ولا الدنية)).

٢. ما استمد من التراث الأدبي الشعبي مثل: ((سيرة عنترة)) أو ((تغريبة بني هلال)) وغيرهما: ((عنتر أسود وصيته أبيض))، ((ما عيك يا ذياب من غانم))، ((كثر الهم بقتل يا سلامة أما فضاوة البال بتقوي العزايم)).

٣. المستمد من الأغاني الشعبية: ((عيشة بالذل ما نرضى بها))، ((دبرها يا مستر بل بلكي على يدك بتحل))، ((كلمة يا ريت ما بتعمر بيت)).

٤. ومن الأمثال ما هو عصارة ملاحظة الطبيعة والمعرفة الجغرافية المناخية والزراعية ((آذار أبو الزلازل والأمطار))، ((ظل الحجر ولا ظل الشجرة))، ((إن غيمت باكر احمل عصاتك وسافر وإن غيمت عشية شو فلك مغارة دفية)).

٥. وهناك أمثال تحمل بصمات معتقدات قديمة جداً، مما يشير إلى قدم هذا التراث الذي وصلنا، مثل ((خطية القط ما بتنط)) أو ((كل بالدين ولا تشتغل يوم الاثنين))[٢].

تعريف المثل الشعبي:

والمثل في قول الفارابي: هو ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم وقنعوا به في السرّاء والضراء، ووصلوا به إلى المطالب القصية، وهو أبلغ الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص، ولذا فالمثل قيمة خلقية مصطلح على قبولها في شعبها، وهو يمرّ قبل اعتماده وشيوعه في غربال معايير هذا الشعب، وينم صراحةً أو ضمناً عن هذه المعايير على كل صعيد وفي كل حال يتعاقب عليها الإنسان في حياته.

والأمثال الشعبية عبارة عن الجمل القصيرة والعبارات المختصرة التي تشبه القصة القصيرة وتتحدث عن تجربة معينة مر بها أشخاص في زمن معين، يتناولها الناس عندما يعيد الزمن نفسه على شكل مختلف من الناس بينما الوقائع التي قيلت فيها هذه الأمثال نعيشها في أي حقبة من الزمن[٣].

وهي كنز من التجارب الإنسانية التي مرت على المجتمعات من قديم الزمان من خلال حوادث ومواقف استطاع العقل البشري أن يصوغها بجمل قصيرة ومكثفة الفكرة تنم عن استيعاب الإنسان لهذه الحالة وإدراكها والفطنة لها ثم صياغتها بطريقة أدبية وبلاغية.

وهي إحدى الخصوصيات الثقافية التي يتسم بها شعب من الشعوب وقد ينفرد شعب ما بترديد مجموعة منها وقد يشترك فيها مع غيره من الشعوب مع وجود اختلافات بسيطة كل حسب أسلوبه ولهجته[٤].

خصائص الأمثال الشعبية:

امتازت الأمثال الشعبية بخصائص عامة في بنيتها اللغوية والمعرفية ومنها:

١. أصالتها: فهي عربية المنشأ، مع أنها ليست بلفظها الفصيح، ذلك لتعلق الشعب بالقيم والأخلاق العربية الأصلية حيث اكتسبت وتكتسب محتواها تاريخياً واجتماعياً، وأخذوا بعضها بلفظه،أو بمعانيه من الدين الإسلامي الحنيف أو من الأدب العربي القديم(٥).

٢. واقعيتها: فهي تمتاز بواقعيتها التي أفضتها السيرورة في ما بينهم، ذلك لتميز الحياة المجتمعية الريفية العربية عموماً بالواقعية.

٣. بلاغتها: كما تمتاز أمثلتهم بإيجاز اللفظ وتركيزه، وبإصابة المعنى ودقته وبُعد المغزى.

٤. موسيقاها: لا تخلو الأمثال من الرشاقة اللفظية، ففيها جرس موسيقى وتناغم بين ألفاظها وتناسق بين الجمل، وتجانس بين الأحرف، والجمل والتراكيب، وتأتي موسيقا الأمثال إما على السجع والفاصل، أو من اختيارهم للأحرف المتجانسة ضمن الكلمات، والكلمات المتوافقة ضمن الجمل، كما تميز بالتوازن فانقسم المثل إلى شطرين متوازنين مما جعل للجمل إيقاعاً مناسباً فيزيد من جمالية ذلك السجع(٦).

٥. أغراضها: تعكس بصدق، مشاعر الشعب وأحاسيسه، وآماله وآلامه، وأفراحه، وتفكيره، وفلسفته، وحكمته، ومن خلالها نستكشف آراءه في مختلف شؤون الحياة وموقفه منها ونظرته إلى الكون،وتفسيره لظاهراته. ((ابنك صغير ربيه وإن كبر خاوية))، ومن هذه الأمثال ما هو مبني حول قصة واقعية أو حادثة معروفة في التاريخ، وهناك أمثال كثيرة بنيت على خرافة أو أسطورة أو حكاية من حكايات العامة.

٦. وهناك من يصنف الأمثال وفقاً للغة التي وصلت إلينا بها (فصحى أو عامية) أو وفق الغرض الذي قيلت من أجله (علمي، ديني، سياسي، اجتماعي، اقتصادي...)، أو مبني على أخلاقيات وضوابط اجتماعية تدفع بأفراد المجتمع لاتباعها لأن فيها الحكمة والنجاة والربح، وهي أحد وأعظم الأساليب التربوية المتبعة في التعليم والتي ترسم بمجموعها صورة في الوجدان الشعبي(٧).

٧. جاء كل منها جواباً للشرط، أو جواباً لسؤال طرحه على نفسه.

٨. امتاز كثير منها بالجناس.

٩. اشتراك بالتعبير المجازي حيث وضع علاقات مفهومية مع قرائن مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، تطلبتها جمالية الصوغ الفني، والذوق السليم.

١٠. غالباً ما تميزت الأمثال الشعبية بطول العبارة، وسهولة اللفظ، ووضوح التعبير، وحشمة المقصد. والابتعاد عما يجرح المشاعر ويثير الأهواء والغرائز.

فوائد الأمثال الشعبية:

تعد الأمثال بجزأيها الفصيح والعامي كنزاً نفيساً وجانباً مهماً من التراث والإرث العربي الأصيل، وإذا علمنا ما يحمله المثل من أبعاد فكرية ودينية واجتماعية وتاريخية وغيرها، ثم أدركنا ما يتضمنه المثل من صدق خالص ومصداقية بالغة فيما يتحدث عنه أو فيما يشير إليه، فإننا لن نجانب الحق إذا ما اعتبرناه وعددناه جزءاً مهماً من تاريخ هذه الأمة المجيدة وفكرها.

ولا يأت المثل إلا من صادق في ساعة صدق، ولا يلده إلا حدث مهم، ومن ثم يأتينا في قول بليغ موجز، ولكون المثل أيضاً لا يخرج إلا ثمرة تجربة، وترجمة انطباع صادق، فقد صار واحداً من أهم المصادر وأوثقها في كل ما يتضمنه من مواعظ وعبر وأخبار، وفي كل ما نجد فيه من علوم كل منها في بابه، وهذه قيمة أخرى عظيمة للمثل، ولا شك بأن مستوى إدراك هذه القيمة يتفاوت تبعاً لما يتمتع به المرء من مستوى ذهني وفطنة ونباهة، ولا شك أيضاً أن تلك القيمة تتفاوت من مثل لآخر، إلا أنه لاشك بأن الإنسان العادي المتمعن لن يفوته ما في المثل من صدق وما فيه من مصداقية وحكم وعبر وما فيه من فوائد أخرى كثيرة.

وهناك خصائص لتركيب الأمثال منها: سهولة اكتنازها في الذاكرة، وسهولة تلقين المثل إلى المجتمع ليعيده ويكرره، ومن أفضل دراسات الأدب الشعبية والأمثال منها بصفة خاصة، **ويمكن تلخيص أهمية الأمثال في النقاط الخمس الآتية:**

١. تتحدث الأمثال عن سعادة من يتداولها وعن شقائهم وعن الغني والفقر وعن الشرف والخزي وعن الجمال والقبح والقوة والضعف والعظمة والوضاعة.

٢. تلقي الأمثال الدرس بأسلوب من المرح الحاذق وهي مليئة بكنوز من الأحكام السليمة والحكمة العملية والفوائد والمشاركة العاطفية ثم السخرية اللاذعة الذكية.

٣. تريح الأمثال من الناحية العملية النفس وتسخر وتمدح ثم تهزل في الوقت الذي تتضمن فيه أفكاراً جديدة.

٤. تتكرر الأمثال نفسها عن شعوب العالم المختلفة وإن لم يعبر عنها من الناحية الشكلية بالألفاظ نفسها.

٥. تستقبح الأمثال الرذيلة وتعلي من شأن الفضيلة فهي بهذه الصفات ذات قيمة تهذيبية[٨]، ومن هنا لا بد أن نكون قد عرفنا ما للأمثال من أهمية كبرى من الناحية البلاغية والحضارية والتربوية والجمالية وغيرها، فمن الناحية البلاغية يقول عبد القاهر الجرجاني: واعلم أن ما اتفق عليه العقلاء أن التمثيل إذا ما جاء في اعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها ابهة ولبسها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعت قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا»[٩].

أنواع الأمثال الشعبية:

١. المثل الوصفي: وهو يعبر عن مواقف تتشابه في ظروفها مع حالة سابقة بهدف أخذ العبرة والاقتداء مثل ((على نفسها جنت براكش)) ((اللي بدري بدري واللي ما بدري بقول كف عدس)).

٢. المثل الحكمة: وهو عبارة عن قول أو تعبير عن موقف اتفق المجتمع على صحته مثل ((اللي بطلع من داره بقل مقداره)) ((اللي بدلل على بضاعته بترخصص)).

٣. المثل الكناية: وهو وصف يوافق عادات المجتمع ومعتقداته ويعبر عن مواقف بجملة مختصرة مثل: ((الموت بين الناس نعاس))، ((أنا وأخوي على ابن عمي وأنا وابن عمي عالغريب)).

مصادر المأكولات الشعبية:

الأكل الشعبي يتخذ مادته من خيرات البلد التي تعتمد على الزراعة والرعي ونبات البر وحيواناته، حيث تتنوع المنتجات الزراعية والحيوانية، نجد هناك تنوع تنوعاً في قائمة الأكلات الشعبية وظهور أكلات يظهر فيها طابع الرفاه، بينما تتميز أكلات السكان في أقصى جنوب فلسطين وجنوبها الشرقي بأنها تعتمد على المصدر شبه الوحيد للحياة وهو الألبان ولحوم الماشية والحبوب.

وهناك أكلات المناسبات والتي تتسم بأنها أكلات احتفالية وغنية بموادها مثل أكلات الضيافة، الولادة، الزواج، الوفاة، الطهور، ...الخ.

وفي الحديث عن الأكل الشعبي عند الفلسطينيين بعامة وأهالي نابلس بخاصة فإننا نتوخى أن نبرز الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي أثرت على وسائل مصادر قوت

الشعب، ويجدر بنا أن نبين طعام المدن والقرى، فهناك فجوة كبيرة بين الأكلات الشائعة في المحيطين: محيط المدينة ومحيط القرى، ويرجع ذلك إلى أن المدينة الفلسطينية شأنها شأن المدينة في كل مكان من الأرض العربية كانت مقاماً للمجموعات العسكرية التركية من أكراد، ارناؤوط، ومغاربة، وكانت هذه المجموعات فضلاً عن أنها ذات مستوى معيشي مرتفع بالنسبة للسكان المحليين الفقراء فإنها أيضاً نقلت معها أكلات أجنبية.

صلة الأمثال الشعبية بالمأكولات الشعبية النابلسية:

تتعدد المأكولات والحلويات النابلسية المشهورة[١٠] فمن المأكولات: قرص الثوم، المقلوبة، اللفت المحشي، اللخنة الخضراء، المطفيّة، المشاط، ورق الدوالي، العكوب، اليلنجي، المحاشي، المسقعة، ومن الحلويات: التمرية، الكنافة، الفطير، الكلاج، المدلوقة، البقلاوة، العوّامة،خدود الست، شفايف الست، حلاوة القرع، الزلابية

المأكولات النابلسية والأمثال الشعبية:

إن المثل الشعبي سمفونية عامية تختزل التجارب، وبوسعها تخزينها، وبالتالي تمتلك القدرة في صياغة الممارسة الشعبية والسلوك الشعبي التلقائي.

وثاني هذه الخواطر هي الطعام، وهو فرع آخر من فروع التراث الشعبي المادية، وهو غنّي بإمكانات كل حركة من حركاته، من لحظة تجهيزه إلى لحظات استهلاكه، فلم يعد الطعام ضرورة حياتية تقتضيها الحاجة البيولوجية فقط «بل إن كل خطوة يعالج بها الطعام من بداية إنتاجه حتى استهلاكه، والعمليات اللاحقة المرتبطة به، والمترتبة عليه، تخضع لقوانين وعادات وتقاليد وآداب وأعراف كلها موروثة اجتماعياً، يفهمها أبناء المجتمع ويستعملونها لتبادل المعاني ولتنظيم العلاقات الاجتماعية بينهم[١١].

إن الممارسة اليومية لفعل ((الأكل)) والسيرورة والانتشار التي تتميز بها الأمثال، جعلت منها أداة جاهزة طيعة، سهلة الاستعمال، في أيدي الناس، يستخدمونها للتعبير، والتصوير، وللضبط، وللإعلام، وإن هذه الأمثال بما تكتنفه من دلالات ومعان هي صورة من صور اللغة المنعكسة من تفاعل الإنسان في بيئته وبالتالي لها القدرة في اكتساب دلالات جديدة، وفي بناء هذه الدلالات بشكل تراكمي «فالألفاظ تعيش مع الناس، تنتقل من جيل لآخر، وهي بانتقالها تكتسب دلالات اجتماعية يتعارف الناس عليها، فقد يتسع مدلولها وقد يضيق ويتخصص[١٢].

الإفرازات الاقتصادية:

عند التأمل في الأمثال التي يمكنها أن تمثل الإفراز الاقتصادي، يمكن أن نصنفها في مجالين:

- الأول: يلوذ بحياة مزدهرة ، ووضع اجتماعي عال، ويصور التنعم والتلذذ في الغذاء المتوفر، والمتنوع للفئة الغنية من أهالي نابلس، ومن هذا القبيل نتلمس هذه الحياة الوردية التي يحيونها ((لحمته مرتبة)) أو فلان ((بوكل لوز وسكر))،وعند التحليل يمكننا القول إن في المثل الأول مادة غذائية ((اللحمة)) عنوان الضيافة، وعنوان الكرم، وتتأتى هذه القيمة للحم من ذاتها أولاً، علاوة على ارتباطها بأهل المنزلة العالية اقتصادياً واجتماعياً، وهذا نابع من توفرها لديهم، ومن طريقة إعدادها سلقاً، قلياً شوياً، طبخاً...إلخ، وفي تقديري فإن ((اللوز والسكر)) وهو ليس غذاء تقليدي أي غير معترف به شعبياً، فإن قيمته تتأتى من المعنى، أو الصورة البلاغية – إن صح التعبير– في مزج اللوز الحلو الرائع المذاق، بالسكر، وهذا معنى من المعاني أقرب من أن يكون مادة يمكن استخدامها أو أكلها أو تقديمها لضيف.
- الثاني: تصوير النقيض للفئة الكادحة من أهالي نابلس، ورسم صورة لحياة البؤس والشقاء والحرمان، ((فلان جوعاته أكثر من شبعاته))، ((ضيف المسا مالو عشا))، نص البطن بغني عن ملاته))، ((العدس ولا الفلس))،((أقل الزاد بوصل لبلاد)) تداعيات أقرب إلى الجوع، وتكاد تتلامس مع مفاهيم الفقر المدقع، وهذه لم تأت من فراغ، بل إنها شهادات حية لممارسات معاناة عاشها وعايشها الناس.

القيم الاجتماعية والآداب والسلوك:

إن مدى تأثير الجانب الاقتصادي، أو الحتمية الاقتصادية التي فسّر بها النابلسيون وصورتها أمثالهم، في ترسيم القيم، ووضع المعايير، وصياغة قوانين الآداب، وتعبيد طرائق السلوك، وعندما نتحدث عن هذا التأثير فإننا– بلا شك– نتطرق إلى الشخصية النابلسية المتأثرة، وإلى وعي هذه الشخصية وتفعيل آليات إدراكها للسياق الاجتماعي وبالتالي مخرجات هذا التفاعل، وفي وعي هذه الشخصية وتفعيل آليات إدراكها للسياق الاجتماعي وبالتالي مخرجات هذا التفاعل، ويكشف هذا البحث عن الأمثال كأحد الإفرازات الاجتماعية والمرتبطة بالسلوكات، وهنا تتكفل بوظيفة الوصف، وقد تتعاظم هذه الوظيفة وتتكاثف لتصبح الدافع لممارسة اجتماعية ما في سياق اجتماعي ما، ومن الأمثال التي أخذت على عاتقها الوصف، ((كبير البطن برضيه الطعام، وقليل العقل برضيه الكلام))، وهنا تشخيص حال مريضين، أحدهما جسدي، والثاني عقلي، وعرض لعلاجين، وقريب من

هذا الغرض ((لحم كلاب بملوخية)) في حال التكنية أو وصف حالة شاذة غريبة، ((ويوم عسل ويوم بصل)) وصف للمراوحة بين الرخاء والشدة(١٣).

قدسية الطعام:

تنبع هذه الخاصية من أكثر من مصدر، ولعل أهم هذه المصادر مايمكن أن ينطبق عليه((الملامسة)) وتتجلى هذه الملامسة، من علاقة الطعام في المكان الذي أنتج فيه أو استهلك فيه، فعندما تذبح الذبائح في مقامات الأولياء تلبية للوفاء بنذر ما، وتؤكل لحوم هذه الذبائح، وقد يتصدق بجزء من لحمها، إن المكان في هذه الحالة قد لعب دوراً أساسياً في إكساب الطعام حرمته وقدسيته.

وقد تتجلى الملامسة من الزمان، فالفترة الزمنية أو الموسم عند النابلسي هو الكفيل بإكساب الطعام حمته وقدسيته، ويمثل ذلك ما أعد من طعام في المولد الشعبي حيث تتقدس حبات الحمص، أو الشعير أو الملح أو الأرز ((حمص المولد))، ((شعير المولد))، و((كعك العيد)) مثال آخر حيث يصنع في مناسبة حلول الأعياد، ويقدم في المناسبة نفسها.

ولعل في الندرة –أحياناً– أو عدم توافر الصنف المتطلب الغذائي الحياتي سبباً وجيهاً لصبغه بصبغة دينية، ومن الجدير ذكره أن تتأسس الندرة على الفاقة والفقر، تظهر هذه القدسية في علاقة الإنسان الفلسطيني مع الخبز، فما أن يجد كسرات منه مرمية على الأرض، إلا والتقطها، وقبلها، قائلاً ((حيشاك يا مصحف الله))، ومن ثم يركنها جانباً بعيداً عن أقدام الناس، وتتعاظم هذه النظرة للخبز، وتتعاظم قدسيته لدرجة تأهيله كي يكون ملائماً للحلف عله، وتأكيد القسم عليه، فالخبز في ثقافة النابلسي وفكره أصبح له قداسة فهو في نظرهم ختمة أو مصحف يقسم عليه عامة الناس مؤكدين صحة نياتهم أو براءتهم قائلين ((وحياة هالعيش)) أو ((وحياة هالنعمة)) فالخبز في الوجدان الشعبي علاوة على قيمته الاقتصادية والوظيفية البيولوجية اليومية، فإنه يكتسب أيضاً قيمة دينية(١٤).

وتوجيه ذلك اعتقاد النابلسي الديني الراسخ بأن الأكل نعمة من الله سبحانه وتعالى، وأن هذه النعمة ستزول أن لم يصنها الإنسان بالشكر والعناية بها، وعدم تركها تداس بالأقدام، وعلى النقيض من ذلك فإن الشكر وصيانة النعمة كفيل بزيادتها وتعميمها في المجتمع، ولذلك فهم يقولون ((اللقم ترد النقم)).

ولم تقتصر أدوات الحلف(القسم) على الخبز، بل تعدت ذلك إلى أصناف معيشية أخرى((فقد عظم الناس الملح، وحلفوا به، ولعل هذا ما يفسر تصرف العامة إذا سقط بعض ملحهم على الأرض حيث يجتهدون في التقاطه، وذلك لئلا يعاقبوا يوم القيامه بالتقاطه عن صخور جهنم بأهداب العيون)).

منحى الأوصاف والنعوت:

وظيفة المثل في هذا المنحى، تلخيص موقف يدور حول محور إبراز صفة ما، أو الإفصاح عن حالة أو هيئة ما، وتتعدد الأمثال بتعدد اختلافات المواقف، فمنها الاقتصادي ((إللي بجيابه قطين بوكل بإدية الثنتين)) ويعلق المبيض على هذا المثل قائلاً [١٥]: ((فمن في حوزته قطين فلا عجب أن يأكل بكلتا يديه، وكأنه بهذا يبيح حرية التصرف فيما يملكه الفرد[١٦]، ولكن التوسع في معنى المثل يتيح لنا القول أن صاحبه غني ثري، ويملك الاستطاعة الاقتصادية.

ومنها الأمثال ذات الدلالة الاجتماعية، وتحاور العلاقات الاجتماعية، وتنميها ((إللي بطلب الزاد ما تهابه ...)) إنها دعوة كي لا تقلق إذا انقطع زادك أو نفذ، فما عليك إلا طلبه من الآخرين، وفي ذلك أنت دفعت ((عربون محبة)) لهم، لأنهم لن يهابوك، فأنت شهم، كريم، تستحق الخدمة.

وفي الجانب الاجتماعي السلبي، قالوا ((إللي بوكل عَ ضرسه بنفع نفسه))، وفي ذلك وصف للأنانية، وقالوا ((عرقها يفك مرقها)) وصف لحالة عنوانها البخل، حيث يقدم المضيف لبن الشاة وحليبها للضيف، بدلاً من تقديم لحمها، ولسان حال المضيف يقولون: حليبها يغني عن لحمها[١٧]، ويذم أحد نفسه، أو قل ينخفض تقدير الذات عند أحدهم فيقول ((أنا مثل خبز الشعير مأكول مذموم))، إنه يتحمل كل المسؤوليات ويقوم بكل المهمات، ولكن بلا مقابل، بلا ردة فعل ايجابية، بلا كلمة شكر واحدة، فهو مذموم كخبز الشعير، والشعير مذموم لقلة قيمته الغذائية، في الاعتقاد الشعبي.

وهناك بعض الأمثال لها دلالة في المأكولات الشعبية النابلسية:

- الأكل والشرب ما بيضيعو حقوق: فالصداقة الحميمة وإن تخللها عيش وملح، فإنها لا تؤثر على ما للآخرين من حقوق وذمم ويضرب للفصل بين تكريم الضيوف على الموائد، وبين مالهم من حقوق على المضيف.
- أكل ومرعى وقلة صنعة: فئة في المجتمع تأكل وتشرب عالة على الآخرين ولا تعمل كسائر عباد الله، ويضرب في الخامل الكسلان يمضي وقته ما بين أكل وشرب وتنزه.
- الأكل والهزيمة ما بدهم عزيمة: يضرب في الجبان أو يضرب في الطماع، أو الشره الأكول.

♦ إطعم الثم بتستحي العين: للولائم فعل مستقبلي، وردة فعل من المطعوم، نجد طاعة ومكرمة، وتظهر عند حاجة الأدب للمأدب في خدمة ما، يضرب لتقديم خدمة معينة، أو لسكوت عند مخالفة ونحوها أو للمطالبة بشيء ما.

♦ إطعم المطعوم، ولا تطعم المحروم: يضرب في سهولة التقاطي مع الشخص البعان، الذي خال عزاً قديماً، ونعمة سابقة، فهو يظل أفضل من شخص فقير.

♦ اكلة والوداع: يضرب في وشوك الشيء على الانتهاء كموسم المشمش أو التين ونحوها.

♦ أكل الجزر بيقوي النظر: هذا صحيح فالجزر غني بالفيتامين أ.المفيد للنظر، ويضرب في أهمية الجزر الصحية في تقوية النظر.

♦ أكل خروبة والتوى عرقوبة: عجوز ذاق ما ذاق في شبابه و حان وقت الفراق، يضرب في العجوز الذي عاش حلاوة الحياة، وقد اقترب الأن من خط النهاية.

♦ أكل الرجال على قد أفعالها: يضرب لتبرير شراهة بعض الرجال الذين يقومون بواجب الدفاع عن شرف القبيلة، أو للتعرض بالرجال بالأنذال الذين لا يقدمون ما يقدمه الرجال الأبطال.

♦ أكل الزاد نصيب: تقول العامة (سبحان مقسم الأرزاق)، يضرب لتبرير صرف الطعام على أشخاص مختلفين متنوعين، مختلفين متنوعين، أو يضرب للشيء يقسمه **الله** لمن يشاء.

♦ أكل الزلابية محرم ع الكلاب: يضرب المثل في باب التبجح والتشوف، أو يضرب في البخيل يبرر عدم إطعامه الغير زلابية نظراً لنوعتيها كحلوى، أو يضرب للسخرية والشماتة من أخرين لم ينالوا ما ناله الشامت المتبجح.

♦ الأكل ع قد المحبة: يضرب في المضيف الكريم يشجع ضيفه على تناول المزيد من الطعام، زيادة في تكريمه.

♦ أكل العنب حبة حبة: يلتذ الفلاح كثيراً بفاكهة العنب، ولذا تراه يشجع ولده والآخرين على تناول العنب حبة حبة لإطالة مدة التلذذ بأكل العنب، يضرب لتعليم الآخرين أفضل طريقة في أكل العنب، ـأو يضرب لتعليم الناس أن انجاز الأعمال يتم بتدريج.

♦ أكل فولة ورجع لأصوله: يضرب في الشخص الذي انكشفت أوراقه، فعاد إلى جذوره الأولى.

♦ الأكل في الشبعان خسارة: يضرب للشخص الشبعان، ويحاول ادخال المزيد من الطعام إلى بطنه، فينتقده الأخرون ويقولون المثل، أو يضرب في الشخص الذي لا يستحق الشيء.

♦ أكلك ما جاني ودخانك عماني: يضرب في الذي يعد ولا يفي، أو كالذي يعد بالحسن فيوفي بالسوء.

♦ الأكل مش الك، بطنه مش الك: يضرب للأكول، الهم (الفجعان) بأكل أي طعام يقدم إليه، وإن سبب له ألماً كثيراً أو وجعاً، ويضرب لذم الشراهة، وللتنديد بها وبصاحبها.

♦ أكل المشمش مدحش: يضرب للتحذير من الإكثار من أكل المشمش، لما قد يسببه من أذى.

♦ أكلنا من ثمرها، وقعدنا بفيها: يضرب لتبيان فوائد الشجرة، تمراً وفيئاً.

♦ أكلنا وأكلت كنتنا، والطبخة بعدها بصونيتنا: يضرب في الطعام المبارك، ويكفي الضيوف وأهل البيت، ويضرب على لسان الحماة الفلاحة.

♦ أكل التفاح للملاح: قد يكون التفاح ثمراً عزيزاً في بعض الأقطار، إلا أنه في لبنان يكاد يكون ثمراً شعبياً ويضرب لامتداح مكناة التفاح، ولتودد للحبيب الجميل.

♦ أكل البيضة وتقشيرتها: يضرب في الخسيس، الطماع، بأكل حقوق غيره.

♦ أكلت حلاوة وشربت ماء، فعدني لا أكلت ولا شربت: يضرب في الذي أكل حلاوة، وشرب بعدها ماء فزاولته الحلاوة فقال قولته المشهورة، يضرب للصبر عن شرب الماء ليبقى طعم الحلاوة مدة أطول.

خاتمة:

إن الأمثال الشعبية من أبرز عناصر الثقافة الشعبية، فهي مرآة لطبيعة الناس ومعتقداتهم بصورة عامة وأهالي نابلس بخاصة، لتغلغلها في معظم جوانب حياتهم اليومية، وتعكس المواقف المختلفة، بل تتجاوز ذلك أحياناً لتقدم لهم انموذجاً يُقتدى به في مواقف عديدة، والأمثال تساهم في تشكيل أنماط اتجاهات وقيم المجتمع.

والمثل فن قديم موغل في القدم، وقيل كان نتيجة تجارب وخبرات عميقة لأجيال ماضية، فتناقلها الناس فعملت على توحيد الوجدان والطباع والعادات والمثل العليا، وتعد الأمثال الشعبية حكمة الشعوب وينبوعها الذي لا ينضب عندما نسعى جادين في استخلاص الأمثال ذات الحكم والنصائح الايجابية التي تقوم بدور بناء وفعال في دفع عجلة المجتمع إلى الأمام بإتجاه التطور والبناء، لذلك تعد الأمثال الشعبية وثيقة تاريخية، واجتماعية.

ولا بدّ أن نلاحظ أن المثل الشعبي النابلسي معبر أصدق تعبير عن حياة أهالي نابلس أرضهم، ويتلاقى مع سائر الفلسطينيين، وسط بيئات مختلفة حسب الموضع الجغرافي، فهناك البيئات، البحرية، الداخلية، الجبلية، والصحراوية، لذلك فإن التعدد والتنوع نتاج جغرافيا المكان والتطور التاريخي، مما يؤدي في بعض الأحيان إلى تباين بالمفاهيم من منطقة إلى أخرى، ولا يلغي هذا الاختلاف البسيط وحدة المفاهيم التي قام عليها المثل الشعبي لأنه المرآة التي ترى ما بداخلها وتكشف ما حولها وكل ما يمت إليها بصلة.

الهوامش:

١. عوض، مسعود عوض، دراسات في الفولكلور الفلسطيني، دائرة الإعلام والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، دمشق، ١٩٨٣م.

٢. مجموعة باحثين، دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني، ترمسعيا، إصدار مركز الأبحاث الفلسطيني وجمعية الهلال الأحمر في الكويت، أب١٩٧٣م.

٣. السهلي، محمد توفيق، موسوعة الأمثال الشعبية الفلسطينية، الأقصى للدراسات والترجمة والنشر،٢٠٠٢م.

٤. صفوت، محمد الأمثال الشعبية، مكتبة نصر، ١٩٧٨م.

٥. العتيل،فوزي: بين الفلكلور والثقافة الشعبية، دار الهلال للطبع والنشر،القاهرة، ١٩٧٢م.

٦. الحنفي، محمود أحمد، المجلة الموسيقية، القاهرة، ١٩٣٦م.

٧. العنتيل، فوزي، بين الفلكلور والثقافة الشعبية، دار الهلال للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٢م.

٨. حسونة، خليل، الفولكلور الفلسطيني(دلالات وملامح).

٩. عرنيطة، يسرى جوهرية التراث الشعبي الفلسطيني، منشورات المجتمعي الثقافي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م.

١٠. المصري، مالك فايز نابلسيات، مكتبة خالد بن الوليد، نابلس،ط١٩٩٧،١م،ص:٢٢٥.

١١. المأثورات الشعبية، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان، الأردن، ط١، سنة ١٩٩٦م،ص:١٢٠.

١٢. شريفة، عبد القادر، علم الدلالة والمعجم العربي، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط١، سنة ١٩٨٩م، ص:٥١.

١٣. لوباني، حسين علي، معجم الأمثال، مصدر سابق، ص٦١٧.

١٤. المبيض، سليم عرفات، الحصيدة في التراث الشعبي الفلسطيني، مطابع الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط١، سنة ١٩٩٠م،ص١٧.

١٥. المبيض، سليم عرفات، الحصيدة في التراث الشعبي الفلسطيني، مطابع الهيئة العامة المصرية للكتاب،ط١،سنة ١٩٩٠م،ص١٧.

١٦. جبر، يحيى، الملح في التراث الشعبي، المأثورات الشعبية، مركز التراث الشعبي لدول الخليج، قطر، الدوحة، سنة ١٩٩٥م،عدد٢٢.

١٧. المصدر نفسه، ص٢٤٠.

المصادر والمراجع:

١. جبر، يحيى، الملح في التراث الشعبي، المأثورات الشعبية، مركز التراث الشعبي لدول الخليج، قطر، الدوحة، سنة ١٩٩٥م، عدد٢٢.

٢. الحنفي، محمود أحمد، المجلة الموسيقية، القاهرة، ١٩٣٦م.

٣. الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، الجزء الأول والثاني، بيروت، ١٩٦٥م.

٤. السهلي، محمد توفيق، موسوعة الأمثال الشعبية الفلسطينية، الأقصى للدراسات والترجمة والنشر، ٢٠٠٢م.

٥. شريفة، عبد القادر، علم الدلالة والمعجم العربي، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط١، سنة ١٩٨٩م،ص٥١.

٦. صفوت، محمد، الأمثال الشعبية، مكتبة نصر، ١٩٧٨م.

٧. عرنيطة، يسري جوهرية، الفنون الشعبية في فلسطين، منشورات المجمع الثقافي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م.

٨. العنتيل، فوزي، بين الفلوكلور والثقافة الشعبية، دار الهلال للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٢م.

٩. عوض مسعود عوض، دراسات في الفلولكلور الفلسطيني، رائدة الإعلام والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، دمشق، ١٩٨٣م.

١٠. المصري، مالك فايز، نابلسيات، مكتبة خالد بن الوليد، ط١، ١٩٩٧م،ص:٢٢٥.

١١. المبيض، سليم عرفات، الجغرافيا الفلكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

١٢. مجموعة باحثين، دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني، ترمسعيا، إصدار مركز الأبحاث الفلسطيني وجمعية الهلال الأحمر في الكويت، أب،١٩٧٣م.

التراث السامري
في نابلس

أ. إسحاق السامري*

* سكرتير الطائفة السامرية/ جبل جرزيم/ نابلس.

التراث السامري في نابلس

يعيش السامريون في نابلس منذ ما يزيد على قرن من الزمان، حيث تربطهم علاقة تاريخية ودينية مع الأراضي المقدسة، وبخاصة في نابلس حيث إنها إحدى وصايا سيدنا يعقوب عليه السلام لولده يوسف الصديق حيث ذكرت التوراة المقدسة وإنني أعطيت لك شكيم حصة على إخوانك، وهذا الارتباط الوثيق للسامريين بمدينة نابلس جعلهم يقومون ببعض العادات والتقاليد التي يمارسها سكان المدينة، **إضافة إلى إيمانهم الديني بهذه العادات ومن ضمنها**:

أولاً ـ عادات الزواج:

حيث إن تراث الزواج عند السامريين يتبع في مراحل عدة وأولها توجه جاهة من كهنة ورجالات الطائفة وشخصيات من مدينة نابلس برفقة عائلة الشخص الراغب بالزواج إلى منزل الفتاة المراد خطبتها، ثم يتم طلب يدها بطقوس تبدأ بقراءة الفاتحة باللغة السامرية حيث يتم بعد ذلك حفل عقد القران، والذي يتم بدعوة أبناء الطائفة إلى مكان يحدده والد العريس إضافة إلى دعوة أصدقاء من المدينة يرتبطون بعلاقة مع عائلة كل من العريس والعروس، ثم تتم المراسم بأن يجلس حول طاولة مستديرة الكاهن الأكبر للطائفة السامرية والعريس ووالد العروس أو من يمثلها، وشهود عدول عددهم اثنان ثم يبدأ الكاهن بعرض شروط وقواعد الزواج على العريس، وبعد أن يقرأها من بعده يتم توجيه الأسئلة إلى والد العروس حيث يكون الطلب بالشكل التالي: زوجني ابنتك البكر الرشيد على سنة **الله** ورسوله موسى بن عمران عليه السلام بمهر وقدره مقدم٧٠ قرشاً أردنياً عن جماعة عامة الشعب ومؤخر٧٥ قرشاً عن جماعة عائلة الكهنة وقيمة المؤخر حسب الاتفاق حيث يرد والد العروس: زوجتك وانكحتك وقبلت سؤالك بتزويجك ابنتي على سنة **الله** ورسوله ثم يبدأ الكاهن بتلاوة نصوص عقد القران من التوراة السامرية حيث يقوم الشهود العدول بسؤال العروس ويعودون إلى الكاهن يخبرونه بأن فلانة ابنة فلان توكل والدها في قبول زواجها من الشخص المتقدم لخطبتها حيث يتم بعد ذلك الاتفاق على مراسم الزواج: والتي تستمر أربعة أيام اعتباراً من يوم السبت المقدم ليوم العرس(الزفاف) حيث تبدأ مراسم الزفاف صباح يوم السبت، والذي يقوم فيه والد العريس بدعوة رجالات وكهنة الطائفة للاجتماع حيث يُقرأ ما تيسر من التوراة، ويكون ذلك في السبت المحدد من السنة وفي المساء يقوم بدعوة من حضر لوجبة عشاء، ثم في اليوم الثاني يوم الأحد تكون هناك حفلة للرجال يقرؤون فيها من التوراة ما يسمى بنوبة العريس، ويأكلون ويشربون ما لذ وطاب في تلك

الليلة، وفي اليوم الذي يليه يوم الاثنين تدعى نساء الطائفة لتناول وجبة الغداء وفي المساء تقام حفل الحناء حيث تلبس فيه العروس بدلة تشبه بدلة الزفاف، وتكون حفلة طرب ووداع للعروس وتكون غالباً على نفقة والد العروس، وفي اليوم الثالث يوم الثلاثاء يدعى جميع أبناء الطائفة لتناول طعام الإفطار على مائدة والد العريس وكذلك تناول طعام الغداء وفي المساء يقام حفل الزفاف بدعوة أبناء الطائفة وأصدقاء العروسين، حيث يسبق حفل الزفاف قراءة كتاب الزوج، وفيه يتم ذكر سنة الزواج ومناقب العروس ووالده وجده، وكذلك العروس ووالدها وجدها وشروط الزواج وكذلك قيمة المهر المؤجل .

ثانياً ـ ولادة الذكور أو الإناث:

السامريون ينتظرون بفارغ الصبر ان يولد لهم أبناء بغض النظر عن الجنس، وإن كانوا يفضلون الذكور بطباعهم الشرقية تفضيل الذكر على الأنثى، ولكن وبعد تطور الحياة ووصولنا إلى القرن الحادي والعشرين أصبحت نظرة السامريين للإناث نظرة تفاضلية لما تعنيه وتقوم به الأنثى من رعاية ومساعدة أهلها ورفع شأنهم حيث إن قلة عدد الإناث بالنسبة للذكور عند السامريين جعلتها الجزء المهم في عملية الزواج والتبادل بينها وبين شقيقها حيث عندما تلد المرأة عند السامريين أنثى يقوم والدها باستقبال المهنئين والفرحة تملأ عيون الوالدين وكما هي عادات أهل فلسطين يتم إغداق الهبات والهدايا على المولودة، والوالدة أما عندما تلد ولداً ذكراً فيتم تنظيم احتفال في اليوم الثامن للولادة بدعوة جميع أبناء الطائفة والأصدقاء لحضور حفل طهور المولود في حفل بهيج وصلاة رسمية مخصصة لهذه المناسبة، ويقوم بعد الحفل مباشرة والد المولود بدعوة الجميع لتناول طعام الإفطار، وما لذ وطاب من الحلويات .

ثالثاً ـ الموت عند السامريين:

كفانا الله جميعاً، ولكن سنة الحياة كل من عليها فان، حيث إنه عندما يتوفى شخص عند السامريين بداية يقومون بغسله وتكفينه، ويقوم رجالات الطائفة بنعيه بالشكل اللازم وقراءة التوراة كاملة قبل مراسم الدفن، حيث يوضع في نعش من الخشب، ويُدفن في مقبرة السامريين في حفرة ترابية، ويبقى داخل النعش وتُقرأ الفاتحة على روحه، ويتم فتح بيت للعزاء واستقبال المعزين مدة ثلاثة أيام للذكر ويوم للأنثى، ويتم فتح بيت للعزاء في منزل الفقيد للنساء كما هي تماماً عادات أهل المدينة وتقاليدهم حيث يقوم السامريون بزيارة منزل المتوفى باستمرار لفترة ليست وجيزة، وفي الأعياد والمناسبات كذلك يتم التوجه إلى منزل الفقيد في السنة الأولى لموته، أما بالنسبة للعائلات التي يتوفى لها شخص، فتقوم

بين الحين والآخر بزيارة قبره وقراءة الفاتحة عليه، ويتم ذلك في المناسبات أيضاً في كل عام، وفي الأعياد الدينية، ووضع أكاليل الزهور على مقابر الموتى من الأقرباء .

وزيارة القبور سنة مؤكدة عند السامريين يقوم الجميع بها، وخاصة في عيد الفسح وفي الصوم العظيم، كما يقوم السامريون بزيارة قبور الأولياء والصالحين والأنبياء عليهم السلام كقبر سيدنا يوسف عليه السلام في نابلس وقبور سيدنا ابراهيم واسحق ويعقوب في الخليل وقبر راحيل في بيت لحم وقبور العزير والفضل والخضرفي بلدة عورتا، ويقومون بإشعال الشموع والصلاة في هذه القبور والدعاء كما يقوم السامريون بالنذور في المقامات.

والنذور عند السامريين سنة محببة بأن يقوم الشخص بالنذر وعليه ان يقوم بإبقاءه كما وعد وهذا شيء موجود شرعاً في التوراة المقدسة .

رابعاً ـ الطلاق عند السامريين:

يجوز الطلاق عند السامريين في حالات ثلاث:

- عدم التفاهم بين الزوجين.
- بسبب المرض أو عدم الإنجاب.
- إذا كشف أحد الزوجين الخيانة على الآخر.

ويجوز للسامريين الزواج من امرأة أخرى وإبقاء زوجته على ذمته إذا قبلت، ولكن بسبب قلة عدد الإناث لم يحصل هذا الأمر من قبل، وشريطة أن يتم العدل بين الزوجات .

خامساً ـ الأعياد والمناسبات عند السامريين:

في الأعياد الرسمية عند السامريين يقومون بارتداء الألبسة الجديدة للرجال والنساء والأطفال ويتزاورون في ما بينهم للتهنئة بالعيد، ولدى السامريين ملابس خاصة في بعض المناسبات كعيد الفسح، ولديهم لباس خاص في الصلاة، ولباس خاص ليوم السبت للذكور فقط، ومن العادات المحببة لدى السامريين تبادل التهاني في الأعياد والمناسبات مع أصدقائهم من أهالي المدينة، وكذلك في الافراح والأتراح .

ومن عادات السامريين غير الدينية التحبب بالاحتفال في عيد الأم، وفي أعياد الميلاد الخاصة، وهذه عادات يقوم بها كثير من أبناء السامريين .

يشتهر السامريون بقراءة الكف، وعمل الطالع الفلكي لمن يقصدهم، وهذا تراث متوارث من الأجداد والآباء إلى الأبناء .

الأغنية الشعبية النابلسية

د. عبد الرؤوف خريوش *
م. طاهر باكير **

* أستاذ مشارك في علوم اللغة العربية/ جامعة القدس المفتوحة/ فرع نابلس.
** مهندس زراعي وفنان مسرحي/ نابلس.

الأغنية الشعبية النابلسية

مقدمة البحث:

يتناول البحث الموسوم بـ"**الأغنية الشعبية النابلسية**" الأغاني الشعبية في مدينة نابلس، وذلك لأن الأغاني الشعبية هي الهتاف الشعبي الجماعي لحفلات الأعراس والمناسبات الأخرى ، كما تشكل حداء الجماعات في المناسبات الوطنية والقومية منذ قدم الأزمنة إلى أيامنا المعاصرة. وقد عرّفها باحثون كثر تركزت معظمها حول كونها ملحمة شعرية مجهولة الأصل؛ كانت تشيع بين الأميين في الأزمنة الماضية ، وما تزال حية في الاستعمال.

وقد سار البحث على المنهج الوصفي الاستقرائي للأغاني الشعبية في مدينة نابلس وذلك لأن انتشارها وشيوعها بين المجتمعات الشعبية واستعمالها بسبب ورودها في أكثر من شكل في المجتمع الواحد ، إضافة إلى كونها تحافظ على الأسلوب الموسيقي البسيط والمرونة؛ جعلها تتميز على باقي الفنون الأخرى ، لذلك كانت هي أكثر الفنون تميزا عن غيرها في المجتمع الواحد.

وباعتبار مدينة نابلس من أقدم المدن الفلسطينية نشأة وتطوراً، وأكثرها سكاناً ومساحة، ولأنها عبر العصور كانت تعد معقلاً لكل الحضارات التي نشأت على أرض فلسطين، ولكون حضارتها الفكرية والعمرانية والفلكلورية تتقاطع مع تراث مدينة دمشق، فسميت بدمش الصغرى؛ ونتيجة ازدهار الحضارة فيها اتخذت الأغاني الشعبية أشكالاً وأنماطاً مختلفة؛ فمنها ما يختص بالأفراح، ومنها ما يختص بالمناسبات الدينية والاجتماعية المختلفة ، كذلك فإن الأغنية تم تناولها منذ القدم، وتميزت عن غيرها بأسلوب أدائها باللكنة النابلسية المميزة .

وأظهرت الخاتمة أن الأغنية الشعبية الفلسطينية في مدينة نابلس تميزت عن غيرها بألوانها المختلفة كأغاني العمل والطفولة والأغاني الخاصة بالرجال والنساء والسامر التي تقال في مناسبات اجتماعية ووطنية مختلفة.

تعريف الأغنية الشعبية وأصولها :

هي عند الأمم تنبثق من أصل واحد، ، وتشكل موضوعاً مشتركاً يعكس البيئة والحالة النفسية والعادات الملازمة لتلك الشعوب، فهي أغان فطرية لا أثر فيها لصنعة متعمدة ، ارتجلها فرد مجهول من أفراد الشعب بطريقة بدائية لا كلفة فيها ولا تكتيك [١]

ومن الصعب تحديد أصول ثابتة للغناء الشعبي ، وذلك يعود إلى الاختلاط بين نماذج الغناء الشعبي والأدب الشعبي ، وهو اختلاط يصل أحياناً إلى التطابق فتصبح نماذج شعر الغناء الشعبي نماذج من الأدب الشعبي الخالص ، فأشعار السير الشعبية مثلا غالباُ ما تتلى مقاطعها مغناة من هنا فإن تحديد أصل الغناء الشعبي يشكل صعوبة، سيما إذا عرفنا أن مؤلف الأغنيات الشعبية (الفلولكلورية) مجهول، ولا يمكن نسبتها إلى شاعر معين أو ملحن معين؛ لأن شكلها الحالي قد تكونت ملامحه عبر إضافات وتحويرات في الكلام واللحن، بالانتقال الشفهي للأغنية من جيل إلى جيل، حتى أصبح القول إنها حصيلة تأليف جماعي ، قريباً جداً من الدقة، مع العلم أن المادة الشعرية الأولى ولحنها، قد انطلقت حتما من شخص واحد محدد في البداية . ولكن استحقاقها للتداول العام والبقاء والتطور بالإضافات الشعرية واللحنية هو الذي أسبغ عليها في النهاية صفة الأغنية الشعبية .[٢]

ويتحتم على هذا، اعتبار مكان انتشار الأغنيات الشعبية الأقرب إلى الدقة نظراً لوجود ألوان تشيع في شمال فلسطين ووسطها وجنوبها، إلا أن سهولة تحديد موقع الانتشار لا تقابلها بالضرورة سهولة مماثلة في تحديد موقع المنبع الأساس لهذه الأغنية الشعبية أو تلك، ولهذا القالب الغنائي الشعبي أو ذاك. وعليه تشكل بعض نماذج الغناء الشعبي المتداول في فلسطين تراثا مشترك بين شمال فلسطين ولبنان وسوريا. ويشكل هذا البعض نسبة كبيرة من هذا التراث (مثل الميجانا والعتابا).

وأما قالب الموال (على سبيل المثال) فإن منبعه الأصلي نواحيات « المواليا» التي كان مريدو البرامكة يردّدونها في العراق في رثائهم بعد نكبتهم التاريخية الشهيرة على يد الخليفة العباسي هارون الرشيد(ت١٩٣هـ، ٨٠٩م) في أواخر القرن الثاني الهجري، أوائل القرن التاسع الميلادي، كما يزعمون.أما في شأن زمان ولادة الأغنيات والقوالب الشعبية فيقول نمر سرحان: « وعندما نحاول تحديد عمر الأغنية الشعبية فإننا نقصد بذلك استقراء تلك الأغنية والتكهن بفترة زمنية من الممكن أن تكون الأغنية قد وجدت فيها على وجه التقريب.

وبالنسبة إلى الأغنية الشعبية الحديثة من السهل التعرف إلى عمرها الزمني، وبخاصة تلك التي تتناول أحداثاً ما زالت ماثلة في الأذهان، أو قائمة مثل الأغاني التي تتحدث عن الشعب المنكوب الذي يتفجع على وطنه ويتلمس طريق التحرير ويبحث عن المنفذ المحرر:

يا ويلي وين اللي يحرر وطننا

إذ من السهل الافتراض بأن عمر هذه الأغنية يعود إلى ما بعد عام ١٩٤٨. وكذلك الأغاني التي تصوّر ذل الوقفة على باب التموين واستجداء وكالة الغوث، وهي تعزى بسهولة

إلى الأغاني التي تلت ظهور مجتمع المخيمات ، ومن هذه الأغاني هذا المقطع المأخوذ من قصيدة للشاعر الشعبي عبد العزيز كتكت:

شربنا علقم ما بنذاق
في الخان بنشحد طحين
وصرنا نبشر بعضنا
تاجانا السمن والسردين
وضيّعنا الاسم العتيق
وصار اسمنا لاجئين

وتعود بعض الأغاني في عمرها الزمني إلى سنوات قليلية، فهذا بيت العتابا الذي يتحدث عن وقوع الصخرة المقدسة في قبضة الاحتلال، أي بعد مرور ١٩٦٧ .

يا صخرة ع العرب بالصوت نادي
اليهود استعملوك شبه نادي
يعد ما كان عود النـد نادي
فتل دولابها والنجم غاب»

بل إن بعض الأغاني الشعبية تحمل إشارات دقيقة إلى فترتها الزمنية. فبيت الدلعونا الذي يتحدث عن جنازة محمد جمجوم وفؤاد حجازي، لا بد أن يكون قد قيل أول مرة بعد ١٩ حزيران عام ١٩٣٠، وهو يوم تنفيذ حكم الإعدام بمحمد جمجوم وعطا الزير وفؤاد حجازي أبطال الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٢٩. وهناك نماذج تظهر قدم الأغنيات الشعبية ، يقول نمر سرحان:

«ونقرأ في كتاب ولاية سليمان باشا العادل تحديداً معقولاً لعمر الأغنية الشعبية التي تتناول خيانة حنا الموسي لإبراهيم أبو قالوش الفار من وجه احمد باش الجزّار:

دوسي يا بنت دوسي
ع لحية حنا الموسي
يحرق حنا وجدوده
اللي سلّم قالوشي

فنحن نعرف أن إبراهيم القالولشي فرّ من وجه الجزار في ٣ أيار سنة ١٧٨٨م (١٢٠٣ هـ). ويجوز لنا الاعتقاد بأن الموال ذا المضمون الصوفي يمكن أن يعود في عمره إلى قرون عدة خلت، وهو يلتقي مع المواليا (المنسوب إلى نكبة البرامكة) ومنه خرج لحن السامر وترويده الحنّا (الترويدة : الأغنية الوداعية).[٣]

طابع الغناء الشعبي:

تستشهد يسرى جوهرية عرنيطة لوصف طبيعة الموسيقى الشعبية في فلسطين بسلم المعايير الذي طرحه المؤلف البريطاني السير تشارلز بري ***Sir Charles Parry*** (١٨٤٨–١٩١٨) **كما يأتي** :

- الموسيقى الطبيعية لشبع وصي : حيوية وإيقاعها بارز.
- لشعب كئيب عابس: قائمة .
- لشعب شاعري : شجية.
- لشعب واقعي: بسيطة وغير محكمة الصنع.
- لشعب همجي شرس: متوحشة.
- لشعب نشيط: مرحة وخفيفة.
- لشعب جاد: نبيلة وجليلة

وتميل يسرى عرنيطة إلى إشراك المعيار الأول والثالث في "سلّم بري" في تحديد الطابع العام للموسيقى الشعبية في فلسطين، أي أنها حيوية وشجية(على أساس أننا شعب وصفي وشاعري)، ومع ذلك فإن صفات الحزن والكآبة والرتابة قد طبعت كثيراً من تراثنا الغنائي الشعبي نتيجة لمراحل الانحطاط الطويلة [٤] . أما نمر سرحان فيعتمد سلّما آخر لمعايير طبائع الفنون الشعبية لدى مختلف الأمم (لا يشير إلى مصدره) فيقول:

«تقسم أغاني الشعوب إلى الأقسام الآتية: غناء الشعوب السامية، وغناء الشعوب الآرية، وغناء الشعوب الطورانية، وغناء الشعوب القطبية وشعوب أواسط أفريقيا. ولما كان غناء الشعوب الطورانية (آسيا الصغرى) قريباً من غناء الشعوب الآرية والسامية، ولما كان غناء الشعوب القطبية وشعوب أواسط أفريقيا متأثراً باللون السامي أو الآري، فإنه يبقى لدينا في الواقع نوعان من الغناء: الآري والسامي. فأما الغناء الآري فواقعي ومادي تشيع فيه روح المرح والأنغماس في الحياة، ويتميز بعمق أحساسه بالحياة وتمجيده لها. وأما الساميّ فذو طابع روحي تجريدي يغلب عليه الاستغراق الصوفي والخيال وإظهار الألم، وأغانينا الشعبية هي تجسيد للغناء الساميّ بما فيه من حزن وتخيل واستغراق صوفي. وإذا ما نظر إلى الحياة فمن خلال الألم»[٥]

إن هذه المعايير توازي تماماً ما يصطلح العامة على تسميته موسيقى شرقية وموسيقى غربية بما يوازي تقسيم الموسيقى إلى سامية وآرية في المعيار الوارد أعلاه.

ومهما يكن من أمر هذين المعيارين الجانحين إلى شيء من التعميم (مع اقترابهما من الدقة في بعض التفاصيل) فإن الموسيقى الشعبية الفلسطينية المتداولة في القرنين الأخيرين هي « موسيقى عربية مشرقية» تمتاز بشكل عام عن الموسيقى الشعبية المصرية بأنها أكثر حيوية وتوتراً ، وأقل ليونة وإنسياباً، ويرجع هذا الامتياز حتماً إلى أسباب موضوعية من أبرزها قطعا اختلاف البيئة الجغرافية ، حتى إننا نجد هذا الامتياز بين الألوان المشرقية التي ينتسب بعضها إلى المناطق الجبلية، وبعضها الآخر إلى السهول، وهو امتياز لا ينطبق فقط على التراث الغنائي الشعبي في فلسطين والمشرق العربي عموماً ، بل يمكننا أن نلاحظ بصماته الواضحة حتى على الموسيقى المشرقية المحترفة، وحتى على الفوارق في أسلوب العزف بين مصر وبلدان المشرف العربي.(٦) .

لغة الغناء الشعبي :

تميل لغة الغناء الشعبي نحو العامية ولهجاتها ، وعليه من الصعب وضع حدود فاصلة بين الأدب الشعبي والأدب الكلاسيكي. نظرا لاختلاف البيئات الاجتماعية الناطقة بلغة العرب ولهجاتها في فلسطين ، وعليه يمكن طرح عدة أسئلة منها : هل الأدب الشعبي هو كل ما كتب باللهجة العامية فقط أم هو كل أدب يعّبر عن روح الشعب وخصائصه، وينتشر من جيل إلى جيل، سواء أكتب بالعامة أو بالفصحى ؟ وهل جاءت اللهجات العامية نتيجة انحطاط اللغة الفصحى، أم نتيجة فقط لاختلاط العرب بعد الفتوحات الإسلامية بشعوب كثيرة، اخذت تنطق العربية ولهجاتها بلكنتها الخاصة ؟(٧).

وقد حاول نمر سرحان من جانبه أن يجيب على هذه التسؤلات ضمنياً بقوله : « المعروف أن الفنان الشعبي الفلسطيني يثبت بالفصحى، وهو إذا أحس بطغيان العامية على كلامه اعتذر بقوله : ليس على المطرب أن يعرب «(٨). فهذه الإشارة فيها اعتزار بالفصحى أكثر مما فيها دلالة على أن الفصحى هي اللغة الأساسية للغناء الشعبي أو الأدب الشعبي، وقد بينت عرنيطة أسباب ميل الأغنية نحو العامية إلى اعتبارات عدة منها أثر اللهجات العربية في حياة الناس، والتي أدت إلى انكماش الفصحى في المجتمع الفلسطيني بعد اختلاطهم بالعرب الفاتحين، الذين جاءوا بلهجاتهم ، منها الكشكشة، والعنعنة، والتلتلة والشنشنة وغيرها(٩).

نماذج الغناء الشعبي:

يمكن تقسيم نماذج الغناء الشعبي في فلسطين إلى نوعين رئيسين، الأول يؤديه عادة فنان شعبي منفرد متخصص في أداء هذا اللون، سواء بالاحتراف أو بالهواية، بالتكسب أو

بالمزاج؛ والنوع الثاني هو كل ما عدا ذلك من نماذج الغناء الشعبي التي يتداولها الناس ويغنونها في شتى المناسبات. وقد يتجاوز هذان النوعان في أكثر من مناسبة ، وبخاصة في ليالي السمر التي تسبق العرس بسبعة أيام. **فمن النوع الأول نجد:**

١. الحدّاء:

وهو ما يوازي تماماً الفنان الشعبي الذي يطلقون عليه في لبنان اسم « الزجّال»، أو « القوّال». وإذا كان الزجالون في لبنان قد أخذوا منذ مدة يظهرون على شكل فرق منتظمة قوام كل منها أربعة زجاليين يتبادل كل اثنين منهم المبارزات الشعرية أمام الجمهور، وتحمل الفرقة عادة اسم أبرع شعرائها (أشهر هذه الفرق في النصف الثاني فرقة (زغلول الدامور) ، فإن الحدّائين» في فلسطين يطلّون على الجمهور كل بمفرده، وإن كانوا كثيراً ما يُدعون جماعة لإحياء الأعراس (اثنين أو أربعة) لإذكاء نار المبارزات الشعرية، ولكنهم يُدعوْن أفراداً لا فرقاً.» يطلق أهل شمال فلسطين مصطلح حدّاء على الشاعر الشعبي المبتكر لأغاني الشعب الذي يدعى لإحياء الاحتفالات الشعبية في مناسبة العرس، فيغني أمام جمهور السحجة في الليالي السبع التي تسبق الزفاف، ويقود مواكب الزفة والسحجة في يوم الزفاف من الصباح إلى المساء.وغالباً ما يُدعى لإحياء الاحتفال الشعبي حدّاءان أو أربعة ليستمتع الجمهور بمناظراتهم التي تثير الحماسة في نفوس المشاهدين»[١٠].

ومن أشهر المناظرات المرتجلة في هذا المجال ما يروى من أن حدّاء كان يقود السّحجة في مدينة جنين في سهرة من سهرات الأفراح الشعبية، وكان هذا الحدّاء أعور. وجاء إلى الاحتفال شاعر الربابة الشيخ محمود زقوت، وبعدما رحّب به شاعر الأمسية قال له على مسمع من جمهور السحجة:

وقت إيش الزمان يعود
ويجمعني بالشيخ محمود
يضربلنا على العود
كلامه نقل من الرعيان

واعترى الغضب الشاعر الشعبي محمود زقّوت فقفز على الفور إلى وسط الحلقة وارتجل:

عمري ما كنت راعي
ودوماً بركن ع ذراعي
ومن يوم ما صرت واعي
وانا سلطة ع العوران

ومن المحاورات المشهورة هذه المحاورة حول المفاضلة بين العلم والمال بين اثين من الحدّائين المعروفين في فلسطين، وهما من كفر قرع بالمثلث، يوسف أبو ليل ويوسف مجادلة. وجدير بالذكر أن أصوات الجمهور ترتفع بين كل مقطع وآخر لترد لازمة « يا حلالي يا مالي» .

مجادلة :

بتحاورني ع الكرم اسمعونا يا أهل الفهم
الله يباركلك بالعلم وانا اللي راضي بالمال

أبو ليل:

ان كنّك حدي فنان اعطينا لمالك برهان

وإذا كان الحداءان المتناظران هنا قد استندا إلى القرآن الكريم لإثبات حجتيهما فكثيراً ما يستعين المتناظران بشواهد من الأدب والتاريخ.

وهناك نوع ثان من المناظرات مناظرة « البوابة « الشهيرة في شمال فلسطين. ، وثالث يتمثل في ارتجال رباعة رجلية، فيتلو الأول الشطرين الأولين، فيرد الثاني مكملاً بالشطرين الثالث والرابع، على أن تكون قافية الشطر الثالث مطابقة لقافية الأول والثاني، أما قافية الرابع فتلزم قافية الشطر الرابع لأول رباعية، وتتكرر في قفلة كل الرباعيات الآتية. ومن ذلك المناظرة التي جرت بين عبد اللطيف العجاوي ويوسف البرغوتي الملقب بالحزرق، ونقتطف منها:

الحزرق أمنْ ليلة ليلتنا
أكبر حفلة حفلتنا
عجاوي اشهدوا يا جماعتنا
إنو يوسف بسوى مليار
الحزرق سلم لي صوتك يا عم
يا هايم ع القلب الدم
عجاوي لا تحمل يا زميلي هم
قدامك بطل الشعار
الحزرق الليلة بدي أناديك
وبدمي أنا فاديك
عجاوي ابشر أجاك التوماتيك
وع الأعدا يطلق النار

ومن الثابت أن النوعين الأولين من المناظرات منتشران في لبنان بصورة مطابقة، حتى إن المطربة المعروفة فيروز اشتركت مع المطرف المعروف نصري شمس الدين في مناظرة « البوابة»[١١].

(ب) الشاعر الشعبي :

تقول موسوعة الفولكلور الفلسطيني في وصف الشاعر الشعبي ومادته الشعرية:

« هو الفنان الشعبي الذي يتلو أمام الجمهور قصائد وقصصاً من التراث الشعبي بمصاحبة الربابة في الغالب . ويعتبر الشاعر الشعبي لسان الجمهور وواعظه وباعث الحماسة فيه والناطق بآلامه وآماله. والشاعر الشعبي يحمل القيم والمثل المتعارف عليها في شكل معانٍ تتردد في أشعاره بشكل يرضي الذوق العام، ويتفق مع المشاعر الجماعية. وهو في الغالب رجل ذو ذوق فني اكتسب بالمراس والخبرة مهارة جعلته يتحسس مشاعر الناس فيصبها في قالب فني محبب يرضي الجمهور ويدغدغ أحساسيه. وقد برع الشاعر الشعبي في تمثيل الأدار التي يتحدث عنها، فعندما يتحدث عن بطل مغوار كأبي زيد الهلالي فإنه يزمجر وينهض ويشير بقوس الربابة وكأنها سيف مسلول، وإذا تحدث بلسان امرأة، فإن صوته يقطر رقة وعذوبة»[١٢].

وقد مثّل الشاعر الشعبي دور « المونولجيست « و المهرج، فهو يروي النكات لجمهوره في أثناء إلقاء الرواية، أو على هامتها. كما أنه قلد أسلوب القصص الشعبي؛ لأنه اغترف منه معظم مادته، فهو يمدح النبي صلى **الله** عليه وسلم في المطلع والختام بأبيات مثل قول الشاعر الشعبي محمود زقوت:

أصلي وأحب اللي يصلى ع النبي
نبي عربي صفوة كريم معبود

وقول الفنان الشعبي محارب ذيب :

أنا أول قولنا نمدح محمد رسول الله للأمة هداها

وفي ختام قصيدة أخرى يقول محارب ذيب:

أحنا إن كان اخطينا نصلى على النبي نبي مرسلي والحاج لأجله يردد

وفي القصص الشعبي تبدأ القصيدة بمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

أنا أول ما نبدى نصلي على النبي
نبي عربي شدّوا إليه الركايب

ويمثل الخط العام للقصائد التي يردّدها الشعراء الشعبيون في الحثّ على الكرم ومكارم الأخلاق والتمسك بأهداب الدين، وفي التحدث عن تقلبات الأيام والاستخفاف بهذه الحياة الدنيا. وهذا الفنّان الشعبي محمود زقّوت يقابل الكريم بالبخيل فيقول:

في الناس من يعطي مليحة مزخرفة
شفايفها تضوي كما الياقوت
وفي الناس من يعطي كحيلة معددة
وفي الناس من يعطي حمار ويموت

ومن الشعراء الشعبيين من اعتاد سرد الروايات الشعبية مع نغم الكمان (محمود زقّوت) أو الربابة (محارب ذيب) أو بلا أية آلة موسيقية (صالح الحكواتي).

ومن طريف ما يُذكر أن الناس ينقسمون أثناء سرد الرواية إلى فريقين، فبعضهم يتعصب في سيرة « بني هلال» لأبي زيد الهلالي، وبعضهم يتعصب لذياب بن غانم. وقد حصل أن أحد الشعراء الشعبيين أنهى سهرة إحدى الليالي بعدما «سجن» ذياب بن غانم، وترك المقهي وذهب إلى بيته لينام. ولم يكد يلزم فراشه حتى فوجئ ببعض الفلاحين على باب بيته يقرعونه بغضب ويطلبون منه العودة إلى المقهى ليواصل الرواية حتى يخرج ذياب من السجن، ولم يكن في وسع الشاعر إلا أن يستجيب، وقد وزع بائع حلوى فقير كل ما يملك من الحلوى عندما وصل الشاعر الشعبي إلى مقتل ذياب.(١٣)

ويضيف نمر سرحان نوعا آخر من الشعراء الشعبيين فيقول:» وقد عرفت دنيا الريف نوعا من شعراء الربابة امتهنوا الطواف على الوجهاء والأعيان في الدواوين والمضافات وأخذوا يمدحونهم ويتكسَّبون بالمدح. ولا يختلف هؤلاء كثيراً عن الشحاذين أو « القصّادين» كما يسميهم الريفيون. وبدأ هذا النوع من الشعراء بكليشيهات ثابتة مثل :

سمّيت باسم الله واعليت ظهرها
من سمى باسم الله ما رد خايب

ويكثر هؤلاء المتكّسبون من المدح المبالغ فيه واستدرار العطف في سبيل طلب العطاء حتى لو كان العطاء مجر أكلة، إذ يقول أحدهم:

بيت الأصل باقي متين الدعامة
راسي وما يهز مهما صار
بيت الشرف والعز عالي مقامه
محفوط وما يعلق عليه غبار (١٤)

ويتفاوت دور الشاعر في العرس الشعبي باختلاف المناطق الجغرافية: شمال فلسطين ووسطها وجنوبها. ففيما تراوح مدة عمل الشاعر في شمال فلسطين ووسطها بين يومين وثلاثة أيام فإنها تمتد سبعة أيام في جنوب فلسطين، وأكثر من ذلك في مناطق بئر السبع والنقب. ومن المرجح أن هذا الفارق سببه أن البدوي في الجنوب لديه من الوقت أكثر مما لدى أهل الشمال والوسط الذين يرتبط معظمهم بمواسم الزراعة والحصاد.[١٥]

(جـ) النوّاحة :

تقول موسوعة الفولكلور الفلسطيني في وصف النوّاحة:

«هي امرأة تحترق البكاء وإلقاء أغاني النواح بلحن حزين، وكذلك الرقص الأنفعالي في حلقات الردح (الرقص لمناسبة الوفاة). وقد تكون النواحة مجرد امرأة عادية تبكي وتغني وتنوح لمناسبة وفاة عزيز لديها. وقد تكون محترفة تُستدعى في كل مأثم يحصل في القرية. وأما النساء اللواتي فُجعن بنكبات شديدة فيبادرن عادة إلى الذهاب للمشاركة بالنواح في أي مأثم، ولسان حال الواحدة منهن يقول:

وابكي لكم وابكي لروحي
واكثر بكاي لجروحي

ومن النوّاحات من تردد أبياتاً مكررة تقال في كل ميت « أبو القميص واللباس واللي شاربه خط القلم بالورقة « ومنهن من تبتكر أغاني نواح تناسب الحالة، ولا يلبث هذا الابتكار أن يدخل في التراث العام للنوّاحات. قالت الحاجة عايشة: كانت وطفة والزلامية تشاركان في كل مأتم في السنديانة « حيفا» وتجلسان متجاورتين تقولان أغاني النواح، فتردّد تلك الأغاني بقية النائحات الحاضرات [١٦] . ومن مشهد التكامل بين إنشاد النواحة وإنشاد اللواتي يردّدن وراءها نشأ المثل الشعبي القائل: « زي النوّاحة والردادة» .

(د) المنشد:

تقول موسوعة الفولكلور الفلسطيني في وصف المنشد:

«هو الدرويش الذي يتلو المواجد الصوفية في الحضرة، أو يقرأ قصة المولد ويتلو ما فيها من أشعار، ثم يتلو المدائح النبوية أمام جمهور من المؤمنين المحتفلين بيوم مولد النبي، أو في مناسبة من المناسبات الاجتماعية التي يودّون أن يتبرّكوا فيها بذكر النبي ومدحه. وكذلك تجد المتسول ذا الصوت الشجي الذي يتغني بالأشعار ذات المضمون الديني ليخلق وازعاً في أنفس الناس فيدفعهم للتصدق عليه «[١٧] .

مناسبات الغناء الشعبي:

تعدد يسرى جوهرية عرنيطة ثمانية أعراض أساسية للغناء الشعبي في فلسطين:

- الأعياد والاحتفالات الدينية (الإسلامية والمسيحية طبعاً).
- الإفراح : الأعراس ، الحب، الولادة، العماد، الطهور.
- الحرب، الحماسة، الحث على القتال.
- العمل والتجارة.
- الهزل والسياسة.
- الرقص.
- المآثم.
- الروايات والأقاصيص والسير الشعبية [١٨].

خصائص الغناء الشعبي:

من أهم خصائص الغناء الشعبي الفلسطيني ، قصر الجمل، والتباعد بين الصوتين، وهو ما يسمى بأبعاد اللحن، ومن خصائصها أنها مبنية على المقامات العربية، وبغلب عليها مقام البياتي،الجاذبية ، والزخرفة اللحنية من تموجات وطلعات وعتابا وميجنا وغير ذلك [١٩] .

الأغنية النابلسية:

مدينة «نابلس « مدينة فلسطينية وتراثها جزء من نسيج تراث فلسطين ، والذي يشكل جزءاً لا يستهان به من تراث بلاد الشام. وصفها ابن بطوطة بقوله: هي مدينة صناعية ... تشتهر بصناعة الصابون المصنوع من زيت الزيتون والحلاوه الطحينية المصنوعة من عرق الحلاوه .....وقال عنها :علال الفاسي : هي قبلة من أراد أن يتعلم اللغة العربية على أصولها ، يأتيها طلاب العلم من المغرب العربي. وقال عنها الكثير من المستشرقين نذكر قول أحدهم :»وجدت فيها ثمرة ، حلوة المذق ، طيبة ، كانوا يسمونها في نابلس الشمام».

ووصفها عبد المنعم الرفاعي :

نابلس الهرمه ملهكن الظلم
ماؤها لا يغور وعزها يدوم
اهلها عصب وخير نسب

وأنا أقول :

ثلاثة دياناتها
عاشو بسبات ونبات
خلفو صبيانها ، وبناتها
ومن زقاقها وحاراتها تخرجو خيرة رجالاتها
وحدتهن الياسمينة وحدتهن كنافاتها
وحدهن القريون، والصابون
وشرب الأرجيلية عالبلكون
والمحبة تدوم يوم بعد يوم

والاغنية النابلسية ، هي جزء من تراث هذا البلد بعض تراثه من الأدب كما الحكايا، والمثل الشعبي والأساطير والخرافات ، تعكس تاريخ هذا المجتمع وتبلور هويته الثقافية ، ويكاد لا يخلو بيت في نابلس من آلة طربية بدءًا من العود وانتهاء إلى الطبل والنقرزان والدف» تعتمدها عائلاتها في سهراتها وأفراحها وبخاصة بعض النساء اللواتي كن يتقن مهارة العزف على العود ، وكان العزف على العود دليل الرقي والذوق الرفيع، وكانوا يسمون العود المزهر. أما النقرزان (آلة شبيهة بالطبلة) فكان لها عازفان ياتيان للاحتفال مقابل أجر مالي، ويتلقون النقوط من والد العريس. وكان لا ينحصر الغناء في المناسبات ، وإنما الكثير من العائلات كانت تطرب وتغني في سهراتها.

ألوان الأغنية الشعبية النابلسية:

١. الزغروته :

كانت الزغروته تبدأ بال (ايه ويها ...) وتقوم بتأديتها واحدة من النساء المتمكنات، فالزغرودة لها أصولها وتتطلب إمكانات من حيث الأداء والحفظ والمضمون وسرعة البديهة، لذلك فإن من يؤديها في العائلة محدود جدا ، وتؤدى بشكل تلقائي في كثير من المناسبات وأبسطها ، وللزغرودة مضامين عدة، تختلف حسب المناسبة.

والزغروته كانت تستخدم في كثير من المناسبات مثل: الأعراس ، والميلاد (مولد الطفل) ، وتشيد البناء (العمران)، وبشرى الحمل، والطهور، والختمه وغيرها من المناسبات؛ ففي الأعراس منها ما يقال للعريس ومنها ما يقال للعروس ، تقف (عمة العريس أو أمه أمام مجموعة من قريباته، وتبدأ بسرد مواصفات عريسهم وعزوته وأصله وفصله، وترد عليها (عمة العروس أمام مجموعة من النسوة قريباته وتتحدث عن محاسن العروس وجمالها وحسبها ونسبها ووقارها واخلاقها وأدبها. ويتبادل الطرفان أداء الزغاريد بأن ترد الواحدة على الأخرى بطريقتها الخاصة، ونادرا ما تتطور الأمور لتنتهى بانفصال الطرفين

ومن أمثلتها في وصف العريس:

أيه ويها والطول طول والعنق مايل ميل
أيه ويها والخصر من رقته هد القوى والحيل
أيه ويها يا صايمات الضحى ما فطرات الليل
أيه ويها ردوا على غزالي ما بقى فيّ حيل

وتكمل لتبارك للعريس

ايه ويها يا ريتو سبع بركات
ايه ويها يا ريتو سبع بركات
ايه ويها كما بارك محمد
ايه ويها على جبل عرفات

وفي وصف موكب العروس أيه ويها سيروا على ما قدر الله

ايه ويها واللي كاتبوا ربك بصير
ايه ويها يا الله توكلنا عليك
ايه ويها يا رب يا نعم الوكيل

٢. **المداحية أو (الأهازيج)**:

وهي الأغنية التي تأخذ طابعاً جماعياً، فتجد من يتغنى بالكلام، وتردُّ عليه الجموع ، ومن أمثلة ذلك ما يقال في مناسبة رمضان مثل أغنية « السوق نازل» وهي أغنية خاصة باطفال نابلس في رمضان، ومنها:

عالسوق نازل يا نازل
تحت المنازل يا نازل
عالسوق اطعمني بقلاوه .
عالسوق اطعمني تمرية

وحين تصل البنات السوق يرددن:

يا بناتي يا بناتي نعم يمو نعم يمو
اجوزكن اجوزكن لمن يما لمن يما
للحلواني للحلواني ما نريده ما نريده

وفي طريق العودة :

وانزلت عالسوق نازل ولقيت تفاحه حمرا
حمرا حمرا تفاحه حلفت ما باكلها
لَييجي بيي وخيي اجا بيي وخيي
اطلعني عالعلية لقيت شب نايم
غزيته غزيته وشربت من زيته

والسوق نازل عبارة عن زيارات ليلية للأسواق وأزقة البلدة القديمة التي تكون مزينة بأجمل الألوان ومزدحمة باشهى الأطعمة والملبس (نوع من السكاكر) والحلويات وشعر البنات والترمس وغير ذلك. وتؤدي فيه فرق النشيد الموشحات، وينشط الحكواتي ويخرج الأطفال في هذه المناسبة محملين بالقناديل المصنعة

وللمديحين مضامين تختلف حسب المناسبة ،ففي الأعراس يقولون:

تلولحي يا داليه تلولحي يا داليه
يا ام اغصون عاليه يا ام اغصون عاليه
تلولحي عرضين وطول

ويستعرضون المراجل والشهامة والمحبة والكرم بعرضتهم في أحياء المدينة القديمة:

حنين الحن الحنه ضرب السيف يلبق النا
حنين لياسمنه يلبق له حمل السكينة

ومنها المديحيات ما كان خلال السير في زفة العريس (الزفة)

قوم ارحل يا أمير الشام
قوم ارحل وامشي قدام
هوني ما عد لك مقام
ما مقام إلا بمكه
ومكه عليها السلام
يا سلام اجوي(اضرب) سلام
عاللي مظلل بالغمام....

ومن المديحيات ما كان يأتي على ذكر الضرة والزوجة الجديدة والزوجة العتيقة ومنها :

سنسلب يا سنسلب — راح خي عا حلب
دق عليا بالتركي — يا مقصوفة ما احلوكي
محمد باشا قدامك — حامل بقجة حمامك
والبقجة حريرية — والطاسات مجليه
يا عبد لا تتعوق — جيب السيف المزوق
حطه باب البوابه — بالعقده والشرابه
شرابتك يا هندي — ياللي مشكشك بالوردي
والوردي ما هو عندي — الوردي عند الضره
الله يضر الضره — والي قاعد بحداها

قد تكون بعض المديحيات واردة من بلدات شاميه أخرى والأغلب أنها نابلسية ، ومنها:

سناسل سناسل — سناسل ذهب
سافر المعلم — عسكه حلب
جاب للجديده — أساور ذهب
جاب للعتيقه — أساور خشب

ومنها حين وصول المجموع لبيت العروس:

يا عمنا وافتح لنا البوابه — واحنا النشامة دوبنا لفينا
واحنا النشامة بالسيوف لفينا — واحنا النشامة والشمع بايدينا

وحين يصلون دار العروس:

علبابه علبابه والشمع بالبابه — اعطونا عروستنا والا بنحرق هالبوابه

وفي جلوة العروس: (الجلوة متناقلة ومتواترة إلى عمد قريب، وما نسمعه بالاذاعة فهو من الماضي)

اتخدري اسم الله يا زينه — يا ورد جوا الجنينه
زهر القرنفل يا عروسه — والفل خيم علينا
قومي اطلعي قصدرك العالي — بحياه أبوكي هالغالي
بحياة ابوى ما بطلع — الا عشر جواري قدامي
تنتين تفرش لي فراشي — تنتين تغطي لي لحافي
تنتين تجيب لي قبقابي — تنتين اتحل لي أزراي
تنتين يجيبو لي الكحل — لاكحل فيها عيني

كله عاشانك يا شلبيه

ومنه:

اتخــدري بحلــق الألماس	وأرخــي الجدايــل عالكتــاف
اتخــدري بحلــق الفضــة	واللولــو حواليــك وشراشــ
الله يخلــي شبــاب الناس	كله علــى شانــك يــا شلبيه

أما مدحية الختان:

اختنــه يا شلبــي وسمي عليه	من اوجع لي حسن لا زعل عليه ..

ومن المديحيات ما يقال لبشرى الحمل، الطهور ، ودخول المدرسه ، ومنها مديحيات الحج

الحجــي نــزل البحر	يبــدو كيلــه
يا رب تعيــده سالم	لهــا العيلــه
والحجي نــزل البحر	بطا قيتــه
يا رب تعيــده سالم	بعا فيتــه

٣. **التحنية (الترويدة)** :

تبدأ التحنيه وكأنها وسيلة وشكل مختلف تماماً، وتحمل التحنية في طياتها أحزان المرأة وهمومها وأمنياتها وعذاباتاتها، أو كما يقال (فشة خلق) فقول المرأة بالتحنيه كي تفشي اسرارها لمن لا يفشى الاسرار؛ لأنه من المعيب على المرأة أن تفشي اسرارها خارج بيتها، أو أن يسمع أحد شكواها، فهي لا تظهر في المجالس سوى الفرح، وهذا يعزز الكبت الاجتماعي، فتبقى همومها داخلها وغيظها لا يفارقها، لذلك تلجأ إلى التحنينة كوسيلة لإخراج أحزانها، فأحيانا تودع أسرارها لطفلها وهي ترضعه فتقول:

يــا مايــلا عالغصــن عيني	سمــرا يــا	البنيــا
يحــرق قليبــو الزمــــان	يــا عمــل	فينــا
سمــوك مــا قصــروا عيني	سمــوك غصــن	البــان
سمــوك مــا قصــروا عيني	سمــوك	حوريــة

يحرق قليبو الزمان ياما عمل فيا

وتأتي على ذكر زوجها وأمنياتها لطفلها ، والتحنية للطفل تصاحب الرضاعة ،وتساعد الطفل على النوم.

ومنها ما يقال في موسم الحج، حين تبدأ النساء بتزويد تحنية الحج بعد رمضان وبدء موسم الحج، و تردد التحنية كل وقت من الصباح حتى المساء ، وهي تغسل أو تعجن ،

وتكون تبكي اشتياقاً لزيارة النبي فتقول:

حننوا حننو زيدوا الحنينه

يا اله السما يرجعوا سالمين

من محبة النبي زيدو الحنينه سالمين سالمين على الله السلام

وفي وداع الحجاج:

الوداع الوداع يامين يودع الوداع الوداع يامين يودع
في محبة النبي قلبي متولع وفي محبة النبي قلبي متولع
والوداع والوداع قومو ودعوني الوداع الوداع قومو ودعوني
ويالياللي الوداع مانامت عيوني يا ليالي الوداع ما نامت عيوني
ودعته ميمتو من بره ودعته ميمتو من بره

ومع لقية الحجاج تبدأ أغاني استقبال الحجاج بصحبة النقرزان والطبله . وهذه الأدوات تكون في الأغلب الأعم حاضرة في المناسبات كافة من : أعراس، وميلاد، وطهور، واستقبال، ومباركات، وفي رمضان، والشعبوينات، وغيرها. ومن هذه النماذج استقبال تهنئة العروسة:

عروسه مبارك على شراها
يا ريتها امباركه جوزها وحماها
عروسه مباركه والقدم اخضر
يا ليتها امباركه وتحلى اكثر

والاستقبالات عند النساء من أكثر المناسبات طرباً وغناء في نابلس، تخصص النساء من بنات الذوات (الارستقراطية) يوماً بشكل دوري كل شهر، للاستقبال فتحضر فيه الحلويات والأراجيل وتكون بالعادة بعد صلاة العصر، ومن هذه الأغاني:

يا راس السكر ايه والله
وقع وانكسر ايه والله
يسلم من جابه ايه والله
فلان وعياله ايه والله
ساند باروده ايه والله
هو وجدوده ايه والله

ومنها ما يتعلق بمهنة نقش الحجر (دق الحجر) هي تحتاج إلى هدوء وبراعة وفن ، وتحتاج إلى عضلات وقوة جسدية ؛ لأنها تعتمد على الضرب بالشاقوش والأزميل، يقولون وهم في مهنتهم يصبرون بعضهم على المشقة والتعب :

من يسمع هالسيرة حلوه حلوه وصغيره
عن واحدعامل قبضاي وما بيسوى عشراويه
قالو اسمه ابو حسين صاحب ورشة وازملتين
بيطلع عالورشة دخشه وبيروح من عشية.

أخيراً نقول إنّ الحديثَ في أغاني نابلس يطول، وإنّ ما ذكر القليل القليل، وما يجمعنا الكثير ،وأما بشأن العارضة النابلسية فقد تفوقت على العارضة الدمشقية ، فالملك عبدالله حين زوج ابنه الملك طلال، استضاف عارضتين : نابلسية ودمشقية ؛ فأعجب بالنابلسية أكثر، ولعل الفارق أن العارضة الدمشقية تحمل الرجال على الخيول ، بينما بالزفة النابلسية على الأكتاف، وكذا اختلاف اللباس والحماسة وهما ما يميزان العارضة (الزفة) النابلسية. وأن ما ذكر من الأغاني ربما ورد من مدن شامية أخرى أو أنه انتقل من نابلس إلى مدن شامية ، وأن لكل أغنية دلالات اجتماعية وثقافية واقتصادية، ومنها ما يرتبط بالعادات والتقاليد.

الهوامش:

١. يسرى جوهرية عرنيطة، عرنيطة (ص ٢٢)

٢. الموسوعة الفلسطينية، ص ٧٢٠)

٣. نمر سرحان، موسوعة الفلكلور الفلسطيني،ج١، ص ٧٣–٧٤.

٤. يسرى جوهرية عرنيطة، الفنون الشعبية، ص٢٤.

٥. نمر سرحان، اغانينا الشعبية، ص ٤٣ .

٦. (الموسوعة الفلسطينية، ٧٢٣).

٧. علي الخليلي، أغاني العمل والعمال، ص ١٨.

٨. نمر سرحان ، أغانينا الشعبية ص ٤٣.

٩. عرنيطة،٢٩ – ٣١.

١٠. نمر سرحان، موسوعة الفلكلور، ج١، ص ٧٦

١١. الموسوعة الفلسطينية، ص ٧٢٥ – ٧٢٦.

١٢. نمر سرحان، موسوعة الفلكلور، ص ٨٤.

١٣. (الموسوعة؛ ص ٧٢٧)

١٤. نمر سرحان، موسوعة الفلكلور،ج١، ص ٨٧، وانظر، الموسوعة؛ ص ٧٢٧.

١٥. الموسوعة، ص ٧٢٧

١٦. نمر سرحان، ج١، ص ٨٩.

١٧. المصدر نفسه.

١٨. عرنيطة، ص ٢٦.

١٩. عرنيط، ص ٣١– ٣٥.

الحناء في التراث الشعبي الفلسطيني «نابلس نموذجاً»

د. طالب الصوافي*

* أستاذ مساعد في التاريخ والحضارة/ مشرف غير متفرغ/ جامعة القدس المفتوحة/ فرع يطا.

الحناء في التراث الشعبي الفلسطيني «نابلس نموذجاً»

خلفية الدراسة:

منذ أن خلق الله الكون والأمم تتعاقب على أرض فلسطين تاركة آثارها وتراثها دليلاً على تواجدها على هذه الأرض وتفاعلها معها، فما هو هذا التراث؟ وإلى متى يعود تاريخه؟ وما مدى أهميته بالنسبة لنا؟ وما علاقته بهويتنا الوطنية؟ وكيف كانت عاداتهم وتقاليدهم في المأكل والملبس والتزين؟ وكيف وظفوا هذا التراث في حياتهم اليومية، وحافظوا عليه حتى هذا الوقت؟.

فقبل أكثر من خمسة آلاف عام، قدم أجدادنا الكنعانيون العرب إلى أرض فلسطين وأسسوا فيها مئات القرى والمدن ما زالت آثارها وتراثها بادية للعيان حتى أيامنا هذه، وما زلنا مدينين لهم بكثير من هذا الموروث الخاص بحياتنا اليومية، والذي استمر بشكل أو بآخر إلى عهد قريب، حيث استعمل الفلاح الفلسطيني أدوات الحراثة والزراعة والحصاد، كما لبست النساء الزي الشعبي المطرز الذي يغطي جسمها ورأسها، واستخدمت معه وسائل الزينة الأخرى كالحلي والحناء والكحل وغيرها.

مجالات الدراسة:

من المعروف أن مجالات التراث الفلسطيني متنوعة وعديدة، ويشكل كل ما أورثه السلف للخلف في شتى مجالات الإبداع البشري، لكي يورثه أولئك الوارثون لمن سيأتي بعدهم، **ولهذا كان من الضروري للباحث أن يحدد مجال دراسته من حيث المواضيع التي سيعالجها وهي:**

- أولاً: تعريف عام بالتراث الشعبي الفلسطيني (الفلوكلور) ومكوناته الأساسية وأهميته، وطرق الحفاظ عليه وتوثيقه.
- ثانياً: الخلفية التاريخية لاستخدام الحناء في العصر القديم و التراث الإسلامي.
- ثالثاً: الوظيفة الجمالية– الاجتماعية والطبية للحناء وعناصرها الزخرفية.
- رابعاً: نماذج من الشعر والغناء الشعبي الفلسطيني والنابلسي في ليلة الحناء.

أهداف الدراسة:

١. دراسة جانب من جوانب التراث الفلسطيني وتوثيقه كأحد مكونات حضارتنا ورمز وجودنا على أرضنا منذ آلاف السنين.

٢. المحافظة على تراثنا الذي يتناول تاريخ شعبنا ونضالاته ومواقفه الوطنية في شتى المناسبات، ونشر هذا التراث من أجل ربط الماضي بالحاضر والنضال العسكري والسياسي بالنضال الحضاري.

٣. دعوة الأجيال الناشئة وتوعيتها لأهمية تراثهم، وطريقة حياة آبائهم وأجدادهم على أرضهم، وطريقة معاشهم، وطرز لباسهم، وأنواع حليهم وزينتهم، وكيفية المحافظة عليها من الاندثار والطمس.

٤. كما هدفت هذه الدراسة إلى التعرف إلى بعض أدوات الزينة وخاصة الحناء، وإعادة إحياء هذا الموروث الثقافي والمادي، واستخدامه ودراسته ونشره ليصل إلى كل بيت فلسطيني في الداخل والخارج عن طريق استخدامها مثلاً في منظومة الطوابع الفلسطينية.

أولاً ـ مفهوم التراث الشعبي الفلسطيني وأهميته:

أصبحت عملية الاهتمام بالتراث الشعبي من الظواهر البارزة عند معظم الشعوب في عالمنا المعاصر، وشكلت لهذا الغرض لجان ومؤسسات وجمعيات لجمعه وجمعت فنون شعبية كثيرة، والفت كتب وحددت دوريات، وأقيمت مهرجانات وأنشئت متاحف، وكل ذلك بغرض إبراز التراث الشعبي الذي يميز الشعوب عن بعضها.

وإذا كان الاهتمام بالتراث من الأمور الطبيعية لدى معظم الشعوب، فإن الاهتمام بتراث الشعب الفلسطيني له ميزة خاصة وبعد إضافي بسبب واقع الاحتلال الذي نعاني منه يومياً، لما يقوم به من محاولات انتحالٍ لتراثنا، وتذويب لمقومات شخصيتنا، وفصل حاضرنا عن ماضينا.

وتنبع أهمية الدراسة من أهمية التراث الفلسطيني بفروعه كافة، وأقسامه والتي أكدتها الدراسات العديدة التي قام بها العديد من الباحثين الفلسطينيين، وكذلك دراسات بعض المستشرقين الذين درسوا التراث الفلسطيني من كافة جوانبه من خلال المعايشة اليومية له.

فالتراث هو ما كونته أو أنتجته الجماعات المختلفة عبر القرون وما زال ماثلاً في حاضرنا[١]، وبالتالي فإن التراث يمثل حياة الإنسان الاجتماعية والروحية والثقافية، **ويمثل هذا التراث جانبين مهمين من حياة الشعوب وهما** [٢]:

١. **الفنون القولية وغير القولية**: فالقولية تشمل: الأمثال الشعبية والأغاني الشعبية والشعر والقصص والسحر والألغاز، والنوادر واللغات، والنكات وغيرها، أما الفنون غير القولية فتشمل الرقص والموسيقى الشعبية وغيرها.

٢. **الفنون الشعبية اليدوية**: وتشمل: الصناعات التقليدية والحرف اليدوية مثل النسيج والتطريز والأزياء والحلي والحناء وغيرها.

كما أن للتراث الشعبي أهمية عظمى في حياة الشعب الفلسطيني، إذ إنه يعمق الصلة بين الإنسان ووطنه من جهة، وبينه وبين شعبه من جهة أخرى، تلك الصلة التي نحن الفلسطينيين أحوج الناس إليها اليوم، وإن شبابنا يفتقدون إلى لحظات جمالية كثيرة من فولكلورنا الفلسطيني العظيم[٣]، فمن المعروف أن من لا تراث له لا حضارة له، ومن لا حضارة له، لا تاريخ له، ومن ليس له تاريخ، ليس له وجود، فالبحث عن التراث والتنقيب عن جذوره ومخزونه بالجمع وبالدرس والتحليل والنشر هو في الحقيقة شرط جوهري لتجديد الشخصية الفلسطينية [٤].

وتكمن أهمية دراسة التراث الشعبي الفلسطيني في إقامة توازن بين القيم المادية والقيم الأخلاقية الإنسانية، ذلك أن طبيعة هذا العصر الذي نعيشه يتسم بالتقدم التكنولوجي في ظل فقر القيم الإنسانية والروحية، ولهذا لا بد من السير في خطين متوازيين: خط يمثل القيم المادية وآخر يمثل القيم الأخلاقية الإنسانية [٥]. كما أن دراسة التراث تعطينا فكرة أقرب للوضوح من الفكر البشري وتطوره عبر الأجيال، وكيفية تفاعل الإنسان مع بيئته وصور هذا التفاعل عبر الزمان من خلال سمات الانتشار والتداول والتراكم التي يتسم بها هذا التراث [٦].

ويوضح الدكتور عبد اللطيف البرغوثي أهمية التراث الفلسطيني فيقول: «إن تراثنا هو دوحة تستوعب ماضينا الكنعاني في جذورها، لتصله بماضينا العربي الإسلامي في جذوعها، وتحمل ثمار حاضرنا العربي الفلسطيني على فروعها، كما تحمل مستقبلنا العربي الفلسطيني على –أغصانها، أنها شجرة مباركة جذورها في الأرض وفروعها في السماء" [٧].

وان إعادة بعث التراث الشعبي الفلسطيني ليس هو تجذير واقع انفصالي بقدر ما هو محافظة على شريحة من شرائح هذا التراث العديدة بصورة عامة، لأن هذا التراث هو ثقافة الشعب التي تراكمت منذ نشأته، وانتشرت، ولذلك فهي تكشف بلا شك عن ملامح شخصيته القومية من جميع جوانبها[٨]، وبالرغم من تواضع الجهود المبذولة لإعادة كتابة التراث الفلسطيني وإحيائه بشتى جوانبه ومختلف أشكاله بعد حرب عام ١٩٤٨م، ١٩٦٧م، فقد دأبت هذه الحركة على جمع ودراسة التراث الفلسطيني لإدراك الشعب الفلسطيني بأهميته والحفاظ على هويته الوطنية وتقرير نمط حياته وتفكيره، وإذا كان لكل شعب سمات معينة يظهر منه تراثه الشعبي، فإن عملية حفظه وبعثه جاءت لتؤكد على هذه الثوابت، لا سيما إن العدو غريب عن هذه الهوية وهذه الشخصية وهذا التراث [٩].

وهكذا لم يكن الاهتمام بالتراث وليد الصدفة، ولا ثمرة اجتهاد شخصي، وإنما جاء نتيجة طبيعية للظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي مر بها الشعب الفلسطيني، كما جاء متجاوباً مع مرحلة النضال العسكري التي خاضها هذا الشعب، أمام العدو الغاصب [١٠]. ولكن كيف نستطيع المحافظة على تراثنا؟ **للوصول إلى ذلك لا بد من اتخاذ بعض الخطوات منها**:

♦ أولاً: يتوجب علينا وعلى كل باحث الانتباه والعمل على تمييز التراث الشعبي الفلسطيني عن غيره، والبحث في أشكاله التي انتحلت وسرقت وادعاها الجانب الإسرائيلي المحتل، والعمل على ردها إلى أصولها الأولى.

♦ ثانياً: التمسك بالأصالة والعادات والتقاليد الأصلية في مواجهة التغير الاجتماعي الذي يقود إلى الابتعاد عن كل ما هو تقليدي وقديم، لذلك كان علينا أن نعود إلى التمسك بهذه العادات والتقاليد الشعبية.

♦ ثالثاً: البدء في بعث التراث الفلسطيني وتأكيد وجوده وجميع عناصره تمهيداً لإقامة الاحتفالات بالأعياد الوطنية والمناسبات الدينية، والتمسك بالصناعات التقليدية والمعارف الشعبية كالأشكال اليدوية والأزياء الشعبية وأدوات الزينة كالحناء والحلي وغيرها [١١].

♦ رابعاً: فضح المحاولات الصهيونية إعلامياً، وإشراك العرب جميعاً في كشف الممارسات الإسرائيلية (القديمة والجديدة) في سرقة أو تشويه أو طمس أو تحجيم هذا التراث.

♦ خامساً: تطوير وتشجيع المحاولات الفلسطينية لإحياء التراث والترويج له، والمحافظة على ما يخاف على ضياعه، مع ضرورة الأمانة في التسجيل خاصة في بعض القضايا المنافية للذوق، فالتراث ملك الشعب ولا يحق لفرد أو لأشخاص تخطي ذلك.

♦ سادساً: محاربة التبديد والاقتلاع، والمحافظة المستمرة على الزي الشعبي وأدوات الزينة الأخرى كالحنا والكحل وغيرها، وعدم السماح باندثاره أمام موجة الأزياء الحديثة وأدوات التجميل، وعدم الاستغناء على الصناعات التقليدية بمختلف أشكالها [١٢].

ولجمع التراث الوطني الفلسطيني وتوثيقه أهمية بالغة، وذلك للأسباب الآتية:[١٣]

١. التراث الشعبي سجل حافل بالعادات والتقاليد التي كانت سائدة في كل العصور، في البيئات الجغرافية الفلسطينية المختلفة، ففيه تسجيل لطبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

٢. التراث الشعبي أحد أهم وسائل النضال لنيل الحقوق، وبخاصة في عالم اليوم، لأنه يثبت الانتماء الجغرافي والعرقي، فلم يعد النضال نضالاً عسكرياً حربياً، وفق اعتبارات القرون الماضية، يعتمد السلاح والقوة والقتل كوسيلة وحيدة لاسترجاع الحقوق، فقد أصبح التراث لوحة جينية، تُبرز في ثناياها خصائص الفلسطينيين، في المجال النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي؛ لأن التراث الشعبي يصقل مجموع العادات والتقاليد، وهو يؤثر أيضاً في السلوك والوجوه والملامح.

٣. هو أيضاً رسالة للتواصل الحضاري بين الفلسطينيين وغيرهم من الأجناس الأخرى في العالم القديم والحديث، وهو إثباتٌ للامتزاج بين الحضارات خلال التاريخ الطويل، مما يساعد على إحلال السلم الاجتماعي بين مختلف الأجناس والأعراق.

وبعد، فإن تراثنا يقتضي في العصر الحالي جهوداً مضاعفة لحمايته من الاندثار، فكيف إذا اجتمعت لمحوه عوامل العصر الاعتيادية وعوامل الاحتلال غير الاعتيادية التي تتعمد القضاء على ملامح الشعب الفلسطيني للقضاء على وحدته وعروبته، وإذ كانت مهمة تسجيل ملامح الشعب الفلسطيني ضرورية، فإن تسجيل هذه الملامح ليس من شأن التاريخ وحده، بل هو مسالة معايشة يومية للتراث على النحو الذي يحفظ لهذا الشعب ذاكرته في المستقبل، بل وجوده الحقيقي وكيانه وشخصيته ووحدته الثقافية والاجتماعية من خلال نسيجه الشعبي الموروث. ولذلك تتحمل أفواج الدارسين التبعات بتسجيل التراث الشعبي في فلسطين، وتتحمل أجيال الآباء والمربين التبعات بإنشاء الجيل الطالع وما سيخلفه من أجيال على تراث الشعب الفلسطيني الباقي ليحيا هذا التراث لا في الكتب والدراسات وحسب، بل في كل عرس ومولد وكل يوم وموسم.

ثانياً ـ الخلفية التاريخية لمادة الحناء:

أ. تعريف الحناء وأصلها وانتشارها وتطورها التاريخي:

درجت الشعوب طوال تاريخها الإنساني على أن تتعامل مع الطبيعة وأن تستكشف تجلياتها، وهي تحيط بها في السماء والأرض، وفي النبات والحيوان وفي الجبال والأنهار، والأودية. وقد نظمت هذه الشعوب علائق مع ذلك كله أو بعضه، ولم تتورع على أن تختص لنفسها بخصائص تصبح من ثم من ميزاتها وملامحها، فإذا هي تغاير بها شعوباً أخرى، وتباين أمماً سواها. وقد كان ينهض على حراسة هذه الخصائص والحفاظ على هذه الميزات ضمير الشعب النازع إلى التقيد بالموروث الثقافي، والمحافظة على القيم والعادات والتقاليد.

والحناء أو الخضاب نبات معروف وهو اسم لما يخضب به من حناء ونحوه، وخضب الشيء يخضبه خضباً: أي غيّر لونه بحمرة أو صفرة أو غيرها،و كل ما غير لونه فهو مخضوب وخضيب[١٤]. وقد ورد اسم الحناء في العديد من اللغات القديمة غير العربية فأطلق عليه بالسريانية والفرعونية حنا وحينا، ثم أخذت عنها اللغات الحديثة الأخرى مثل الفرنسية والإنجليزية والتركية وكلها تعود بالأصل إلى ماورد في اللغة العربية وهي كلمة «حِنَّا»[١٥].

والحناء يعد من الفنون الشعبية الذي انتشر وشاع استعماله في المدن الفلسطينة مثله مثل أي فن شعبي مادي، وهو كَفَنٌّ شعبي يتألق وينتشر، أو يخبو وينحسر بحسب ظروف المجتمع والبيئة المحيطة به، وقد بقي الحناء ثابتاً في أصالته رغم كل ما أحاط به من ظروف، ورغم منافسته من قبل صالونات التجميل وآلاته ومساحيقه الحديثة، فقد بدأ من الماضي السحيق، وما زال قائماً له معجبوه وصانعوه ومستخدموه، ومترابطاً ترابطاً تاماً مع مختلف الفنون الشعبية الأخرى ومتوارثاً جيلاً عن جيل معبِّراً عن رغبات وأفكار ومعتقدات هذا الشعب.

وشجرته من فصيلة الحنائيات، وهي فصيلة نباتية من ذوات الفلقتين، وأجناسها كثيرة تبلغ ٢٥ جنساً، وأنواعها كثيرة أيضاً، منها البري والطبي والصناعي والتزييني، وهي طويلة رفيعة مثل شجرة السدر يصل ارتفاعها إلى أربعة أمتار، ولها زهر أبيض عنقودي، وأوراقه ناعمة، وتنبت في الأراضي الحارة[١٦]. ويعد من النباتات العطرية التي عرفت منذ قديم الزمان، وهو شبيه بورق الزيتون غير أنه أعرض منه وألين وأشد خضرة، وهو طيب الرائحة تتحول أوراقه إلى اللون البني عند النضوج، ويمكن الاستظلال به عند اشتداد الحرارة، وهذا النوع ينتشر كثير منه في المغرب ومصر والحبشة[١٧]. و تعمِّر شجرة الحناء ثلاث سنوات وأكثر، وهي في معظمها من نباتات المناطق الاستوائية، حيث تحتاج إلى حرارة مرتفعة صيفاً، وتدخل في طور السكون شتاءً، وتحتاج إلى تربة خصبة وأفضلها الصفراء الخفيفة[١٨].

اختلف الباحثون والعلماء في الموطن الأصلي لشجرة الحناء، فقد ذكر داوود الأنطاكي أن موطنها الأصلي جزائر السوس[١٩] وما يليها، ثم تحمل إلى باقي أقاليم العالم، على حين تشير دائرة المعارف الإسلامية إلى أنها تنبت في الأرض الصالحة في نواحي إفريقيا الشمالية وبلاد فارس والهند، أما ابن البيطار فيذكر أن شجرها بأرض العرب كثير، وبعضهم أشار إلى أن مهدها الأصلي الجزيرة العربية، وبلاد فارس، وأما صاحب تاج العروس فيذكر أن الجزيرة العربية هي مهد قديم لنبات الحناء نظراً إلى التسميات التي أطلقت على عدة مواضع تزرعه وتنمو فيها، هذا فضلاً عن وروده في كثير من الأشعار

العربية القديمة، واستعارة بعض اللغات المعاصرة أسماء الحناء من العربية القديمة، فإن هذا كله يشير باحتمال كون الجزيرة العربية هي المهد الحقيقي لهذا النبات[٢٠].

ولعل أقدم الإشارات التاريخية لدينا عن الحناء ما يرتبط بالمصريين، فقد عرف قدماؤهم هذا النبات واستعملوا مسحوقه في التحنيط، لأنه نبات يقاوم الفطريات والبكتيريا[٢١]، كما استخدموه في دهن أظافرهم، حيث وجدت آثاره على أيدي موميات عمرها خمسة آلاف سنة[٢٢]. ثم تواصل استخدام الحناء عند الشعوب القديمة الأخرى كالكنعانيين والعبرانيين واليونان والرومان الذين اتخذوا أكاليلهم الجنائزية من فروعه المزهرة، ثم انتشر في بلاد حوض البحر المتوسط الأخرى[٢٣].

والعرب يطلقون على الحناء اسم «فاغية»، فهي لا تذوب كثيراً في الماء البارد، ولذلك تستخدم العرب بعجنها في الماء الدافئ، كما أن فائدتها تنعدم في الماء الساخن، وقد أشار علماؤنا العرب إلى هذا النبات في كتبهم العديدة، ولعل من أقدمهم أبو حنيفة الدينوري، في كتابه المسمى «النبات» حيث قال عنه: «الحناء شجرهُ كبار مثل شجر السدر، وله فاغية وهي نوره، وعناقيده متراجفة، إذا انفتحت أطرافها شبهتها بما ينفتح من الكزبرة، إلا أنه أطيب رائحة، والفاغية كل نورة طيبة الرائحة...، حتى أن الفاغية غدت اسماً آخر للحناء....، وهي بأرض العرب كثيرة....»[٢٤].

ب. الحناء في التراث الإسلامي

يرجع استخدام الحناء إلى زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، فهو أول من اختضب به من البشر، وأما بالنسبة للحناء في القرآن والسنة فلم يرد ذكر لهذه المادة بالاسم، إلا أنه ورد ذكر الشيب– الذي له علاقة بالحناء– في آيات قرآنية عدة بينت أن الشيب مرتبط بتقدم العمر وهو في الأصل شيب الشعر، وقد يكون هذا الشيب سمة وقار وجلال، غير أن مداراته وإخفائه قد يكونان مستحبين أو مندوباً إليهما، وهذا ما بينته السنة الشريفة، أو قد يكون السبب في جعل الخضاب مستحباً، أنه ذو أثر حسن في نفوس المحيطين بالمختضب، وهذا الأمر يتضح في بعض أحاديث الرسول (ص) الذي استحب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة، كما اقتدى الرسول(ص) وأصحابه بجده إبراهيم عليه السلام في صبغ شعورهم ولحاهم بالحناء[٢٥]. أما طريقة اختضاب الشعر فقد ذكرت المصادر أن أوراق الحناء غنية بالمادة الصبغية التي يستحضر منها– بعد تجفيفها وسحقها– صباغ يستفاد منه في الصبغة الحمراء أو السوداء، وتذكر تلك المصادر أن بعض الشعوب كانوا يخضبون بصباغة شعر الرأس واللحية، فإذا صبغ به الشعر الأسود مال إلى اللون القرمزي، أما الشعر الفاتح فيستحيل أحمر داكناً، ويمزج مسحوق الحناء بماء دافئ ثم ينظف الشعر بعناية ويعالج

بالمعجون الناتج من هذا المزيج، ويجب أن يظل المعجون مثبتاً بالشعر لمدة ساعة، وإذا أريد أن يكون اللون أسود داكناً، فإنه يجب أن يصبغ بمعجون مركب من الرنك– وهو نبات يستخرج منه النيلة– ثم يعالج الشعر ثانية بالحناء مدة ربع ساعة بعد معالجته بالرنك للمحافظة على البريق المأثور عن الحناء(٢٦).

وأفضل طرق استعمال الحناء هو أن توضع في كيس بلاستيكي على شكل مخروطي به ثقب رفيع من الأسفل، ثم تخلط بقليل من صبغة الشعر الأسود وقليل من مسحوق المحلب، ويوضع هذا الخليط داخل الكيس ويربط من أعلى، ويترك حتى يجف، ثم تزال بالمسح بقليل من الزيت، أما ذوو البشرة الجلدية الحساسة والرقيقة، فتجنباً لحدوث أي التهاب للبشرة، تخلط الصبغة مع قليل من المحلب والماء وتصب في الكيس البلاستيكي، وتستعمل مباشرة و تترك على الجسم لمدة نصف ساعة ثم تزال وتغسل بالصابون جيداً، وحتى تكون الحناء فعالة في صبغ الشعر لا بد من خلطها بالخل أو الليمون، كما يمكن خلط الحناء بنبات الكركديه للحصول على اللون البني البندقي، أما للحصول على اللون الأصفر الكستنائي فتخلط الحناء بقليل من الشيح والبابونج، أما للحصول على اللون الطوبي فتخلط الحناء بقليل من قشر الباذنجان الأسود(٢٧).

ثالثاً ـ الوظيفة الجمالية ـ الاجتماعية والطبية (العلاجية ـ الصحية) للحناء وعناصرها الزخرفية:

الحناء باعتباره فناً شعبياً، يؤدي كغيره من الفنون الشعبية وظائف في حياة الإنسان والجماعات، وبما أن الحناء من وسائل الزينة للإنسان الفلسطيني وخاصة المرأة، فقد انتشر انتشاراً واسعاً في وقت كانت وسائل الزينة الأخرى قليلة، ولهذا اتخذ هذا الإنسان وسيلة أثبت وأبقى لزينته وخاصة عند المرأة(٢٨).

وللحناء في المجتمع الفلسطيني، ومنها المجتمع النابلسي خصوصية كونه يؤدي العديد من الوظائف المتعددة منها:

أ. الوظيفة الاجتماعية– الجمالية:

حيث جرت العادة وقبيل الليلة التي تسبق ليلة الدخلة (العرس) أن تحنى العروس وكذلك العريس، وقبيل مساء تلك الليلة بساعات توَزَّع صُرَرْ الحناء على الجارات والصديقات والقريبات في البلد من قبل أهل العريس بوساطة امرأة كبيرة في السن تعرف «بالعزّامة»، فإذا وصلت بيتاً من بيوت القرية بدأت بالزغاريد والأغاني، وهذا إشعار لأهل البيت أنهم مدعوون جميعهم إلى العرس، فيقوم أهل البيت بتقديم القهوة لها وفي بعض الأحيان قطع من الحلي الذهبية، فإذا وصلت بيت العريس قدمت هذه الحلي لهم، حتى إذا ما انتهت مراسم

الزواج سلمت «للعزامة» التي تقوم بدورها بترجيعها إلى أصحابها[٢٩]. وقد استعيض في الوقت الحالي عن المراسيم السابقة بتوزيع بطاقات دعوة إلى المدعوين لحضور وليمة العرس، وعادة ما تكون أغلب هذه الدعوات في يوم الجمعة لأنها عطلة رسمية.

وقد تبدأ مراسم الاحتفال في المساء في بيت العريس أولاً، وتشترك النساء والفتيات بالغناء والرقص، ثم يحملن الحناء، ويذهبن في موكب جماعي تضامني إلى بيت العروس فيما يشبه الزّفّة، وبعد أن يصلن يقمن بالغناء والرقص بشكل جماعي[٣٠]. وفي المقابل يقوم الرجال على مختلف مستوياتهم بالتوافد إلى بيت العريس في منزله زرافات ووحداناً، فيحيون هذه الليلة بالدبكة والسحجة والزغاريد حتى وقت متأخر من الليل، فهي ليلة الوداع والتعليلة، حيث يصل الفرح فيها إلى أعلى مستوى من الابتهاج والسرور، يتبادل فيه الجمع الأحاديث المتنوعة حتى وقت متأخر من الليل، وخلال ذلك يقدم للرجال والنساء المرطبات والمشروبات[٣١]، وبالتالي فإن ليلة الحناء تعبر عن نوع من التضامن الاجتماعي بين أهل البلد سواء على مستوى الرجال، أم على مستوى النساء وكذلك الأطفال.

و يلاحظ أن التمسك بهذه الترتيبات أخذ في الازدياد رغم ما يجره على العريس من تكاليف، لأن العروس صارت ترى فيه تعبيراً عن مكانتها الاجتماعية، وهي مكانة يجب أن تكون جديرة بالافتخار، كما أن هذا اليوم يعد يوماً فاصلاً بين حياة العزوبية وحياة الزواج، وفي ليلة الحناء أيضاً يتفاءل كل من أهل العريس والعروس خيراً، فهم يعدون أن الفرح قد قرب وأن المصاهرة بين الأسرتين أصبحت حقيقية لا مراء فيها، ولهذا فإن المجتمع الفلسطيني بفئاته كافة، وأماكن تواجده يعد الحناء فألاً حسناً وخيراً، وأنه اقتداء بالآباء والأجداد الذين كانوا يتخضبون بالحناء في أيام مسراتهم وأفراحهم، ولا يرضون عنه بديلاً[٣٢].

أما الوظيفة الجمالية للحناء فقد استعملت مادة الحناء كوسيلة أساسية للتزيين والتجميل، وخاصة للنساء في نابلس وبقية مناطق فلسطين، وهي في هذا الغرض تستخدم لنفس الأسباب التي تستخدم فيها أدوات الزينة الأخرى كالوشم والحلي وغيرها.

والحناء من مواد الزينة التي ما زالت تتربع على عرش الجمال لاستعمالاتها كثيرة في صبغ الشعر والتجميل، فهي تخلو من أية أضرار جانبية كالتي تحدثها المواد الكيمائية، لذلك أصبح استخدامها في كافة مستحضرات التجميل هو الشغل الشاغل للمهتمين بالأمر[٣٣]. ولم ينطفي سحرها وجمالها مع مرور الزمن ليس بين نساء الشرق فحسب، حيث موطن هذا التقليد، ولكن أيضاً بين نساء الغرب اللواتي أحببن التباهي بالشرقيات في أخذهن زينتهن،

ولعل السر في هذه المادة يكمن في تصميماتها المعقدة في بعض الأحيان، والتي يستغرق رسمها ساعات، ولونها الأحمر القاني الذي يتوهج، ورائحتها العطرة التي تفوح برائحة الطبيعة، ويكفينا فخراً أن الرسول (ص) أوصى بها لقيمتها الجمالية[٣٤].

كذلك شاع استعمالها مادةً للتجميل بين الطبقات والمستويات كلها، فاستعملتها سيدات القصور وحتى النساء الأكثر فقراً، ولم يقتصر استعمالها على النساء وحدهن، بل شاع استعمالها أيضاً بين الرجال منذ آلاف السنين، وقد كانت الحناء تستخدم كمستحضر تجميل في مصر الفرعونية عن طريق النساء اللائي يقضين بضعة ساعات في تزيين أنفسهن بها، واستمر العمل بها في تزيين البشرة والشعر والأظافر واليدين والأرجل وغيرها من أعضاء الجسم وبالتالي أصبحت مصدر تجميل محبباً إلى النفس في منطقة الشرق الأوسط[٣٥]. وإذا ما تيسر لنا زيارة المتاحف والمعابد التي تضم موميات قدماء المصريين فسنجد أنها أكبر دليل على ذلك، حيث نرى الخضاب الحنائي يغطي أظافر الأصابع في اليدين والقدمين، وهذا يدل على استخدامهم للحناء كمادة تجميلية[٣٦].

وتبدو الوظيفة الجمالية أيضاً في مظاهر الزينة كافة التي تهتم بها الفئات الشعبية في المناطق الفلسطينية في تزيين العروس في ليلة الحناء من الأطفال والنساء، ويتم توزيع مادة الحناء أيضاً على النساء والأطفال في مناسبات غير الزواج كالختان وعودة الحجاج[٣٧]. كما يعدّ الحناء في التراث الشعبي الفلسطيني من المواد الجالبة للفأل الحسن، فاستعماله هو نوع من التعبير عن الفرح والسرور، لذا فقد استخدم في بعض المناسبات الأخرى مثل حناء رجب وأيام العيدين.

وما زالت تقاليد الزواج في نابلس وفلسطين وكثير من الدول العربية تخصص يوماً كاملاً للحناء، تتزين فيه العروس وأفراد أسرتها وصديقاتها بأجمل رسومات الحنة، ولعل هذا التقليد يعكس إلى أي مدى حافظ المجتمع الفلسطيني على تراثه وتقاليده العريقة التي توارثها جيلاً بعد جيل، حيث إن الحنة بالنسبة لهذه الثقافة ليست مجرد رسومات ونقوش جميلة، لكنها تقليد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعادات والأعراف المتوارثة.

وغالباً ما تقوم النساء المدعوات في ليلة الحناء وخاصة الكبيرات في السن بتحنية أنفسهن والفتيات الصغيرات، وكثير منهن يحرصن على تزيين بناتهن بالحناء، ويتفاءلن بذلك حتى يعقب لبناتهن بشرى خير، فيتزوجن في المستقبل ويكون لهن مثل هذه الفرحة، وكل ذلك يتم وسط أغاني النساء ورقصهن، وغالباً ما يكون مضمون الأغاني تعبيراً عن جمال العروس وحسن زينتها وحنتها[٣٨].

أما طريقة التزيين بالحناء وخاصة للعروس في نابلس وأغلبية المناطق الفلسطينية الأخرى فتقوم الماشطة بالاستعانة ببعض المواد البسيطة في عملها مثل الزفتة وبعض الخيوط القطنية الغليظة حيث تقوم بتسخين مادة الزفتة، بينما تأتي بالخيط الغليظ وتربطه على شكل دائرة حول الرسغ تماماً، ثم تربط الخيط حول إصبع الإبهام وتنزله على امتداد الإصبع على باطن اليد، وتربطه بالخيط الملتف حول الرسغ، وهكذا تربط الأصابع كافة، بحيث تصبح اليد كلها مشبكة بالخيوط الممتدة على امتداد الأصابع حتى الرسغ. وبعد ذلك تأتي الماشطة بمسمار رفيع وتبدأ بغمسه بالزفتة المصهورة، ثم ترسم على باطن اليد بين فراغات الخيوط رسوماً متعددة كالدوائر والأشكال الهندسية الأخرى، ثم تحضر الماشطة الحنا المعجونة، وتبدأ بلصقها على اليدين في جميع النواحي، وبعد ذلك تلفهما بقطعة قماش لفاً محكماً، وكذلك تعمل مع القدمين، وعند فك القدمين واليدين في اليوم التالي تكون الخيوط قد تركت فراغاً بين اليدين والقدمين تتخلل الحنا مما يبرز هذه الرسومات(٣٩).

وهناك طريقة أخرى أبسط من السابقة لتحنية اليدين، وتستعمل عادة للفتيات الصغيرات والأطفال، حيث توضع في أيديهم قطعة من عجينة الحناء، ويغلقون أيديهم عليها، ثم توضع قطعة أخرى فوق أظافرهم، وتربط اليد وهي مضمومة فوق الحناء، وعند فكها تكون اليد قد اكتست لون الحناء، بينما هناك فراغات مكان خطوط اليد وعقد الأصابع(٤٠).

ولا يقتصر التزيين بالحناء على الكفين والقدمين، بل درج استخدامها أيضاً لصبغ شعر الرأس لكبار السن من النساء والرجال، وتتم تحنيته بالحناء السمراء أو الحمراء بعد عجنها سوياً بماء الشاي، حيث تؤخذ قطع الحناء وتوضع بين خصلات الشعر بالتدريج إلى أن يغطى الحناء كل الشعر، ثم يُغطى الشعر بقطعة قماش، ويترك لساعات عدة، وبعد ذلك يزال القماش ويغسل الرأس بالماء الساخن وينظف من عجينة الحناء، ويكون بذلك قد اكتسب لون الحناء(٤١).

ب. الوظيفة الطبية- العلاجية:

درج استخدام الحناء كدواء أيضاً، بالإضافة إلى وظيفته الجمالية التي بيناها، فمسحوق أوراق الحناء الجافة مضاد حيوي لكثير من أنواع البكتيريا، كما أنه يستخدم لصباغة الشعر والجلد(٤٢). وفي حالات الصداع يتم احضار قليل من الحنا المعجون بالماء، ثم توضع في قطعة قماش وتوضع فوق الرأس لمدة ربع ساعة فيزول الصداع الناتج عن الحرارة(٤٣)، وفي الوقت نفسه فإنها تعمل على تنقية فروة الرأس من الميكروبات والطفيليات والإفرازات الزائدة، ومنع قَشْر الشعر وتقليل إفراز العرق منه(٤٤). ولها أيضاً

تأثير قابض على الغدد الدهنية الموجودة في فروة الرأس حيث تعمل على إزالتها، كما أن الحناء لا تنفذ إلى جذور الشعر، وعند استعمالها كصبغة تظل في القشرة الخارجية بعكس بعض أنواع الصبغات الأخرى الكيميائية، كما تساهم في تقوية الشعر وتغذيته بما تحويه من مواد كربوهيدراتية وبروتينات تخترق الشعر وتغذي بصيلاته وتحميه من التقصف وتعطيه النعومة والملمس الناعم[٤٥]. وللحناء فائدة في معالجة ومنع تشققات الأيدي والأرجل وخاصة من أصحاب المهن اليدوية الصعبة، والتي تصيب أيديهم بالتشقق مثل البنَّائين والحجَّارة، وغيرهم من أصحاب المهن التي تصيب اليدين بالجروح والتشقق، حيث تم تحنيتها لفترة من الوقت[٤٦].

وتستخدم الحناء في علاج بعض أنواع الالتهابات الجلدية التي تحدث بين أصابع القدمين أثناء الصيف نتيجة كثرة المشي، والتي تسبب أيضاً العرق بين الأصابع، حيث تُحنّى المناطق الملتهبة بين أصابع القدم الأمر الذي يوقف سلخ وتشقق الجلد[٤٧]. كما تعمل على علاج القدم الرياضي (وهو مرض ناتج عن فطريات معينة)، كما تساعد في التئام البثور والقروح والجروح البسيطة التي تظهر على الجلد وخاصة إذا خلطت مع مادة الزفت[٤٨].

أضف إلى ذلك أن الحناء لها استعمال في معالجة بعض الأمراض التي تصيب جلد الإنسان أو بعض الأعضاء الخارجية كالفم واللسان وغيرها، وهي معالج قوي في إزالة الحكة والجرب والجدري واليرقان وآلام المفاصل، وتخفيض الحرارة وتنقية الصدر من البلغم وغيرها من الأمراض، وخاصة إذا خُلطت مع بعض الأعشاب البرية كالهندباء والعسل والتمر الهندي وغيرها[٤٩]. كما تدخل في بعض الصناعات مثل مستحضرات التجميل وطلاء الأظافر وصبغها وواقي العين والكحل واحمر الشفاه، وصناعة النسيج وبعض العطور[٥٠].

و مما زاد انتشار استعمالها في الأوساط الشعبية الفلسطينية هو اعتقاد هذه الفئات أن للحناء أثراً في زيادة الفاعلية الجنسية عوضاً عن كونه مادة للتخضيب لها لون جميل ورائحة طيبة[٥١].

ويجمل داوود الأنطاكي في كتابه «التذكرة» قبل أكثر من أربعمائة عام معظم هذه الاستعمالات الطبية لمادة الحناء بقوله: «... ليس في الخضابات أكثر سرياناً منه، إذا حُنّيت به اليد اشتدت حُمْرة البول..، وبذلك يَطْرد الحرارة ويفتَحْ السُّدَدْ، وطبيخه أو سحيقه عظيم النَّفْع في قَلعْ البُثور وأصناف القلاع، وماؤُه يفتح السُّدَدْ ويُذْهب اليَرَقان والطِّحال ويفَتِّتُ الحصى...، وَشُرْبُ مِثْقال من زَهْرِه بثلاثِ أوراقٍ من الماء والعسل، يَقْطع النَّزْلات وأصناف

الصداع ويُجفِّفْ الرُّطوبات كثيرة....، وهو مع السمن ودُهْن الوَرْد يَحِلُّ أوجاع الجنين والمفاصل سواء في ذلك الزهر وغيره...، ويَقْطع الجَرَبْ المُزْمِنْ ويَجْلو الآثار ويلحم الجراح، ويحلل الأورام، ويذهب قروح الرأس، ويصلح الشعر، وإذا عُجِنَ بماء الورد ويَسيرِ العُصْفر والزَّعفران، ولُطِّخَ به أسفل الرجلين عند مبادئ الجَدَري حُفِظَ العين منه»(٥٢).

ت. عناصرها الزخرفية:

ليس ثمة نمطية واحدة في ابتداع رسومات وأشكال الحناء وتصميماتها، إلا أن معظمها في فلسطين والدول العربية يماثل الزهور تماماً، حيث يتم وضعها حول قطعة متوسطة مع ترك فراغات مناسبة لإظهار البشرة بين الرسومات من خلالها، وقد تأثرت هذه التصميمات بالنماذج المستخدمة في المنحوتات والمنسوجات العربية، وكذلك الرسوم الموجودة على الحوائط القديمة(٥٣).

وعادة ما ترسم عندنا الأحرف الأولى من اسم العريس أو العروس داخل قلب، أو أشكالٍ أخرى تقليدية ومنها النجوم والدوائر وغيرها، أما الرسومات فهناك نقوش متنوعة تنسب إلى مكان نشأتها مثل النقش السوداني والخليجي والمغربي، وهذه النقوش لها ألوان متعددة منها الأحمر والأسود، ومنه المزدوج من الأحمر مع الأسود، وعادة ما يكون نقش العروس يختلف عن بقية النساء، وكذلك في طريقة توزيع الرسومات في اليدين، حيث تنقش من الأصابع وحتى الذراع، والأرجل من القدم إلى الركبة بنقوش ظاهرة(٥٤)، أما في مصر فيظهر في الحناء تصميم زهرة «اللوتس» كرمز شائع للجمال كما تظهر رسومات للعين التي ترمز للشمس والقمر.

رابعاً- نماذج من الغناء والشعر الشعبي النابلسي في ليلة الحناء:

يعد الزواج لدى الشعوب حقاً مقدساً مرتبطاً بالخصب والنسل والذرية، ولهذا فلا عجب أن الاحتفاء به يوجب أنواعاً من السلوك تنسجم مع عقائد وتقاليد كل واحد من الشعوب، والعرب- ومنهم الفلسطينيون- مثل أمم الأرض لهم تصوراتهم وتقاليدهم وعاداتهم، ومادام المسلمون عرباً وغير عرب يتفقون في كثير من الأمور العقائدية، فلا بد أن يتحدوا جميعاً في مظاهر وأنماط وسلوك تدل على الأهداف البعيدة لها، وإن اختلفت هذه المظاهر قليلاً أو كثيراً.

والزواج عموماً في نابلس والمدن الفلسطينية الأخرى يخضع لطقوس مشتركة مُزجت بالتقاليد والأعراف والتصورات السائدة في المجتمع، وما دامت الحناء عند العامة تجلب البركة فلا بأس من الاستعانة بها من أجل طقس من طقوس الحياة وهو الزواج، ومن هنا ارتبطت به وظهر ما يسمى «بليلة الحنة».

أ. مراسيم يوم الحناء النابلسية وطقوسها:

تعدّ ليلة الحناء من الليالي المشهورة في الأعراس الفلسطينية في كافة أنحاء فلسطين– بما فيها مدينة نابلس– وهي الليلة التي تسبق ليلة العرس (الزفاف)، وسميت كذلك لأنه يتم فيها تحنية العروس تمهيداً ليوم زفافها. وما زالت تقاليد هذه الليلة ومراسيمها متبعة في كل المناطق الفلسطينية، إلا أن الاتجاه العام الذي ساد خلال الربع الأخير من القرن العشرين أحدث تغيرات أساسية في تلك المراسم، تتمثل في إحياء احتفال تقدمه الفرق الموسيقية، وصار يكتفي في حناء العروس بأن يكتب الحرف الأول من اسم العريس بالحناء على راحة اليد اليسرى للعروس، والحرف الأول من اسمها على راحة يدها اليمنى، وأصبح تزيينها يتم في صالونات التجميل الحديثة[٥٥]. وبالرغم من ذلك ما زال عالقاً في الذاكرة الفلسطينية أن اليوم الذي يسبق يوم العرس يسمى (ليلة الحنة)، ولعل هذا التقليد الذي كان سائداً في المدن الفلسطينية منذ مئات وربما آلاف السنين يقيس إلى أي مدى حافظ هذا المجتمع بفئاته وتجمعاته على تراثه وتقاليده العريقة التي توارثها جيلاً عن جيل، والذي يعد الحنة ليست مجرد رسومات ونقوش جميلة، لكنها تقليد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعادات والأعراف التي توارثها.

وتبدأ مراسيم يوم الحناء في المجتمع النابلسي بخروج موكب النساء من بيت العريس إلى بيت العروس يتقدمهن رجال الحمولة وأهل العريس حيث يسير الموكب في مجموعات سيراً على الأقدام وتقوم فيه النساء بحمل الأواني التي فيها الحناء مغطاة بشراشف كبيرة مطرزة بالحرير يغلب عليها اللون الأحمر الغامق ويوضع حولها الزهور والشمع[٥٦]. وأثناء سير الموكب تقوم مجموعات النساء بترديد الأغاني والأهازيج التي تبين مدى الفرح والسرور عند أهل العريس بالرغم من الصعاب التي يلاقونها، وكذلك الصفات التي يتمتع بها أهل العروس، ومن هذه الأغاني: [٥٧]

وحنا مشينا من بلد لبلد ... وحنا مشينا على الحسن والبلد
وحنا مشينا من الصبح للعصر ... وحنا مشينا على الحسن والأصل
وحنا خطبنا البنت من بيها ... يا بيها يسوى قلاعه حلب
وحنا خطبنا البنت من خيها ... يا خيها يسوى قلاعه مصر
وحنا ذبحنا على ضرب ذبيحة ... تمنا وصلنا دار أبوك يا مليحة
وحنا ذبحنا على ضرب الحايل ... تمنا وصلنا دار أبوك يا بنت الحمايل

وخلال مسيرهن يطالبون الناس المارين من عندهن بتمني الحياة السعيدة للعرسان بقولهم:(٥٨)

يـــال على الحيطـــان اذكروا الله اذكـــرو الله عـــن هلعرســـان
يـــال علـــى الحذير ذكـــروا الله اذكـــرو الله عـــن هلعريســـ

وعند وصول الموكب إلى دار العروس تغني النساء(٥٩)

مسيكم بالخير يـــا نسايبنا مسيكم بالخير قومو بواجبنا
نسايـــب نسايـــب ديـــروا بالكـــم لينـــا
واحنـــا مـــا هوينـــا الزيـــن علـــى الأصـــل ماشينـــا
نسايـــب نسايـــب ديـــروا بالكـــم ليّـــا

وعادة ما تجتمع نساء الحي، وصديقات العروس في بيتها لوداعها قبل انتقالها إلى بيت الزوجية، حيث تبدأ مراسم تحنية العروس من قبل امرأة متخصصة في تزيين النساء وتحنيتهن تسمى (الماشطة) والتي تكون معروفة في القرية أو المدينة، أو تقوم بعض النساء من أقارب العريس بهذه المهمة، وفي بعض الأحيان يتجاوزعملها تمشيط الشعر وتحنية القدمين والكفين، حيث تتولى مهمة تزيين جسد العروس كاملاً مثل إزالة الشعر الزائد عن الوجه والحواجب والساقين واليدين وأماكن أخرى من الجسد فيما يسمى في اللهجة الدارجة (التحفيف)(٦٠).

وعادة ما تقوم النسوة بوضع قطع من القماش على يديّ ورجليها العروس حيث يلف حولهما، وأثناء ذلك تردد الأغنية الآتية: (٦١)

حنـــا يـــا حنـــا يـــا جليـــب الحنـــا أحمـــد عريســـ وخطيبتـــه منـــا
حنا يـــا حنا يـــا جليبة علـــى الكفة أحمـــد عريســـ وعروستـــه منـــا

ومما هو متعارف عليه أن يقوم أهل العروس بإبلاغ الماشطة بموعد الزفاف وموعد ليلة الحناء، ويتم الاتفاق معها حول كيفية تزيين العروس، حيث تقوم في نهار ليلة الحنا قبل المساء بعجن الحناء وتحضيرها حسب الطلب وحسب عدد النساء المراد تحنيتهن مع العروس، وتُعجن الحناء عادة بماء الشاي الذي يزيد من توضيح لونها المائل للحمرة، وتمزج بخميرة وبعض الحامض حتى ترفخ، أما أهل نابلس فيضيفون إلى هذه المواد أيضاً السماق والكرنفل (القرنفل) وكذلك ماء مغلياً بقشر الرمان، وتخمَّر حوالي ٢٤ ساعة(٦٢). وفي بعض الأحيان يُعجن الحناء ويحضَّر في بيت أهل العروس، أو في بيت الماشطة التي تحضر إلى بيت أهل العروس قبل المساء بساعات ومعها الحنا المعجونة وأدواتها الأخرى التي تستعملها في تزيين العروس والمتواجدات معها(٦٣).

ويعد حمام العروس في نابلس من التقاليد المهمَّة المتوارثة في المجتمع الفلسطيني، ومن أهم مراسم العرس، فعشية عرسها كانوا يحضرونها في موكب رسمي إلى حمام عمومي برفقة نساء العائلتين وهن يغنين ويصفقن ويزغردن متباريات وربما بلغ عددهن مئة، وفي الحمام تقدم المشروبات وتتولى غسل العروس امرأة خبيرة بهذا الطقس، ثم تعاد إلى منزل والدها في موكب احتفالي(٦٤).

وغالباً ما تقوم النساء المدعوات في ليلة الحناء وخاصة الكبيرات في السن بتحنية أنفسهن أو تحنية الفتيات الصغيرات، وكثيرات من النساء يحرصن على تحنية بناتهن من الحنا المرسلة لهن من أهل العروس، ويتفاءلن بذلك حتى يكون لبناتهن بشرى خير في التزوج في المستقبل وتكون لهن مثل هذه الفرصة، وكل ذلك يتم وسط أغاني النساء ورقصهن(٦٥).

ومما تجدر الإشارة إليه أن الحناء أصبح تقليداً متوارثاً لا يعمل اليوم بحيثاته مع بقاء وجود ليلة الحناء وممارسته عملية التحناية.

ب. نماذج من الأغاني الشعبية النابلسية في ليلة الحناء:

عَرَفَتْ ليلة الحناء أغنيات شعبية وتراثية خاصة بها، وغالباً ما يكون مضمون الأغاني تعبيراً عن جمال العروس، وحسن زينتها وحنتها، وعادة ما ترددها النساء الفلسطينيات في معظم المدن والقرى الفلسطينية بما في ذلك مدينة نابلس وريفها، مع بعض الاختلاف البسيط أو تغير بعض الكلمات، ومنها مثلاً ما ترده النساء الفلسطينيات في ليلة الحناء من الأغنية التي قيلت في الأميرة قطر الندى ابنة السلطان خُمارويه أمير مصر الطولوني التي زفت إلى الخليفة المعتضد العباسي في النصف من القرن التاسع الميلادي.(٦٦) ومنذ ذلك الوقت أطلقت الأغنية الشعبية التي تقول:

يالحنة يالحنة ... يا قطر الندى
يا شباك حبيبي يا ... عيني جلّاب الهوى
لحطَّك في شعري ... واضفر عليك(٦٧)

ومع البدء بتحضير الحناء والاحتفال بتحناية العروس تغني النساء على شكل تراويد (٦٨)

يالله تنخطب يا خيتي ... يالله تا انخطب
احمرو ومرطب حنانا ... واحمر ومرطب
مدى دياتك يالعروس ... مدي دياتك
مثل خياتك نريدك ... مثل خياتك

وعلى لسان المرأة التي تقوم بتحناية العروس تغني النساء [٦٩]

مرقنـــي يـــا بنـــات تامنّـــي أحنيّهـــا
مِـــدّي إيديـــك مديها تمنـــي أحنيهـــا
والوجـــه دورة قمـــر والنجـــم حايط فيها
الغـــرة ريشـــة نعام مسعد يللـــي شاريها
واللي مثلك كالعزال والقلـــب هـــايم فيها
حنـــاك شيلـــه بيلة وانقوشك ملا الفنجان
واللي أخـــذك مسعد واللي دشـــرك ندمان

وتغني النساء بطريقة توحي بالتسريع بالاحتفال بليلة الحناء فيقلن: [٧٠]

يـــا محنيـــة العرايســـ بنصـــ الليل وادعسي عالماكينة وعلى سروج الخيل
يا محنيـــة العرايس وامشـــي بالنهار وادعســـي عالماكينة وعلى كنوز المال
يـــا محنيـــة العرايس تعـــالي العصر وادعسي عالماكينة منشان بنت الأصل

ومن هذه الأغاني ما يعبر عن جمال العروس والتي تأتي على لسان صديقاتها أثناء الحناء حيث تقول النساء: [٧١]

لِيْـــكِ مـــا إليـــكِ يـــا ابْنيّـــة خَضَّبـــوا إيديـــكِ بالحنَّـــا
حنّـــاك امرطـــب يـــا فلانـــة حنـــاك مرطـــب يـــا هيّـــة
فَرْشِـــي المقَصَّـــب يـــا فلانـــة فرشـــي المقصَّـــب يـــا فلانـــة

وتقول أيضاً: [٧٢]

مـــدي دياتـــك مـــدي دياتـــك يـــا أم العيـــون العسليـــة
وأنـــا بدالـــك وأمـــي بدالـــك يـــا أم العيـــون العسليـــة

وهناك أغان من المفترض أنها على لسان العروس ليلة الحناء، وفيها تعبير عن حزنها على فراق أهلها وحباً لهم، وكذلك تشبث أمها وصديقاتها بها ومن هذه الأغاني: [٧٣]

قولـــوا لَبـــويْ الله يْخلّي أولاده استَعْجَلْ عليّ وطَلّعني مِنْ بلادُه
قولـــوا لَبـــويْ الله يْخلّـــي وَلده استَعْجَلْ عليّ وأطلعني مِنْ بلده

كما يقال على لسان العروس مخاطبة أمها، طالبة منها أن تحضر لها الأمتعة التي عادة ما تأخذها العروس معها إلى بيتها الجديد، إذ كانت العادة أن تخرج العروسة من بيت والدها ومعها الشي كثير إلى بيتها الجديد كالفراش وأدوات المطبخ وغيرها[٧٤].

يـــا الإمّ يـــا الامّ شـــدّي ليَّ مَخَدّاتـــي يـــا الام يـــا الام شـــدي لي مخداتـــي
واطلعت يـــا الام ما ودّعـــت رْفيقاتي واطلعت يـــا الامّ ما ودعـــت رْفيقاتي
واطلعـــت يـــا الام ما ودّعـــت جاراتي واطلعـــت يـــا الام ما ودّعـــت جاراتي

وإذا كانت العروس «غريبة» بمعنى أنها ستتزوج من شاب من غير بلدها تقول النسوة على لسانها: (٧٥)

يا أهل الغريبة طلوا على غريبتكم وإن قصرت خيولكم شدو مْروِّتكم
يا أهل الغريبة طلوا في السنة مرّة وإن قصرت خيولكم يعينكم الله

ويقلن أيضاً(٧٦)

يا أهل الغريبة لا يجيرلكم خاطر وشو عمامكم عن ابن الخال هالشَّاطر
شو عمامكم عن ابن الخال والعم يا أهل الغريبة لا يبرى لكم ذمَة

وتتحسر رفيقات العروس على رفيقتهن التي ستتزوج وتذهب إلى بيت الزوجية تاركة إياهن دون أن تستطيع أن تعطيهن من وقتها: (٧٧)

يا ميخذ ارفيقتي الله يبارك لك يطول عميرك وتظل رفيقتي عندك
والبارحة يا ارفيقتي كنت انا وانت وايش العمل يا رفيقتي تاتجوزتي
والبارحة يا رفيقتي كنا في الهيش واليوم أصبحت مع العصفور أبو الريش

وتتغزل الرفيقات أثناء تحنية العروس بجمالها وشقرة شعرها: (٧٨)

حنّاك مرطب يا فلانة حِنّاكِ مرَطّب يا هيَّ
شَعْرك قصب نصب يا فلانة يا خيمة الباشا يومن نصب يا هي
يا أم شعر أشقر يا فلانة قلب وتفكر يا هي

وتواصل الرفيقات التغزل برفيقتهن وجمالها، فيصفن ملابسها والحضور الكبير في هذا العرس الذي يتحدث عنه الناس (٧٩)

يا لابسة الأحمر عليكي لايك عرسك حضرته الخلايق
يا لابسة الفستان مرشوش بريحة زفة والله مليحة

أما في منزل العريس أثناء تحضير قريباته للحنا تردد الحاضرات(٨٠):

هالحنا اللي جبلناه بيجي رطلين واوقية
كله في عرس هاظا ياريت منّه الذرية

وعند غروب الشمس شمس الخميس تحمل قريبات العريس الحنا إلى بيت والد العروس وهن يغنين: (٨١)

الليلي حناكِ يا افلانة على خير إبْنراكْ يا فلانة
الليلي احفوفك يا افلانة على خير بنشوفك يا فلانة

وبينما تسهر وتحتفل النسوة في بيت العروس، تستمر احتفالات الرجال في الدبكة والعتابا، حيث يغني القوِّيل أثناء الدبكة في الساحة: (٨٢)

الله أكبر ليلة حناها ليلة تتحنّى ولا نراها
يا نجوم السما يَسْمع لُغاها هالبنت الشقرا الحلوة المزيونا

ويغني الرجال على لسان العريس: (٨٣)

والليلي ليلة الحنّا وبات العزب يسْتَنّا
وهاتوها بلا حنا وأنا رجال مِستعجل

ولا تخلو تلك الليلة من تحنية العريس أيضاً، حيث يلتف حوله الشبان من أصحابه وأقربائه ليحنّوا له يديه، بينما تصطف الفتيات خلفهم مطلقات الأهازيج للعريس، وهو يمد يديه للحنا: (٨٤)

سبّل عيونو ومد إيدو يحنونو وطفل زغير ما حل أهلو يبيعونه

وتغني النسوة أيضاً للعريس حيث يذكرن صفاته والتمني له بحسن الخاتمة: (٨٥)

جبنا الحنة للعريس والعطر عبدلاته
ونذكرالله ونخزي ابليس وجينا نهني خواته
وجبنا الحنة للعريس والعطر عقمصانه
ونذكرالله ونخزي ابليس وجينا نهنيله خواله

حتى أن أغاني ليلة الحنا في العرس الفلسطيني في نابلس تذكر أسماء بعض الأماكن التي كان يأتي منها الحناء ومن هذه التراويد: (٨٦)

منين جبت الحنة يا طيب الأصل
من كل عطار شوية وأكثرتيه من مصر

ومنها ما يذكر أيضاً مكان جلب الكسوة للعروس بالإضافة إلى مكان جلب الحناء حيث تردد النساء في نابلس بعض الأغاني التي تدل على ذلك ومنها: (٨٧)

منين جبت الحنا يا ولد يا عريس الحنا من عنا والبدلة من باريس
منين جبت الحنا يا ولد يا ريان الحنا من عنا والبدلة من عمان
منين جبت الحنا يا ولد يا مبسوط الحنا من عنا والبدلة من السوق

وهذه الأبيات ربما لا تكون المصدر الحقيقي، فلربما إن هذا نوع من الإطراء ليس أكثر أو أنها جاءت لتناسب السجع في البيت، ومنها أيضاً على سبيل المثال: (٨٨)

مــن ويــن جبت الحنــا يا... يــا سبع الحنــا من يافــا والكسوة مــن السبع
مــن وين جبــت الحنا يا... يــا عريس والحنــا من يافا والكســوة من باريس
من ويــن جبت الحنــا يا... يــا شملة والحنــا من يافا والكســوة من الرملة
مــن ويــن جبت الحنــا يا... يــا أمين والحنا مــن يافا والكســوة من جنين
مــن وين جبت الحنــا يا... يــا أستاذ والحنا من يافــا والكسوة من الحجاز

وهكذا –ومن خلال مطالعتنا لنماذج من أغاني ليلة الحناء في العرس الفلسطيني في المدن الفلسطينية ومنها مدينة نابلس– نجدها أغاني شبه شاملة، فهي لا تقتصر على العروس أو العريس، بل تتعداهما إلى الأهل والأقارب والمناسبات، وصديقات العروس من جيلها، وأصدقاء العريس، وصحيح أننا نلمس في بعضها مسحة من الحزن الممزوج بالفرحة، ذلك انها تقال في الليلة الأخيرة من حياة البنت في بيت أهلها، وهي تمد يديها للحناء ودموعها تسكب على خديها ألماً لأنها ستخرج من بيت لبيت، ويصبح ولاؤها منذ الليلة لزوجها وعملها في بيت الزوجية الجديد، لكنها في الوقت ذاته تشع الفرحة من خلال دموعها، فكم تمنت وحلمت بفارس الأحلام وإنجاب الأطفال، وها هو الأمل يتحقق. ومن ناحية ثانية، فإن صديقات الفتاة يرددن لها مؤكدات على العهد، وبأنهن مثل أخواتها تماماً، ولن تنقطع العلاقة بها بعد الزواج، وهن يرفعن من شأنها أيضاً، فهي كالصيد في يد العريس لجمالها وحسن أخلاقها، ومع أنها ستذهب مع زوجها إلى مكان آخر، لكنهن يوصينها ويذكرنها أن تحافظ على شرف العائلة والصداقة فهي عزيزة النفس.

ولعل كل فتاة تشارك ليلة الحناء تلك تتخيل اليوم القادم يأتي بفارسها فوق حصانه الأبيض. وإن كانت تزوجت فلعل ذاكرتها تعود بها إلى الوراء إلى تلك الليلة التي تبدأ بعدها حياة جديدة، فيها الإنجاب والعمل، وفيها ما يخبئه الغد من سعادة أو ترح، لكنها في النهاية على كل حال ليلة لا تنمحي من عقل الفتاة الباطن أبداً.

الهوامش:

١. نبيل علقم «العدوان الإسرائيلي على التراث الفلسطيني». من وقائع المؤتمر الأول للتراث الشعبي الفلسطيني «هوية وانتماء». رام الله: جامعة القدس المفتوحة، إشراف د. حسين السلوادي، ٢٠٠٧، ص١٧٨.

٢. شريف كناعنة، من نسي قديمه تاه "دراسات في التراث الشعبي والهوية الفلسطينية". عكا: دار الأسوار، ط١، ٢٠٠٠، ص١٦، خليل حسونة، الفلوكلور الفلسطيني "دلالات وملامح". رام الله: المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، ٢٠٠٣، ص١١.

٣. جميل السلحوت وزميله، صور من الفلوكلور الفلسطيني، القدس: منشورات الرواد، ج١، ١٩٨٢، ص١٠.

٤. سليم عرفات المبيض، الحصيدة في التراث الشعبي الفلسطيني، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، د.ت، ص٥.

٥. علي فلاح محسين "الأهزوجة الشعبية في العرس الفلسطيني" مجلة المأثورات الشعبية، قطر، ع٣٥ لسنة ١٩٩٤. من كتاب: "دراسات وأبحاث في الأدب الشعبي الفلسطيني"، تحرير: يحيى جبر وعبير حمد، ص٧.

٦. المرجع نفسه، ص٨.

٧. عبد اللطيف البرغوثي " التراث الشعبي الفلسطيني" من كتاب: التراث الشعبي الفلسطيني "جذور وتحديات". تحرير: عبد العزيز أبو هدبا، الطيبة: مركز إحياء التراث، ١٩٩١، ص٤٥.

٨. خليل حسونة، المرجع السابق، ص١٥.

٩. جامعة القدس المفتوحة، المأثورات الشعبية، عمان: جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٩، ص٣٥١.

١٠. المرجع نفسه،، ص٣٥٣.

١١. المرجع نفسه، ص٣٥٤.

١٢. خليل حسونة، المرجع السابق، ص٤٢.

١٣. هدى حمودة، الأغاني الشعبية الفلسطينية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ط١، ٢٠١٢م، ص٩-١٠.

١٤. ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين بن محمد الإفريقي المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط٣، ١٩٩٤م، مج١، ص٣٥٧-٣٥٨.

١٥. محمد حمامي، الحناء فن ونفش عند العرب، بيروت: دار الشرق العربي، د.ت، ص٣.

١٦. ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار "الحيوان والنبات"، تحقيق: عامر النجار، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠١١م، ص٣٧٧، محمد حمامي، المرجع السابق، ص٣.

١٧. ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص٣٧٨، عزة خليل، نماذج من نقش الحناء، الرياض: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣، ص٧.

١٨. عزة خليل، المرجع السابق، ص٧.

١٩. جزائر السوس: تقع بلاد السوس في المغرب وإلى الشمال منها، وكانت عاصمتها مدينة طنجة. انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله الرومي (ت٦٢٦/١٢٢٩م)، معجم البلدان، تحقيق: فريد الجندي، بيروت: دار الكتب العلمية، ج٣، ط١، ١٩٩٠م، ص٣١٩.

٢٠. محمد حمامي، المرجع السابق، ص٤.

٢١. عزة خليل، المرجع السابق، ص٦، ثريا نصر، تاريخ أزياء الشعوب، القاهرة: عالم الكتب، ط٢، ٢٠٠٧م، ص١٥١.

٢٢. مايسة الشرنوبي، أجمل النماذج والرسومات في النقش بالحناء، القاهرة: دار الطلائع، ٢٠٠٣،ط١، الصفحات ٨، ٤٠.

٢٣. محمد حمامي، المرجع السابق، ص٥.

٢٤. ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص٣٧٨، محمد حمامي، المرجع السابق، ص٤.

٢٥. محمد حمامي، المرجع السابق، ص٤، اسماعيل شندي، "حكم الخضاب في الشريعة الإسلامية، مجلة جامعة القدس المفتوحة، ع٣، رام الله: جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٤، ص٩٧، وللمزيد من التفاصيل حول حكم الإسلام في الخضاب والحناء، انظر: اسماعيل شندي، المرجع السابق، ص٩٦-١٠٥.

٢٦. محمد حمامي، المرجع السابق، ص٦.

٢٧. عزة خليل، المرجع السابق، ص١٠.

٢٨. أكرم الراميني، نابلس في القرن التاسع عشر "دراسة من سجلات المحكمة الشرعية"، عمان: دار الشعب، ١٩٧٩م، ص١٧٦.

٢٩. سليمان عبيدات، دراسة في عادات وتقاليد المجتمع الأردني، طرابلس: مؤسسة مصري للتوزيع، د.ت، ص١٤٥.

٣٠. حسين العطاري، الأغنية الشعبية الفلسطينية، رام الله: بيت الشعر الفلسطيني، ط١، ٢٠٠٨، ص٢٦٤، زهير إبراهيم سيف وزميله، "أغاني العرس الفلسطيني في التراث الشعبي"، مؤتمر التراث الشعبي الفلسطيني الثاني في القدس الشريف "هوية وانتماء"، رام الله: جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٩، ص٣٨، نمر سرحان، موسوعة الفلوكلور، عمان: د.ت، ط٢، ١٩٨٩م، ق١، ص٢١٥.

٣١. مقابلة شخصية مع مجموعة من كبار السن في مدينة نابلس بتاريخ ٢٠١٢/١٠/٨.

٣٢. سليمان عبيدات ، المرجع السابق، ص١٤٦-١٤٧.

٣٣. معهد الأبحاث التطبيقية، التاريخ الزراعي النباتي في فلسطين، القدس، ٢٠٠٢م، ص٥٥.

٣٤. هدى سراج، "الحناء، جمال يدوم"، مجلة العربي، العدد٥٨٠، الكويت، ٢٠٠٧، ص١٧٢.

٣٥. مايسة الشرنوبي، المرجع السابق، ص٤٠.

٣٦. مايسة الشرنوبي، فن النقش بالحناء، القاهرة: مكتبة ابن سينا، د.ت، ص٦.

٣٧. جامعة القدس المفتوحة، التربية الوطنية، عمان: جامعة القدس المفتوحة، ٢٠١٠، ص٤٤٨.

٣٨. نمر سرحان، المرجع السابق، ق١، ص٢١٥-٢١٦.

٣٩. نمر سرحان، المرجع السابق، ق١، ص٢١٦، آمال المصري، أزياء المرأة في العصر العثماني، القاهرة: دار الآفاق العربية، ط١، ١٩٩٩م، ص١٣٢، نفس المقابلة الشخصية في ٢٠١٢/١٠/٨.

٤٠. نمر سرحان، المرجع السابق، ق١، ص٢١٦.

٤١. المرجع نفسه، ص٢١٧.

٤٢. محمد حمامي، المرجع السابق، ص٤، عزة خليل، المرجع السابق، ص٨.

٤٣. ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص٣٧٩، نمر سرحان، المرجع السابق، ص٢١٧.

٤٤. ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص٣٧٩، معهد الأبحاث التطبيقية، المرجع السابق، ص٥٥، عزة خليل، المرجع السابق، ص٨.

٤٥. عزة خليل، المرجع السابق، ص٩.

٤٦. نمر سرحان، المرجع السابق، ق١، ص٢١٧، محمد حمامي، المرجع السابق، ص٤.

٤٧. نمر سرحان، المرجع السابق، ص٢١٧، مايسة الشرنوبي، فن النقش بالحناء، المرجع السابق، ص٧، عزة خليل، المرجع السابق، ص٨.

٤٨. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار "الأعشاب"، ج٢١، تحقيق: نوري القيسي ومحمد الدليمي، بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٩٩٩، ص١٨٣، مايسة الشرنوبي، أجمل النماذج، المرجع السابق، ص٩.

٤٩. ابن فضل الله العمري، الأعشاب، ج٢١، المصدر السابق، الصفحات١٥٣، ١٨٣. ابن فضل الله العمري، "الحيوان والنبات"، المصدر السابق، ص٣٧٩.

٥٠. مايسة الشرنوبي، أجمل النماذج، المرجع السابق، ص٤٠-٤١، عزة خليل، المرجع السابق، ص٩، معهد الأبحاث التطبيقية، المرجع السابق، ص٥٥.

٥١. نمر سرحان، المرجع السابق، ص٢١٥.

٥٢. الأنطاكي، داوود بن عمر (ت ١٠٠٨هـ/١٥٩٩م). تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ج١، د.ت، ص١٤٦.-

٥٣. مايسة الشرنوبي، أجمل النماذج، المرجع السابق، ص٤١.

٥٤. هدى سراج، المرجع السابق، ص١٥٧.

٥٥. عبد اللطيف البرغوثي، "عادات الزواج في الريف الفلسطيني"، مجلة التراث والمجتمع، ع٣١، البيرة: جمعية إنعاش الأسرة، ١٩٩٨، ص٧٢.

٥٦. محمد جبر "أفراحنا الشعبية تقاليدها ودلالاتها". مجلة التراث والمجتمع، ع١٦، البيرة، جمعية إنعاش الأسرة ،١٩٨٢، ص١٠٤، عبد العزيز أبو هدبا، ديرابان، البيرة: جمعية إنعاش الأسرة، ١٩٩٠، ص٢٥٧، نفس المقابلة الشخصية في ٢٠١٢/١٠/٨.

٥٧. نفس المقابلة الشخصية في ٨/١٠/٢٠١٢.

٥٨. نفس المقابلة الشخصية في ٨/١٠/٢٠١٢.

٥٩. نفس المقابلة الشخصية في ٨/١٠/٢٠١٢.

٦٠. نمر سرحان، المرجع السابق، ق١، ص٢١٥.

٦١. نفس المقابلة الشخصية في ٨/١٠/٢٠١٢.

٦٢. نفس المقابلة الشخصية في ٨/١٠/٢٠١٢.

٦٣. نمر سرحان، المرجع السابق، ق١، ص٢١٥، جميل السلحوت، المرجع السابق، ج١، ص١٣٧.

٦٤. فيكتور سحاب، الحياة الشعبية في فلسطين "الفنون والتقاليد الشعبية والحرف اليدوية"، الموسوعة الفلسطينية،ق٢، مج٤، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، ١٩٩٠م، ص٥٩٨.

٦٥. نمر سرحان، المرجع السابق، ق١، ص٢١٦.

٦٦. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، المنصورة: مكتبة الإيمان، د.ت، ج١١، الصفحات٧١، ٧٧.

٦٧. محمد قنديل البقلي، وحدة العادات والتقاليد بين مصر والشام، القاهرة: مكتبة الأنجلو- مصرية، ١٩٦٣م، ص٣٧.

٦٨. جميل السلحوت، المرجع السابق، ج١، ص١٣٧-١٣٨.

٦٩. عبد اللطيف البرغوثي، عادات الزواج، المرجع السابق، ص٧٢، حسين العطاري، المرجع السابق، ص٢٧٩، هدى حمودة، المرجع السابق، ص٢٢.

٧٠. حسين العطاري، المرجع السابق، ص٢٧٦.

٧١. محمود النمورة، الفلكلور في الريف الفلسطيني، القدس، مطبعة الأمل، ١٩٩٨م، ص١٠٥.

٧٢. هدى حمودة، المرجع السابق، ص٢٤.

٧٣. محمد جبر، المرجع السابق، ص١٠٤، حسين العطاري، المرجع السابق، ص٢٦٥، نمر سرحان، المرجع السابق، ق١، ص٢١٦.

٧٤. حسين العطاري، المرجع السابق، ص٢٦٥-٢٦٦.

٧٥. محمد جبر، المرجع السابق، ص١٠٥.

٧٦. حسين العطاري، المرجع السابق، ص٢٦٦–٢٦٧.

٧٧. محمد جبر، المرجع السابق، ص١٠٥، حسين العطاري، المرجع السابق، ص٢٦٩.

٧٨. عبد اللطيف البرغوثي، عادات الزواج، المرجع السابق، ص٧٢، محمد جبر، المرجع السابق، ص١٠٥–١٠٦.

٧٩. حسين العطاري، المرجع السابق، ص٢٧٢.

٨٠. عبد اللطيف البرغوثي، عادات الزواج، المرجع السابق، ص٧١.

٨١. المرجع نفسه، ص٧٢.

٨٢. عبد اللطيف البرغوثي، عادات الزواج ، المرجع السابق، ص٧١، محمد جبر، المرجع السابق، ص١٠٦.

٨٣. عبد اللطيف البرغوثي، عادات الزواج ، المرجع السابق، ص٧١.

٨٤. علي محسين، المرجع السابق، ص١٠٢.

٨٥. هدى حمودة، المرجع السابق، ص٢٧.

٨٦. نهى قسيس نفل، فرحة الأغاني الشعبية الفلسطينية، عمان: دار ورد للنشر، ط١، ٢٠١٠م، ص٣٠.

٨٧. نفس المقابلة الشخصية في ٢٠١٢/١٠/٨.

٨٨. سليمان عبيدات، المرجع السابق، ص١٤٦.

المصادر والمراجع:

أولاً- المصادر:

١. الأنطاكي، داوود بن عمر (ت١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م). تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، تحقيق: على شيري، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، جزآن، د.ت.

٢. ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار «الحيوان والنبات» تحقيق: عامر النجار، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠١١.

٣. ابن فضل الله العمري، المسالك والممالك، ج٢١ «الأعشاب»، تحقيق: نوري القيسي ومحمد الدليمي، بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٩٩٩م.

٤. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م). البداية والنهاية، المنصورة: مكتبة الإيمان، د.ت.

٥. ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين بن محمد الإفريقي المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م). لسان العرب، ١٦ جزء، بيروت: دار صادر، ط٤، ١٩٩٤م.

٦. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله الرومي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م). معجم البلدان، تحقيق: فريد الجندي، ٧ أجزاء، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م.

ثانياً- المراجع:

١. إسماعيل شندي، «حكم الخضاب في الشريعة الإسلامية»، مجلة جامعة القدس المفتوحة، ع٣، رام الله: جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٤م.

٢. أكرم الراميني، نابلس في القرن التاسع عشر «دراسة من سجلات المحكمة الشرعية»، عمان: دار الشعب، ١٩٩٣م.

٣. آمال المصري، أزياء المرأة في العصر العثماني، القاهرة: دار الأفاق العربية، ط١، ١٩٩٩م.

٤. جامعة القدس المفتوحة، المأثورات الشعبية، عمان: جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٩.

٥. جامعة القدس المفتوحة، التربية الوطنية، عمان: جامعة القدس المفتوحة، ٢٠١٠.

٦. جميل السلحوت وزميله، صور من الفلكلور الفلسطيني، جزآن، القدس: منشورات الرواد، ١٩٨٢م.

٧. حسين العطاري، الأغنية الشعبية الفلسطينية، رام الله: بيت الشعر الفلسطيني، ط١، ٢٠٠٨م.

٨. خليل حسونة، الفلكلور الفلسطيني «دلالات وملامح». رام الله: المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، ٢٠٠٣.

٩. زهير إبراهيم سيف وزميله، «أغاني العرس الفلسطيني في التراث الشعبي» مؤتمر التراث الشعبي الثاني في القدس «هوية وانتماء». رام الله: جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٩م.

١٠. سليم عرفات المبيض، الحصيدة في التراث الشعبي الفلسطيني، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، د.ت.

١١. سليمان عبيدات، دراسة في عادات وتقاليد المجتمع الأردني، طرابلس: مؤسسة مصري للتوزيع، د.ت.

١٢. شريف كناعنة، من نسي قديمه تاه «دراسات في التراث الشعبي والهوية الفلسطينية»، عكا: دار الأسوار، ط١، ٢٠٠٠م.

١٣. عبد العزيز أبو هدبا، ديرابان، البيرة: جمعية إنعاش الأسرة، ١٩٩٠م.

١٤. عبد اللطيف البرغوثي، «عادات الزواج في الريف الفلسطيني». مجلة التراث والمجتمع، ع٣١، البيرة: جمعية إنعاش الأسرة، ١٩٩٨م.

١٥. عبد اللطيف البرغوثي، «التراث الشعبي الفلسطيني» من كتاب: التراث الشعبي الفلسطيني «جذور وتحديات»، تحرير: عبد العزيز أبو هدبا، الطيبة: مركز إحياء التراث، ١٩٩١م.

١٦. عزة خليل، نماذج من نقش الحناء– الرياض: الدار السعودية للنشر، ط١، ٢٠٠٣م.

١٧. علي فلاح محسن، «الاهزوجة الشعبية في العرس الفلسطيني» مجلة المأثورات الشعبية، ع٣٥، قطر، ١٩٩٤م، وهي ضمن كتاب: دراسات وأبحاث في الأدب الشعبي الفلسطيني، تحرير: يحيى جبر وعبير حمد، د.ت.

١٨. فيكتور سحاب، الحياة الشعبية في فلسطين «الفنون والتقاليد الشعبية والحرف اليدوية»، الموسوعة الفلسطينية، ق٢، مج٤، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، ١٩٩٠م.

١٩. مايسة الشرنوبي، أجمل النماذج والرسومات في النقش بالحناء، القاهرة: دار الطلائع، ٢٠٠٣م.

٢٠. مايسة الشرنوبي، فن النقش بالحناء، القاهرة: مكتبة ابن سينا، د.ت.

٢١. محمد حمامي، الحناء فن ونقش عند العرب، بيروت: دار الشرق العربي، د.ت.

٢٢. محمد سعيد جبر، «أفراحنا الشعبية، تقاليدها ودلالاتها». مجلة التراث والمجتمع، ع١٦، البيرة: جمعية إنعاش الأسرة، ١٩٨٢م.

٢٣. محمد قنديل البقلي، وحدة العادات والتقاليد بين مصر والشام، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م.

٢٤. محمود النمورة، الفلكلور في الريف الفلسطيني، القدس: مطبعة الأمل، ١٩٩٨م.

٢٥. معهد الأبحاث التطبيقية، التاريخ الزراعي والنباتي في فلسطين، القدس: د.ن، ٢٠٠٢م.

٢٦. نبيل علقم، «العدوان الإسرائيلي على التراث الفلسطيني» المؤتمر الأول للتراث الشعبي الفلسطيني «هوية وانتماء»، رام الله: جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٧م.

٢٧. نمر سرحان، موسوعة الفلوكلور، عمان: د.ن، ط٢، ٣ أجزاء، ١٩٨٩م.

٢٨. نهى قسيس نفل، فرحة الأغاني الشعبية الفلسطينية، عمان: دار ورد للنشر، ط١، ٢٠١٠م.

٢٩. هدى حمودة، الأغاني الشعبية الفلسطينية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ط١، ٢٠١٢م.

٣٠. هدى سراج، «الحناء جمال يدوم»، مجلة العربي، ع٥٨٠، الكويت، ٢٠٠٧م.

ثالثاً- مقابلات شخصية

قام بها الباحث مع بعض كبار السن في المدينة بتاريخ ٢٠١٢/١٠/٨.

الحكاية الشعبية النابلسية

أ. سرفناس حمد*

* خريجة من جامعة القدس المفتوحة/ فرع نابلس.

الحكاية الشعبية النابلسية

الفصل الأول: أدب الحكايات الشعبية

الأدب الشعبي:

كان القدماء يعمدون في تربية أطفالهم من خلال حكايات الجّدة وقصص الأمهات والآباء التي تحمل مفاهيم تربوية بسيطة تسعى إلى توجيه الأبناء إلى الطريق الصحيح ،ويواجه التراث الشعبي اليوم خطر التلاشي فعلينا إحياء التراث؛ لأنه عمل هادف للحفاظ على الثقافة الشخصية الوطنية.

ومن أشكال التراث الشعبي: الحكاية الشعبية التي يزخر بها الأدب العربي فهي ذاكرة الأمة وهي التاريخ غير المكتوب الذي يعكس ثقافتها وحضارتها وتفكيرها؛ فالتراث الشعبي هو عبارة عن نتاجات متنوعة موروثة من الماضي.

الحكاية لغة واصطلاحاً:

الحكاية لغة : «هي ما يحكى ويقص واقعاً أو تخيّلاً، وهي ما يُقص من حادثة حقيقية أو خيالية كتابةً أو شفاهاً ، وقد ذكر يونس وهو أحد الباحثين في هذا المجال العناصر الأساسية لهذا النوع من الأدب الشعبي فقال : أن الحكاية تمتاز بالطرافة والمرونة وحرية الرواية الشفوية بالزيادة والحذف عبر العصور والبيئات»، وترتكز الحكاية الشعبية على الواقع الذي يعيشه الشعب سياسياً واجتماعياً في جو واقعي معروف الزمان والمكان .

أما الحكاية اصطلاحاً فهي : شكل تعبيري ينسجه الخيال الشعبي حول حدث مهم لها شيوع وذائعة الصيت في كل المجتمعات، وفي كل الأمكنة والأزمنة، وقد يكون بعضها بسيطاً بساطة المجتمع وبعضها قد يكون معقداً، والعامل المشترك بين البساطة والتعقيد هو وجود الراوي والمتلقي؛ فالحكاية الشعبية تمنح راويها حرية شبه مطلقة فيما يتصل بمصداقيتها وتنتقل عادة بيسر وسهولة من راوٍ إلى آخر؛ لأنها لا تمتاز بشكلها اللفظي،وللحكايةالشعبية روايات كثيرة وكلها مقبولة وصالحة لدى الجمهور، مما يعني أنها في تغير مستمر، مع هذا فإن لها بنية اساسية.

جذور الحكاية الشعبية:

من أصول الحكايات الشعبية في المجتمعات المختلفة: الديانات البدائية القديمة وإذا بحثنا عن أصول هذه الحكايات لوجدنا أنها تدور حول أشخاص إن لم يكونوا قد وجدوا

فإنهم نماذج بشرية وتعالج المشكلات الحياتية، وتدور حول مواقف الناس الاجتماعية والسياسية والفكرية .

فمن الناحية الاجتماعية، فهي تطلعنا على قيم الشعب وتحدثنا عن تقاليد الشعوب وعاداتهم وقيمهم المتوارثة عبر الأجيال وعن ضمير الشعب، من الناحية السياسية فالحكاية الشعبية حافلة بدفاع القبيلة عن حماها بالنفس والنفيس، وحافلة بقص بطولات وطنية هبت للدفاع عن الوطن والأرض ، أما من الناحية الفكرية فالحكاية الشعبية تنمّي الفكر وتهذّب النفس وتزهو بالعقل .

مميزات الحكاية الشعبية:

١. الإضافة والحذف حسب ذاكرة الراوي فنرى أن الحكاية الشعبية تختلف في طولها وقصرها من راوٍ لآخر، فمنهم من يزيد ومنهم من ينقص الأحداث .

٢. هي مرآة عصرها ومبينة أفكار الأمم وعاداتهم .

٣. عدم الثبات أو الاستقرار في مكان واحد، بل تنتقل دائماً عن طريق الراوي .

٤. ليس لديها مؤلف خاص فوجدت الحكايات الشعبية مجهولة المؤلف فهي تنتقل عبر الأجيال والأمكنة لكن لا يذكر مؤلفها .

٥. تدور حول حوادث مهمّة أو أشخاص أبدعهم الخيال .

٦. هدفها تأصيل القيم والعلاقات الاجتماعية.

٧. لا تخرج عادةً عما هو سائد في المجتمع .

٨. الحكاية الشعبية تتشابه في أنحاء العالم المختلفة .

٩. الحكاية أجمل المأثورات وأحفلها بالحكمة بما تحتويه من خيال أو واقع وأكثرها تداولاً بين الكبار والصغار إلى ما قبل عصر التلفاز، وما زالت مصدراً ثميناً لاقتباس الفنانين في القصة والرواية والمسرحية الحديثة .

أهمية الحكاية الشعبية:

١. تعمل على تنمية الفكر، وتعبر عن ذاتية الشعوب، وتحفظ الحضارة، وتساعد على فهم الكون، وإعادة نظم الحياة وخلق التوازن فيها .

٢. التعويض عن عدم مقدرة الإنسان عن تحقيق بعض رغبات معينة كان من الصعب عليه تحقيقها .

والحكاية الشعبية النابلسية ليست بمعزل عن هذا التفسير؛ ولذلك فإننا نرى في بعض حكاياتنا تعويضاً عن الجوع وعن العجز، إما المرض العضال وإما الانسحاق وإما الاضطهاد؛ فنجد في ثنايا الحكايات من مثل الشاب الفقير المضطهد الذي أهمله الناس وأهدروا حقوقه يجد خادماً ذا قوة خارقة يعينه على أن يبرز نفسه، وينال إعجاب الجميع بتحقيقه للمعجزات .

أنماط الحكاية الشعبية:

- **أولاً – حكاية الواقع الاجتماعي**

وقد تميز هذا النمط من الحكاية الشعبية عن سائر الأنماط، وذلك لأن سمات الحياة الواقعية بارزة فيه وهي زمان ومكان وشخوص.

- **ثانياً – الحكاية الخرافية:**

ويعرِّف بعض الباحثين الحكاية الخرافية بأنها : «أحدوثة متوترة برواية شفوية منثورة ولها قدر من القوام وهذه الأحدوثة تتمركز حول بطل وبطلة، ويكون البطل فقيراً أو وحيداً في بداية الأحدوثة، وبعد سلسلة من المغارات تؤدي فيها الخوارق دوراً ملموساً يستطيع البطل أن يصل إلى هدفه فيعيش حياته سعيداً إلى النهاية».

- **ثالثاً – الحكاية المرحة:**

الحكاية المرحة هي : الأحدوثة القصيرة المنثورة غالباً التي تحكي نادرة أو سلسلة من النوادر المسلية، وتنتهي إلى موقف فكه مرح، ويأخذ الناس موضوعاتها من الحياة اليومية.

رابعاً ـ حكاية الحيوان:

وهذا النوع يقسم إلى قسمين : حكاية الحيوان المفسرة أو الشارحة وحكاية الحيوان الخرافية ، أما المفسرة فهي التي تفسر مظاهر في الطبيعة عامة، وفي الحيوان خاصة، وتحكي للناس أسباب الخلقة المعينة في الحيوان المعين، مثل سواد الغراب وخضاب عنق الحمامة ، أما حكاية الحيوان الخرافية فهي التي تجعل من الحيوان شخصاً رئيساً من شخوص القصة، فيتصرف تصرفات الإنسان العاقل، وتستخدم هذه الحكاية الحيوان للوعظ والإرشاد عن طريق الرمز بالحيوان مثل حيل الثعلب ومكره.

خامساً ـ حكاية المعتقدات:

تحمل هذه الحكاية الشعبية بعض الأفكار ذات الأصول الدينية، وتروي في ثناياها بعض الممارسات التي تدل على احترام القوى الغيبية.

سادساً ـ حكايات الشطار:

العيارون والشطار لهم نصيب من حكايات التراث، وهم إلى جماعات قطع الطرق أقرب ولهم حكايات يتندر بها الرواة، ويتسلى بها الجماهير؛ لما فيها من عرض عضلات جسدية، أو عرض افكار خاصة بأبطال هذا النوع من الحكايات.

وظيفة الحكاية الشعبية:

- أولاً : يروي بعض الناس الحكاية الشعبية للتسلية والمتعة.
- ثانياً : يبدون فيها الرغبات المكبوتة للخروج عن قيود الجسد بالطيران على البساط، أو في قطع مسافات في أزمان قياسية .
- ثالثاً : تقوم الحكاية في المجتمع بوظيفة تعليمية تثقيفية عن طريق غرس القيم والعادات المتنوعة .

دور محافظة نابلس في المحافظة على الحكاية الشعبية:

أدت عهود الاحتلال المتعاقبة والحروب التي دارت على أرض فلسطين إلى ضياع جزء كبير من تراثه وسرقة معالم كثيرة منها وتدميرها، فالإهمال الذي عانى منه تراثنا بسبب ظروف منطقتنا السياسية منذ عصور خلت أدّى إلى ضياع جزء كبير من تراثنا.

ونحن كشعب فلسطيني يبحث عن مستقبله لا بد لنا من إحياء تراثنا تأصيلاً لهويتنا، وتأكيداً على ذاتية الحضارة العربية الضاربة بجذورها لآلاف السنين. هذا التراث سوف يذهب ويزول إذا لم نحفظه بالاعتناء والترميم والتسجيل والتصوير ليكون نبراساً وشهادة كشهادة الطابو لأجيالنا القادمة ؛ لذا تسعى محافظة نابلس دوماً إلى الحفاظ على تراثنا من خلال ما تقوم به مهرجانات وندوات ومؤتمرات تحي به تراثناالعريق من جديد.

والحكاية الشعبية قد تراجعت في الآونة الخيرة بسبب التطور التكنولوجي الذي سيطر على قلوب الأجيال الجديدة والقادمة وعقولها أيضاً، ولذلك كان واجباً على المؤسسات والأفراد أن تسعى إلى الحفاظ على هذا الموروث الثقافي، ليبقى متداولاً بين الأجيال مهما تقادمت.

الفصل الثاني ـ نماذج من الحكايات الشعبية النابلسية:

الحكاية الأولى:

♦ حكاية الشيخ حردون:

«كان يا ما كان، كان في هالمرة متزوجة واحد أهبل على نياته والمرة أوية، وكان في عندهم هالعجل، وبيوم من الأيام آلت المرة لزوجها : شو رأيك توخذ هالعِجل وتروح اتبيعه في سوء البأَر في نابلس» ؟

- ألها : «طيب»

..... والله ربط هالعِجل بدنب الحمار – بعيدن عنكم – وركب الحمار وهو ماشي في الطريء شاف هالحردون .....

آل : «يا فتاح يا عليم يا رزاء يا كريم ، يا شيخ حردون تشتريلك هالعِجل» ؟

- ..... حرك الحردون راسه لفوء ولتحت .....
- ألّه الزلمي : «هدا العجل بسبعطاشر دهبة» .
- ..... حرك الحردون راسه لفوء ولتحت .....
- ألّه الزلمي : «يعني اشتريت العجل بسبعطاشر دهبة « ؟
- ..... حرك الحردون راسه لفوء ولتحت .....
- ألّه الزلمي : «يعني اتفئنا» ؟
- ..... حرك الحردون راسه لفوء ولتحت .....

... وأف الحمار – بعيدن عنكم – ونزل ربط العِجل بعرء الزيتونة اللي بحد السنسلة وأرّب الحردون عشان يوخذ حأ العِجل ، فهرب الحردون بالسنسلة آم الزلمي لِحئ الحردون فصار يحفر في هالسنسلة، آم لقي صندوء مليان ذهب ، آل:»والله مش أليل يا شيخ حردون ، والله معه مصاري أكتر من كل الناس» ، .. طال السبعطاشر دهبة ورجع البائي وسكّر السنسلة وأله : «هاي العجل مبروك عليك وأنا أخدت بس حئي .

.. الدنيا بعدها الصبح رجع عند مرته ...

- آلته : «يا صباح يا عليم بعته» ؟
- ألها : «آه ، أما شو بيعة ممتازة»

- اَلتله : «مين اشتراه» ؟

- ألها : «الشيخ حردون»

- اَلتله : «شو بتؤول» ؟!

- ألها : «متل ما اسمعتي ، للشيخ حردون أما شو معه مصاري»!!!

- اَلتله : «الله يرمل مرتك ، وين بعته»؟

- ألها : «اسكتي يا مرة لآني الشيخ حردون ألتله تشتري هالعِجل آم هزّلي راسه ، فنزلت عشان أعطيه العِجل آم هرب بالسنسلة ، حفرت بالسنسلة ولاّ صندوء مصاري طُلت حئي وأعطيته العِجل»

- اَلتله : « يخلف عليك «

- ... راحت محل ما ألها زوجها وحلّت العجل وروّحته عالدار وعرفت وين محل المصاري ورجعت بالليل ، اَلت لزوجها :

- أوم ، أوم الشيخ حردون رجّع العِجل وبدوّ مصرّياته

- ...أخدوا الحمار – بعيدن عن السامعين – وحفروا وطالت الدهبات وروّحتهن عندها ....

- ...وطار الطير والله يمسيكم بالخير ....

الحكاية الثانية:

♦ **حكاية الشاطر محمد:**

كان في هالمدينة ملك وإله بنت حلوة كتير، هدا الملك آل إنه بدو يزوج بنته للي بئدر يُؤتل الغول، وألّهم إنه أتله سهل ، وهو لما يئدر الواحد يتطول تلت شعرات من راسه إزا بتطولهم بموت ، هدا الغول كان ياكل منهم، ومن دوابهم والغول أريب من المدينة ساكن في مغارة في الغابة .

مرة سمع هالشب اسمه محمد وكان فئير وبحب البنت كتير ومابئدر يناسب الملك لأنه فئير، ودايماً كان يحكي لأمه زوجيني بنت الملك، وكانت أمه دايماً تؤله : «اللي عنده فلوسه بنت السلطان عروسه» ، اجا وافأ على أتل الغول وهو مش عارف برجع ولا لأ ما حدا استجرى يوافق عهالشرط إلاّ هو .ولما أرب عالمغارة والدنيا كانت نهار مالئي الغول، لأنه كان طالع يدور على حدا ياكله، ولئي في المغارة مرة الغول، وكانت وحدة من بنات المدينة حبها الغول وخطفها وتزوجها .

ولما شافت هالشب نصحته والَتله :»إرجع لأنه ازا شافك رح ياكلك» ،، ما رضي وضل عندها وحكتله إصتها ، البنت وافأت تساعده لأنها كانت تكره الغول اللي خطفها، وهي كانت مطلوبة لابن عمها اللي بتحبه وبحبها وهيك يمكن تتخلص من الغول وترجع لابن عمها وتعيش معه بائي حياتها .

أجا الغول ميت من الجوع لأنه مالئي حدا ياكله، خبت مرة الغول الشاطر محمد بالخزانة ولما دخل الغول ألّها : «ريحة انس» ألتله : «الانس فيك وفي ديالك» آم اتعشى من هالموجود وبعد اشوي نام وهي نامت بحده ولما غفي ألعت شعره من راسه .

ألها : «مالك» ؟

اَلتله : «حلمت اني انا وإياك مسافرين في البحر وانا وئعت في البحر ولولا ما تعلئت في شعر راسك لكان متت، ولما فئت لئيت حالي ماسكة شعرك» ، الغول من هبالته صدأها ونام وآلت المرة بنفسها لازم أدبر حالي وأألع أخرى شعرتين مهو حيل النسوان غلبوا حيل الغيلان، ولما غفي ردت خلعت الشعرة التانية، آم متل المجنون ألها مالك يا مرة ألتله : حلمت انك بتغرأ ومش مبين منك إلاّ شعر راسك أومت أنقزك من الغرأ سحبت شعرك، ولما فئت لائيت حالي ماسكة شعراتك .. وردّ الغول صدّأها ونام ولما غفي اَمت ألعت الشعرة التالتة مات الغول تريحت منه هي وأهل المدينة .

والصبح جهزت حالها وحملت هي والشب الي بئدروا على حمله من هالمغارة وأخدوا معهم الشعرات ، الملك والملكة والأميرة وأهل المدينة استأبلوهم وفرحوا لما سمعوا باللي صار والبنت زوجوها لإبن عمها والشاطر محمد اتزوج الأميرة .

... وآموا هالأفراح والليالي الملاح ...

الحكاية الثالثة:

- **حكاية جبينة:**

بمرة من المرات كانت في هالمرة لا تحبل ولا تجيب ولاد، وبيوم من الأيام سمعت بيّاع ببيع جبنة ، اطّلعت من الشباك شافت إإراص الجبنة آلت :

«يا رب تطعمني بنت يكون وجها أبيض متل أُرص هالجبنة»

.. وربنا سمع منها حبلت وجابت بنت وجهها ابيض متل أرص الجبنة، آمت سمتها «جبينة»، كبرت هالبنت وصارت أحلى من كل بنات البلد، وبيوم من الأيام كان في عرس في البلد، وبدها تروح الفاردة تجيب العروس من بلد تانية ، بنات الحارة بدهن يوخدن جبينة معهن عالفاردة اَلتلهن جبينة : «روحوا أولوا لماما» ، راحوا لإم جبينة ألولها : «يا ام جبينة بحياة جبينة تخلي جبينة تيجي معنا عالفاردة»

- آلتلهن : «انا ما بمون ، روحوا أولوا لأبوها»

- ....راحوا لأبوها ألوله : «يا أبو جبينة بحياة جبينة تخلي جبينة تيجي معنا عالفاردة» .

- ألهن : «أنا ما بمون روحوا أولوا لسيدها» ...

- راحوا أولوا لسيدها : «يا سيد جبينة بحياة جبينة تخلي جبينة تيجي معنا عالفاردة»

- ألهن : «طيب خليها تروح»

- ..راحت امها لبستها وأعطتها هالخرزة وبعتت معها هالعبدة وألَت لبنتها : «إزا صار معك شي بس احكي للخرزة وأنا بسمعك»

..مشوا وصارت العبدة كل اشوي تؤلها : «إنزلي عشان اركب مكانك»

تيجي جبينة تطول هالخرزة وتؤول : «يا ماما هاي العبدة بدها اتنزلني وتركب مكاني» ،، ترد الخرزة تؤول : «سيري يا عبدة» ، يمشوا شوي ترجع العبدة تؤولها : «انزلي عشان أركب مكانك» ، إتطول جبينة الخرزة وتؤول : «يا ماما العبدة بدها اتنزلني وتركب مكاني» ترد الخرزة تؤول : «سيري يا عبدة» ،، ضلوا حتى وصلوا عند بركة مي ، نزلت جبينة تشرب آمت وئعت الخرزة بالبركة ، راحت العبدة ركبت مكانها وهي مشيت حتى وصلو البلد .. آمت العبدة دهنت حالها بتراب أبيض فصارت بيضة ودهنت جبينة بسخام وراحوا أعدوا بفيّة القصر .. شافهن ابن السلطان اَل للعبد : «روح نادي عل هدول البنات» اَلتله جبينة : «لا بابا عبد ولا ماما عبدة حتى أمشي مع العبيد» ، رجع العبد عند ابن السلطان والّه شو بتؤول جبينة ، آم ابن السلطان رجع بعت العبد عشان يجيب البنات .. اَلتله جبينة : « لا بابا عبد ولا ماما عبدة حتى أمشي مع العبيد « ألها العبد : «بحكيلكم سيدي تعالوا» .. ما إبلت جبينة ، آم ابن السلطان نزل براسه وجابهن أعدّوا العبدة على الفراش وأعدّوا جبينة على العتبة .. بعد فترة ابن السلطان ازوج العبدة وجبينة صارت ترعى الغنم كل يوم .. وصارت هالغنمات كل يوم تضعف يوم عن يوم وما حدا عارف ليش ... يوم آل ابن السلطان : «والله إلا ألحء الغنمات وأشوف ليش ما بتاكل وبتضل تضعف كل يوم عن يوم «، راح ورا الغنمات وراأب جبينة واتخبا ورا شجرة فسمع صوت حزين بغني إطلّع لئي جبينة آعدة بتبكي وبتؤول :

يـــا طـيـــورن طايـــرة ويـــا وحشـــن ســايـــرة
سلمّـــن عمامـــا وبابـــا وأولـــن جبينـــة راعيـــة
ترعـــى غنـــم ترعـــى نـــوق وتنـــام تحـــت الداليـــة
وهالغنم بطلت تاكل وصـارت تبكي

آم ابن السلطان أرّب على جبينة وسألها آمت ألتله الحئيئة آم روّح وآل :

«اللي بحب ابن السلطان يجيب حمل حطب وشئفة نار» ،، ولّع هالنار وحط العبدة فيها وازوج جبينة وعاشوا بثبات ونبات وخلفوا ولاد وبنات وعاشوا سعيدين» ..

الحكاية الرابعة:

♦ **حكاية العنزة العنزية:**

كان بمرة من المرات هالعنزة وإلها تلت ولاد : شندل ومندل ونجمة الصبح ... هادي العنزة كانت كل يوم تسرح من الصبح تروح تاكل وولادها يِسكرُوا الباب وراها وتوصي ولادها ما يفتحوا الباب لحدا، وآخر النهار ترجع حاملة شوية هالحشيش على أرونها وتؤول :

افتحولي يا وليداتي .. جبتلكم الحشيشات عأروناتي

والولاد يعرفوا صوت أمهم ويفتحولها وياكلو ويرضعوا وينبسطوا وبعدين يناموا .. ويوم من الأيام أجا هالديب دأ عالباب وآل :

افتحولي يا وليداتي .. جبتلكم الحشيشات عأروناتي

آلوله : «روح إنت مو ماما ، ماما مو هيك صوتها»

...تاني يوم رجع وعمل صوته متل صوت امهم ودأ عالباب وصار يؤول :

افتحولي يا وليداتي .. جبتلكم الحشيشات عأروناتي

آلوله : «ماما دنبها مأطوع لف ضهرك حتى نشوف» ؟ ، لف ضهره اَلوله : «روح انت مو ماما دنبك مو مأطوع» ..

..راح أطع دنبه وتالت يوم رجع دأ الباب وصار يؤول :

افتحولي يا وليداتي .. جبتلكم الحشيشات عأروناتي

آلوله : « لف ضهرك حتى نشوف « لف ضهره شافوا دنبه مأطوعه اَلوا : «أي والله هاي ماما»

.. راحوا فتحوا الباب فات الديب أكل شندل ومندل أما نجمة الصبح كانت شاطرة اتخبت تحت التخت وما شافها الديب.

.. المغربيات رجعت الإم لئيت الباب مفتوح ونجمة الصبح اَعدة بتبكي ،، سألتها : شو اللي صار ؟ وين شندل ومندل ؟ ،، فعرفت شو صار وراحت عدار الديب طلعت عالحيط وصارت تِدْبِكْ صار الديب يصيح ويؤول :

مين اللي بدبك عضهر حيطي
بكسر خوابي زيتي

الفصل الثالث ـ تحليل حكاية شعبية نابلسية:

أوجه الشبه والاختلاف بين الحكاية الشعبية والقصة القصيرة:

◄ أولاً – من حيث العناصر :

١. **الشخوص:**

للشخوص في القصة القصيرة أهمية مركزية و تكون الشخصيات نوعين، إما أن تكون شخصيات بسيطة مسطحة، وهذا النوع غير معقد في صراعهاً ، أما النوع الثاني من الشخصيات فهو شخصيات نامية معقدة .

أما في الحكايات الشعبية فتكون الشخصيات واضحة محددة وهي على الأغلب شخصيات نمطية تتحدد في موقعها بالأسرة، ولا توصف الشخصيات، ولا تحدد ملامحها الجسمانية أو النفسية إلا إذا كان فيها عيب من عرج أو قصر مثلاً أو بخل، وغالباً ما يكتفي بصفة واحدة تتحدد بها الشخصية .

٢. **البنية الزمانية والمكانية:**

تقوم القصة القصيرة عادة على حادثة واحدة أو مجموعة قليلة من الحوادث تنجم عن موقف واحد حصل في زمن معين ومكان معين، أما الحكاية الشعبية فهي تمتد طويلاً في الزمان، وتشغل حيزاً كبيراً في المكان .

٣. **الأحداث:**

الحدث هو اقتران فعل بزمن ولا تقوم القصة أو الحكاية إلا به، وتختلف الأحداث تبعاً لنوع القصة: فالقصة الطويلة يعرض فيها الحدث مفصلاً متطوراً في حين أن القصة القصيرة تكتفي بالحدث نفسه دون مقدماته، أما الحكاية الشعبية فيرتبط الحدث بالأفكار الخرافية، وإما أن يكون الحدث كبيراً، أو أن يكون حدثاً صغيراً ليس له تأثير كبير في مسار الحكاية.

٤. **المغزى:**

إن المغزى لكل من الحكاية الشعبية والقصة جزء لا ينفصل بأي حال من الأحوال عن بقية العناصر، فهو جزء لا يتجزأ من الشخوص والحدث والبيئة.

٥. **الصراع والعقدة والحل:**

يشكل هذا العنصر الهيكل الرئيس للقصة وللحكاية، وفيه تتوالى الأحداث خطوة بخطوة لتصل إلى نهايتها المتوقعة.

٦. **البداية والخاتمة:**

تتميز الحكاية الشعبية ببداية وخاتمة ثابتتين محفوظتين ، أما في البداية فتبدأ الحكاية مثلاً «كان يا مكان في قديم الزمان نحكي ولاّ نَّام ولاّ نصلي على محمد بدر التمام» أو بداية أخرى مثل «كان يا مكان يا مستمعين الكلام اللي بحب النبي يرمي عليه السلام» .

أما الخاتمة فهي خاتمة ثابتة محفوظة مثل : «توتة توتة خلصت الحدوتة حلوة ولاّ فتفوتة» أو خاتمة أخرى «طار الطير والله يمسيكم بالخير» أو «وقاموا هالأفراح والليالي الملاح.

◄ ثانياً – من حيث اللغة:

إن اللغة هي الوسيلة التي يعبر بها الأديب عن نفسه، لكن تميزت الحكاية الشعبية عن القصة القصيرة بلغتها الخاصة التي تعبر عن أفكارها ونظرتها إلى المستقبل وسلوك الإنسان ، فعالم الحكاية مليء بالأسرار والشعور والأحاسيس يعتمد على اللغة المحلية بنت البيئة، وفيها الرمز ومجموعة من العناصر تجتمع لتؤدي دورها في المجتمع .

◄ ثالثاً– الرمز في الحكاية الشعبية:

الحكاية الشعبية لا تعمل إلاّ بالرمز، فإذا نزع الرمز أصبحت أحداثاً متراكمة لا معنى لها:

أ. الغول : فهو يرمز إلى القوى الخفية التي تتلاعب بمصير الإنسان .

ب. الملك : فهو يرمز إلى القوة التي تخدم الإنسان .

ت. الأم : ترمز إلى الحنان والدعاء الصادق.

◄ رابعاً– اختلاف رواية الحكاية الشعبية من منطقة لأخرى:

وذلك بسبب المشافهة على عكس رواية القصة فهي ثابتة لا تختلف من منطقة لأخرى؛ لأنها تعتمد على اللغة الفصحى لا على اللهجة العامية، ولا يعرف واضع الحكاية الشعبية الأول كما لا يعرف راويها الأول ، فالحكاية الشعبية لا تلقى شيئاً من التوثيق في الرواة، وإذا ما ذكر أحد منهم، فغالباً ما يذكر الراوية الأخير الذي هو أحد أفراد الأسرة ولا سيما الجدة.

تحليل حكاية جبينة:

١. الأحداث:

الحدث هو اقتران فعل بزمن، ولا تقوم الحكاية الشعبية إلاّ به ، والحكاية عبارة عن مجموعة من الأحداث تدور حول موضوع معين وينتهي إلى نتيجة طبيعية .

أما أحداث حكاية جبينة فكانت : ان هناك فتاة جميلة وحيدة أمها تدعى (جبينة) وقد فاقت الفتيات بجمالها وهذا أدى إلى غيرة فتيات البلدة ، فدبَّرن خطة لتدمير هذه الفتاة، فأخذن (جبينة) معهن إلى الفاردة ويكمن الحدث الرئيس في هذه الحكاية في قدرة (العبدة) على تحويل (جبينة) وجعلها تبدو قبيحة وفي تغيير لونها إلى الأبيض وتبديل الأدوار حيث أصبحت (جبينة) تبدو كجارية أما (العبدة) فكأنها هي السيدة وبعدها أخذت (جبينة) ترعى الأغنام وتعتني بها .

٢. الشخوص:

الشخوص في الحكاية الشعبية «تكون شخصيات واضحة محددة وهي على الأغلب شخصيات نمطية يتحدَّد موقعها في الأسرة أو بمكانتها في المجتمع.

أما الشخوص في هذه الحكاية :

كانت الشخصية الرئيسة هي (جبينة) الفتاة الضعيفة المظلومة، أما (العبدة) فكانت الشخصية الثانوية التي شاءت أن تحتلَّ مكان (جبينة) وجاءت شخصية (ابن السلطان) شخصية ثانوية أيضاً حيث أنه لم يعرف حقيقة الأمر إلاّ في النهاية، وعندها قام في حل المشكلة، وأعاد الحقوق إلى أصحابها وحرق (العبدة) .

٣. الزمان والمكان:

وحدة الزمان عنصر أساسي من عناصر القصة أو الحكاية ، والمكان عنصر مهم من عناصر القصة، وهو في الحكاية الشعبية محدود مناسب للحدث الذي تعرضه الحكاية .

أما الزمان والمكان في حكاية جبينة، فلم تقم الجدة بتحديدهما، لكن يفهم من السياق العام للحكاية أنها حدثت قبل أن يخترع الإنسان وسائل النقل الحديثة، حيث إن (جبينة) انتقلت من بلدتها إلى البلدة المجاورة وهي تركب على دابة .

أما المكان فكان في بلدة (جبينة) في البداية عندما طلبت الفتيات من أم جبينة وأبوها وجدها أن تقوم (جبينة) برفقتهن ، ثم انتقلت الأحداث إلى بلدة مجاورة ثم إلى قصر ابن السلطان، ولكن لم تذكر الجدة أسماء تلك البلاد، وباعتقادي حتى تكون الحكاية صالحة في كل مكان وزمان، وأن تروى بطرق عدة.

٤. الصراع والعقدة والحل:

الصراع هو العلاقة المتشابكة بين الأحداث في القصة أو الحكاية التي قد لا يظهر ارتباط بعضها ببعض، ولكن كل حدث يؤثر في الآخر، وبهذه العلاقة المعقدة تسير الحكاية في حبكتها الدرامية لتصل إلى ذروة التأزم .

والصراع في حكاية جبينة كان بين شخصية (العبدة) وشخصية (جبينة)، حيث كان بين الجمال والقبح فأرادات العبدة أن تصبح جميلة، وأن تكون هي السيدة، وتبدل الدور مع سيدتها فأصبحت هي السيدة ، أما جبينة فأصبحت العبدة

أما العقدة :حدثت عندما بدأت الأغنام بالتراجع يوماً بعد يوم، وأحس ابن السلطان أن الأغنام أصبحت هزيلة.

أما الحل:عندما اكتشف ابن السلطان الحقيقة فأرجع الحق إلى أصحابه فعادت جبينة هي السيدة، أما العبدة فقام السلطان بحرقها وتزوج جبينة.

٥. اللغة:

تميزت حكاية جبينة أنها رويت باللهجة العامية الخاصة التي تبرز اللهجة النابلسية التي ترويها الجدات حيث تظهر خصوصيتها بهذه اللهجة .

تشكل الحكايات الشعبية الفلسطينية جزءاً من التراث القصصي العربي وتحكى باللهجة الفلسطينية ذات الفرعين : الفلاحي والمدني، ويرجع طغيان الحكايات الفلاحية على المدنية بشكل عام .

الخاتمة

الحمد لله الذي أتم عليّ نعمه ، وأعانني فأكملت هذه الدراسة ، بعد الوقوف الدقيق والدراسة المستفيضة لكتب عدة اهتمت بالحكايات الشعبية ، والمقابلة مع إحدى سكان محافظة نابلس **خلصت إلى نتائج عدة أهمها**:

١. أن الحكايات الشعبية قد ساهمت في دراسة تاريخ الثقافة العربية في فلسطين، وكذلك الحياة الاجتماعية والسياسية .

٢. الحكايات الشعبية في البيئة الفلسطينية بشكل عام، وفي محافظة نابلس بشكل خاص لم تكن مغلقة، ولم تكن منعزلة، لذلك نراها كثيراً من الأحيان قد عبّرت عن مشاعر الشعب الفلسطيني ومعاناته .

٣. المأثورات الشعبية والعادات والتقاليد والحكايات الشعبية هي جزء من قيمنا وديننا الإسلامي والتمسك بها يعني التمسك بالأرض والحرية والاستقلال .

٤. ان مدينة نابلس لها خصوصية من حيث لهجة سكانها وخاصة كبار السن منهم .

ولا شك في أن هناك فوائد أخرى سيلمسها القارئ من خلال مطالعته لهذه الدراسة . . .

أسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه والحمد لله أولاً وأخراً

واقع المصنوعات القشية الشعبية التراثية بين الأصالة والانتماء أو الطمس والاندثار

د. إدريس محمد صقر جرادات*

* مركز السنابل للدراسات والتراث الشعبي/ سعير/ الخليل.

واقع المصنوعات القشية الشعبية التراثية بين الأصالة والانتماء أو الطمس والاندثار

ملخص:

سعت الدراسة إلى العمل على تحقيق ما يأتي:

١. العمل على إحياء جانب مهم من التراث الفلسطيني، وهو الصناعات الشعبية التراثية، والحرف التقليدية لتنميتها ، والمحافظة عليها.

٢. إبراز البعدين التراثي والحضاري للصناعات الشعبية التي تعبر عن تاريخ الشعب الفلسطيني وثقافته، حيث تجسد الوجود الفلسطيني على أرضه.

٣. الصناعات الشعبية هي صناعات صديقة البيئة ، وموجهة للسياحة، والمجتمع المحلي.

٤. فضح ممارسات الجانب الإسرائيلي ، وتعريتها في سرقة ، وانتحال، وتزوير المنتجات، والمقتنيات التراثية الفلسطينية.

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي الذي يسير وفق الخطوات الآتية:الجانب الوصفي لواقع الصناعات الشعبية القشية، ومن أفرع وأغصان النباتات ، والمنهج المكتبي بالرجوع إلى الكتب والمجلات وما كتب عن الصناعات المنقرضة خاصة.

استخدمت الدراسة الملاحظة المقصودة المباشرة، وذلك لتجميع الخبرات حول ما نشاهده، أو نسمع عنه، أو نعايشه، وذلك للتعرف إلى واقع الصناعات الشعبية التي كان ، أو ما زال يمارسها الآباء، والأجداد، كما استخدمت المقابلة المباشرة مع أرباب الصناعات، والحرف الشعبية، والمهن التقليدية.

بعد هذا العرض، والإجابة عن أسئلة الدراسة، وعليه يمكن الإشارة إلى النتائج الآتية:

١. الصناعات التراثية، والحرف الشعبية، والتقليدية ذات بعد عائلي، وأسري، وتنتشر في مناطق محددة حسب توافر المواد الأولية.

٢. تعمل على تلبية احتياجات الأسرة بطرق فنية مبتكرة، بأشكال وأحجام متنوعة.

٣. موادها الأولية، والمواد الخام متوافرة في البيئة المحلية.

٤. بعض الصناعات انقرضت نتيجة عدم الصمود في وجه البضائع المستوردة، وسوق العمل المنافس.

٥. المصنوعات القشية تحفظ المواد الغذائية من الرطوبة، والعفن والخمج، والتلف، والتعريق.

٦. المصنوعات القشية، صناعة نسوية، ولكن طور الرجل بعض الصناعات لزيادة العرض، والطلب عليها، و الصناعات القشية من أنماط التكنولوجيا المحلية، والمصنعة بأيد فلسطينية .

في ضوء النتائج التي توصلت إليها الدراسة فإنها توصي بما يأتي:

- **توصيات بحية وأكاديمية لإجراء بحوث ودراسات مقترحة مستقبلية:**

١. إجراء دراسات وصفية، وتحليلية لمعطيات الواقع، وحقائقه، من خلال أسلوب تحليل النظم– مدخلات–عمليات–مخرجات.

٢. إجراء دراسات مقارنة مع تجارب عملية لإحياء التراث الشعبي، والصناعات التقليدية في الدول العربية، والأجنبية.

٣. تفعيل دور مراكز البحوث في الجامعات الفلسطينية، والهيئات التدريسية، بتوجيه طلبة الجامعات في الكليات المختلفة، بعمل البحوث، ومشاريع التخرج في الموروث الشعبي الفلسطيني.

- **توصيات للمؤسسات الحقوقية والإنسانية ومؤسسات المجتمع المحلي:**

١. رفع درجة المعرفة القانونية لدى أرباب العمل، وملاحقة الجانب الإسرائيلي، والذي ينتحل الصناعات الشعبية التراثية، ويسوقها في المحافل الدولية على أنها صناعات إسرائيلية .

٢. تكثيف العمل على البرامج الإعلامية في محطات الإذاعة، والتلفزة المحلية.

٣. عقد ورشات عمل متخصصة في الموروث الشعبي الفلسطيني، وآلية الدفاع عنه، وحمايته من الطمس، والاندثار.

- توصيات للوزارات الحكومية: العمل، والاقتصاد والتجارة، والثقافة، والتربية، والأوقاف والإعلام، والسياحة الفلسطينية :

١. دعم الصناعات الشعبية، والحرف التقليدية وتمويلها مالياً، من خلال تأسيس صندوق خاص لذلك، تشرف عليه الوزارات المعنية، كالسياحة والثقافة، والتجارة، والصناعة، والتربية.

٢. تنظيم ورشات عمل، وتدريب لأصحاب الصناعات الحرفية التقليدية، لإدخال تحسينات تكنولوجية عليها.

٣. عقد ندوات، وأيام دراسية، لتوعية الجيل، والنشء، بأهمية الصناعات التراثية، وتعزيز الاهتمام بها.

٤. وضع خطة تسويقية للمنتجات المحلية، ومنحها التسهيلات الضرورية.

٥. تبني الوزارات المعنية مع القطاع الخاص، إنشاء قرية حرفية سياحية، أو تراثية شعبية، تضم الصناعات التقليدية، والحرف الشعبية.

٦. تنظيم، وعمل معارض للصناعات الشعبية، والحرف التقليدية بالتنسيق مع الدول العربية، والأجنبية، بشكل دوري للترويج للمنتجات المحلية.

٧. العمل على تطوير المشاريع الصغيرة بمنحها القروض، والمنح المالية.

٨. ختم الصناعات الشعبية بشعار خاص منعاً للتزوير .

٩. تنمية العلاقة بالمجتمع المحلي، وتعزيزها، بخلق قنوات اتصال فعالة.

١٠. وضع خطة إعلامية للترويج للصناعات، والحرف الشعبية.

١١. وضع برنامج تربوي لتنمية إدراك الناس بأهمية التراث، والأثر الإيجابي الذي تحمله هذه الصناعات على البيئة، والقطاع السياحي، والحفاظ على الهوية الوطنية.

١٢.

عرض المنتوجات المحلية تحت راية العلم الاسرائيلي

عرض المصنوعات المحلية تحت راية العلم الاسرائيلي وبيعها على أنها صناعة اسرائيلية

الفصل الأول ـ الإطار العام للبحث:

مقدمة:

تعدّ منطقة نابلس من المراكز التجارية والصناعية الرئيسة في فلسطين منذ العصور القديمة، واشتهرت نابلس بالتجارة مع الدول العربية، والإسلامية، والأجنبية بتصدير المنتجات، والصناعات المحلية، واستيراد المواد الأولية للصناعة.

كان لكل صنعة، أو حرفة في مدينة نابلس ممثل– شيخ – لتنظيم العمل، وحل النزاعات، ويعين من قبل المُتسَلِمْ في المدينة، ويلبسه لباساً خاصاً به، وحمل شيخ الصنعة ألقاباً عدة منها:» الخواجة، أو العمدة، أو المعلم، ويقوم بمقام الغرفة التجارية اليوم.

اشتهرت مدينة نابلس بصناعات الصابون، والدباغة، والنسيج، والحياكة، واستخراج الأصباغ من النباتات، وحملت العديد من العائلات اسم الصنعة، أو الحرفة، ومنها :الشخشير بمعنى الثوب الفضفاض، و فضه، والحداد، والسوركجي، ودروزة، والجواهري، والصايغ، والخياط، وأبو الحلاوة، وأبو قش، وأبو سل .

ضرب فلسطين سنة ١٩٢٧م زلزال مدمر، وهدم الأسواق، والخانات، والمحلات التجارية، والصناعية، وتأثرت مدينة نابلس بالزلزال فقتل ١٥٠ شخصاً، وجرح ٢٥٠، مما حدا بالصناع، والتجار، وأصحاب الحرف بالنزول إلى القرى، والريف، وأقاموا فيها المراكز الصناعية، والتجارية، وأهم القرى:بورين، صره، عورتا، رفيديا، الجنيد، حجه، جيت، عينبوس، حواره، جماعين، ، أماتين، عصيرة القلية والشمالية، بيت فوريك، المجدل، طوباس، بيت امرين، برقه، اجنسيه، جبع، طمون، ياصيد، طلوزه، قلنسوه، جيوس، عزون. «إحسان النمر في كتابه تاريخ سوريا والبلقاء صفحة ٢٨٤».

الصور من شبكة الانترنت-موقع الوسائط التعليمية –زلزال فلسطين
/http://www.alwasett.com/vb/wasett1337

نزل التجار إلى هذه القرى، والتجمعات السكنية، والتاجر، أو الصانع متعلق بحرفته، ومصدر لقمة عيشه، ويشتغل حيثما تتوافر المواد الخام، والأيدي العاملة الرخيصة، والاستهلاك العالي، والعرض والطلب.

استقدم أهل مدينة نابلس الصناع المهرة من حلب، وحماه، وحمص، واستانبول، ودمشق لا سيما النصارى منهم للصناعات الدقيقة: كالصياغة، والحياكة، والنجارة، والصباغة، والحدادة، وكانت قافلة دمشق تخرج من نابلس حاملة راية آل النمر حتى تدخل عجلون، فترفع راية الفريحات حتى تدخل حوران، فترفع راية المحاميد، حتى تدخل دمشق وهكذا في العودة .»إحسان النمر في كتابه تاريخ سوريا والبلقاء صفحة ٢٧٤، ٢١٣.

أما الصناعات القشية ارتبطت بالمواسم الزراعية –مواسم الحصاد وجني المحصول على البيادر، وكانت تخزن، وتحتفظ المرأة بأكبر كمية ممكنة من القش، وسيقان النباتات في فصلي الربيع، والصيف، ويكون التصنيع غالباً في فصلي الخريف، والشتاء. لتلبية حاجة البيت من الأدوات القشية، أو تلبية طلبية بعض السكان الذين يطلبون هذه الأدوات، أو استخدامها هدايا في مناسبات الأفراح .

المصنوعات القشية هي صناعة نسوية، وطور الرجل بعض الصناعات نظراً للطلب عليها خاصة السلال بأشكال، وأحجام متنوعة، والشبابة، واليرغول، والمكانس، والعرائش، والبرازع، وتجليد الكتب، وموكرة الصيد–حفرة الصيد– تلبية لاحتياجاته الذاتية، ووسيلة للتكسب.

مشكلة الدراسة:

اكتسب الباحث من الحياة الاجتماعية التي عاشها، ومن خلال دراسته لمساق علم النفس الصناعي في مرحلة البكالوريوس، ومعايشة جو الريف، ومشاهدته لأرباب الصناعات الشعبية علاقات وثيقة، الأمر الذي مهد السبيل لمتابعة الصناعات الشعبية، ورصد ملاحظات كان يحس بها أو يسجلها .

أمام هذا الوضع، وجد أن هناك حاجة ماسة لدراسة هذا النمط من الموروث الشعبي، **وعليه يمكن الإشارة إلى ما يأتي** :

♦ هناك تساؤل واضح حول فعالية ممارسة الصناعات الشعبية في ظل عصر العولمة، واستيراد البضائع الرخيصة الثمن والأكثر دقة، وجودة، ومصنعة أوتوماتيكيا.

♦ هناك شعور يسود أن القائمين على صناعة القرار في الدوائر الحكومية الرسمية لا تعطي الصناعات الشعبية الاهتمام الكافي.

♦ تذمر العديد من أرباب الصناعات فيما يتعلق بتسويق منتجاتهم.

♦ تناقص عدد الحرفيين العاملين في الصناعات الشعبية.

♦ تلاشي، وانقراض بعض الحرف الشعبية، وذلك لعدم قدرتها على منافسة البضائع المستوردة.

♦ تدني وانعدام التخطيط الفعلي، والواقعي لدعم الصناعات، وتدني الحاجة للصناعات التقليدية لارتفاع التكلفة.

♦ مصادرة هوية الصناعات التقليدية، وفقدانها لروحها التراثية، حيث تسوق عبر التجار الإسرائيليين على أنها صناعة إسرائيلية.

أسئلة الدراسة:

١. ما المراحل التي تمر بها الصناعات الشعبية القشية ؟

٢. ما أهم الأدوات التراثية المصنوعة من القش والنباتات ؟

٣. ما مدى ودور المهتمين بالتراث بالمحافظة على هوية الصناعات من عمليات التشويه والانقراض والانتحال؟

٤. ما المفردات والمصطلحات المرتبطة بالأدوات المصنوعة من القش والمواد الأولية النباتية؟

حدود الدراسة:

يحدد البحث وإمكانية تعميم نتائجه في ضوء المحددات الآتية:

♦ الحدود الموضوعية:ويتضمن ممارسة الصناعات الشعبية وإجراءاتها.

♦ الحدود البشرية:يطبق البحث على أرباب الصناعات في منطقة نابلس والقرى المجاورة.

♦ الحدود الزمنية: استكمال جمع الصناعات الشعبية التراثية في العام ٢٠١٢/٢٠١٣م.

♦ الحدود المكانية:طبق الدراسة في منطقة نابلس والمناطق المجاورة.

أهداف الدراسة:

سعت الدراسة إلى العمل على تحقيق ما يأتي:

١. العمل على إحياء جانب مهم من التراث الفلسطيني، وهو الصناعات الشعبية التراثية، والحرف التقليدية لتنميتها، والمحافظة عليها.

٢. إبراز البعدين التراثي والحضاري للصناعات الشعبية التي تعبر عن تاريخ الشعب الفلسطيني وثقافته، حيث تجسد الوجود الفلسطيني على أرضه.

٣. الصناعات الشعبية هي صناعات صديقة البيئة، وموجهة للسياحة، والمجتمع المحلي.

٤. فضح ممارسات الجانب الإسرائيلي، وتعريتها في سرقة، وانتحال، وتزوير المنتجات، والمقتنيات التراثية الفلسطينية.

أهمية الدراسة:

١. تعدّ هذه الدراسة من الدراسات، والبحوث القليلة، والنادرة في فلسطين التي تتناول هذا الموضوع.

٢. يُرجى أن تعطي هذه الدراسة إضافة علمية إلى المكتبة المحلية، والتي هي بحاجة إلى مثل هذا النوع من الدراسات.

٣. استفادة المعنيين وصناع القرار من هذه الدراسة وتطبيقاتها العملية.

٤. إبراز العلاقة الوطيدة بين العمل التقليدي، والفن لأنه يعبر عما تتضمنه البيئة من تغيرات ثقافية، واجتماعية، واقتصادية، وسياسية.

٥. هذه الصناعات واجهت تقلبات الزمان، وتغيرات الظروف، ووقفت صامدة في وجه الغزاة، وقاومت الانقراض، وكان لها دور أساسي في نشر الثقافة، وكذلك في تشغيل الأيدي العاملة.

٦. ازدياد إدراك أهمية التراث، والتعبير الصادق عن الثقافة، والآثار الإيجابية على البيئة، والقطاع السياحي.

هذه العوامل مجتمعة تعطي أهمية للدراسة.

مصطلحات الدراسة:

◄ **الصنعة**: من صنع يصنع صنعاً، الشيء:عمله:صنع الشيء:حسنه بالصناعة، حوله من مادة خام إلى سلعة مصنوعة جاهزة للاستعمال . الصنعة عمل الصانع.

◄ **الصناعة**: جمع صنائع وصناعات: العلم الحاصل بمزاولة العمل.

◄ **الصانع**: جمع صناع: من يعمل بيده أو بالآلة.

◄ **المصنع**: جمع مصانع: دار الصناعة.

المرجع «د.عبد اللطيف البرغوثي:القاموس العربي الشعبي الفلسطيني، الجزء الثاني، جمعية إنعاش الأسرة–البيرة١٩٩٣م–صفحة ١٧١.

◄ **الصناعة الحرفية–الحرف الصناعية**: »كل نشاط في مجال الإنتاج، أو الصيانة، ويعتمد على المهارات اليدوية، وتستخدم الآلة فيه بشكل بسيط، وتكون المنتجات في هذا المجال غير نمطية. المرجع «(د.علي صالح النجادة، واقع الصناعات والحرف التقليدية في دولة الكويت، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر الصناعات التقليدية في الوطن العربي–الرباط–١٧–١٩/٩/٢٠٠٥م).

فالصناعة الحرفية تعتمد على الأيدي البشرية في تحويل الموارد الطبيعية بأبسط الوسائل، وبمهارات إنسانية عالية، وفنية، وإبداعية.

منهج الدراسة وإجراءاتها:

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي الذي يسير وفق الخطوات الآتية:الجانب الوصفي لواقع الصناعات الشعبية القشية، والمنهج المكتبي بالرجوع إلى الكتب والمجلات وما كتب عن الصناعات المنقرضة خاصة.

واستخدمت الدراسة الملاحظة المقصودة المباشرة، وذلك لتجميع الخبرات حول ما نشاهده أو نسمع عنه أو نعايشه، وذلك للتعرف إلى واقع الصناعات الشعبية التي كان، أو ما زال يمارسها الآباء، والأجداد، والمقابلة المباشرة مع أرباب الصناعات والحرف الشعبية والمهن التقليدية.

اعتمد الباحث جوانب محددة لملاحظة أرباب الصناعات الشعبية وممارستها من حيث:

١. المواد الخام.

٢. الأدوات المستخدمة.

٣. خطوات التنفيذ–مراحل التصنيع–الإجراءات.
٤. زمان ممارستها–الوقت–.
٥. المكان.
٦. الاستعمال.
٧. الصانع.
٨. منطقة الانتشار.

مصادر الدراسة:

١. الرسائل العلمية والبحوث المتوفرة.
٢. الندوات وورش العمل المتعلقة بالموضوع.
٣. شبكة الإنترنت.
٤. الكتب والدوريات والمراجع المتخصصة.
٥. أرشيف ومكتبة مركز التراث في جمعية إنعاش الأسرة في البيرة.
٦. أرشيف ومكتبة مركز السنابل للدراسات والتراث الشعبي في سعير.
٧. المشاهدات العينية.
٨. المقابلات الشخصية.
٩. الزيارات الميدانية.

خطة الدراسة:

١. الإطار العام الذي يشمل المقدمة، ومشكلة البحث، وأهمية البحث، وأهدافه، وحدوده . مصادره وأدواته، ومصطلحا ته.
٢. الدراسات السابقة والأدب التربوي .
٣. إجراءات الدراسة–العينة والمجتمع والأداة.
٤. عرض النتائج وتحليلها.
٥. مناقشة النتائج والتوصيات.
٦. قائمة المراجع والمصادر.

٧. صور الصناعات الشعبية.

٨. الملاحق.

الأدب التربوي والدراسات السابقة:

◄ **دراسة د.سلمى البرزي٢٠٠٠م**

هدفت الدراسة إلى التعريف بواقع الصناعات التقليدية في فلسطين من صناعة الخزف، وخشب الزيتون، والزجاج اليدوي، والصدف، والفخار، والتطريز، والخيزران .

كما أشارت الدراسة إلى المعوقات التي تواجه قطاع الصناعات التقليدية في فلسطين وعن دور السلطة الفلسطينية في تطوير هذا القطاع. (المرجع:»ورقة عمل مقدمة لمؤتمر الصناعات التقليدية في القاهرة المنعقد في الفترة ١١-١٤/٩/٢٠٠٠م

◄ **دراسة د.علي صالح النجاده٢٠٠٥م**

هدفت دراسته إلى التعرف إلى واقع الصناعات، والحرف التقليدية في دولة الكويت، وشملت دراسته نبذة عن تاريخ الصناعات، والحرف التقليدية في الكويت، واستعراض واقع الصناعات الحرفية، وعرض بعض المشاريع الرائدة، وبرامج التدريب، وما توفره دولة الكويت من دعم لهذا القطاع، واستعراض القوانين والتشريعات الداعمة .

كما أشارت الدراسة إلى وجود فجوة كبيرة في الاتصالات، وتبادل المعلومات بين الحرفيين، والجهات المعنية بالصناعات التقليدية، وكذلك لا يوجد تنسيق بين الجهات الداعمة، والمنسقة لأنشطة الصناعات التقليدية.

المرجع»ورقة عمل مقدمة لمؤتمر الصناعات التقليدية في الوطن العربي المنعقد في الرياض في الفترة الواقعة بين ١٧-١٩/٩/٢٠٠٥م»

◄ **دراسة نادر جلال التميمي ٢٠٠٧م**

هدفت دراسته التعريف بواقع الصناعات التقليدية في فلسطين، وأشارت دراسته للبعدين الحضاري والتراثي للصناعات التقليدية، والتي لها مكانة خاصة بين فروع الصناعة في فلسطين، وأنها ارتبطت منذ زمن طويل بالسياحة.

كما أشارت إلى المعوقات التي تواجه قطاع الصناعات التقليدية من حالات مد وجزر بسبب الاحتلال الإسرائيلي، وحالات الركود الاقتصادي، وما أصاب بعض الصناعات من انهيار واندثار.(المرجع:ورقة عمل مقدمة لمؤتمر الصناعات التقليدية في الوطن العربي المنعقد في فاس-المغرب العربي- في الفترة ١٧-١٩/٩/٢٠٠٧م)

◄ **دراسة وزارة العمل الفلسطينية: إنشاء مركز تطوير الصناعات الحرفية التقليدية في فلسطين**

أعد مجلس تشغيل محافظة القدس في وزارة العمل الفلسطينية مشروع الصناعات الحرفية التقليدية، وركز المشروع على السياحة، وأهميتها كقطاع ريادي، ودور الصناعات والحرف التقليدية كإحدى أعمدة الصناعة السياحية، وحول فكرة المركز الذي يعتمد على العنصر البشري –مركز متخصص لتطوير الصناعات الحرفية التقليدية –، ويتمركز حول تقديم التدريب، وتطوير المنتج، وتسويقه، وسبل مواجهة السياسة الإسرائيلية في طمس، ودثر الصناعات الحرفية، وكذلك الحديث عن إدارة المشروع وأنشطته، أنظر:»الدليل الصناعي في محافظة الخليل الصادر عن الغرفة التجارية الصناعية سنة ١٩٩٥–١٩٩٦م)

◄ **توصيات مؤتمر الصناعات التقليدية في الوطن العربي المنعقد في فاس–المغرب–٢٠٠٧م**

عقد بدعوة من المنظمة العربية للتربية، والثقافة، والعلوم، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بالتعاون مع وزارة السياحة والصناعة التقليدية، والاقتصاد الاجتماعي في المملكة المغربية، وبمشاركة ١٨ دولة عربية، حيث نوقشت محاور عدة أهمها:» واقع الصناعات التقليدية، والمشاريع الرائدة، ودور القطاع العام بالنهوض بالسياحة الثقافية، والقوانين، والتشريعات الداعمة لقطاع الصناعات الحرفية والعاملين فيه.

وأهم التوصيات التي أقرها المجتمع وهي:

- إنشاء مراكز محلية للدراسات الحرفية، وإنشاء مراكز متخصصة في تدريب، وتأهيل الحرفيين .
- زيادة الدعم للمؤسسات، والجمعيات العاملة، وإنشاء معاهد متخصصة في التعليم الحرفي.
- إدخال مادة التراث –الصناعات التقليدية– في مناهج التعليم .
- إنشاء قواعد بيانات تشمل صفحات الكترونية عن الصناعات، والحرف الشعبية.
- إصدار قوانين، وتشريعات لمراقبة جودة المنتجات من الصناعات التقليدية.
- إنشاء متاحف الحرف، وفتح الأسواق أمام تصدير المنتجات.

◄ **قائمة بأصحاب الصناعات التقليدية في محافظة الخليل٢٠٠٧م**

في إحصائية الغرفة التجارية المسجلين رسمياً ولديهم شهادة تسجيل معتمدة من

الغرفة التجارية الصناعية في الخليل الخزف ١٤، والزجاج ٤، والفخار ١٦، وطبلات الفخار ١، والنحاسيات ١، والفراء ١.

◄ **مشروع تطوير الحرف التقليدية في فلسطين/وزارة الثقافة ٢٠٠٨م**

هدف المشروع إلى تنمية المؤسسات العاملة في مجال تطوير الصناعات، والحرف التقليدية، وشمل الصناعات القشية، والفخار، والمطرزات من خلال عقد ورشات عمل متخصصة، بدعم من اليونسكو، لإعادة إحياء هذه الصناعات والمحافظة عليها من الانقراض، وأن تكون رديفاً للسياحة.

تعليق على الإطار النظري والدراسات السابقة:

استخلاصا من الدراسات السابقة، والإطار النظري للدراسة الذي أولته الاهتمام، والذي يُعَدْ حقلا واسعا، **فقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من المؤشرات الآتية:**

♦ أن الصناعات الشعبية، وممارستها ترتبط بالبعدين الحضاري، والتراثي للشعب الفلسطيني.

♦ الحرمان من المكاسب المادية الفعلية في حال تصدير المنتجات للخارج، حيث يقوم التجار الإسرائيليون ببيعها على أنها منتجات إسرائيلية.

♦ الصناعة الشعبية تعتمد الوراثة في العائلة وأخذت بعض العائلات اسمها منها:الفاخوري، والبراذعي، والسكافي، وأبو قدح، وأبو سل، وأبو قبعة، وأبو قش، ...

عرض النتائج ومناقشتها:

◄ للإجابة عن السؤال المتعلق بمراحل عملية التصنيع للمصنوعات القشية، و أغصان وأفرع النباتات على النحو الآتي:

المرحلة الأولى-مرحلة التقشيش:»التجميع«:

١. تتفق النسوة بالتجمع على البيدر بعد صلاة العصر خاصة من ذوات الخبرة الطويلة في العمليات الزراعية، والنسيج، والتي تمتاز بالخفة، والرشاقة، وسرعة الحركة.

٢. اختيار ظُمَمْ–باقة أو شمل– القش السمين، والطويل.

٣. اختيار السلامة الطويلة–قش التصنيع–القشة السمينة، والتخينة، والرفيعة الطويلة.

٤. اختيار أسفل السنبلة بعد قص السبلة عنها–كسر أو قصف السبلة من رأس القصبة.

٥. جمع القش المهذب معا–طول القصبة من ٤–٥ عقد –تقديرية –.

٦. جمع ظمم القش غير المهذب كحشوة.

٧. لف الظمة في وعاء خيش.

٨. الاحتفاظ بظمة القش في الظل بتعليقها على الجدار لحين الاستعمال، أو في المكان المخصص لها.

المرحلة الثانية-عملية البدوة:

١. تليين ظمة القش بنقعها في الماء.

٢. صباغة كمية محددة من القش بألوان زاهية.

٣. تحضير المخرز الخاص بعملية نسج القش–قضيب معدني رفيع ومدبب من الأعلى مثبت على قطعة خشبية من الأسفل..

٤. عمل صليب من أربع قشات من الجهات الأربع، وتثبت مع بعضها بعضاً بوساطة خيط قوي، أو سلك معدني.

٥. جدل القشات معا.

المرحلة الثالثة: عملية بناء الأدوار والصف:

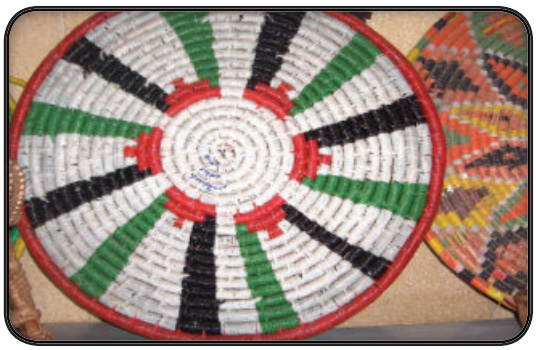

١. عمل فتحة صغيرة في القش المجمع معا لتثبيت الدور عليها.

٢. عقد ٤–٦ قشات على شكل دائرة قطرها ٢–٣ سم.

٣. بناء صفوف دائرية مكونة من حشوة مثبتة من الخارج بقشة تلتف حولها بإحكام.

٤. تثبيت الأدوار بعضها إلى بعض، عبر إحداث ثقب صغير بوساطة المخرز في الدور السابق.

٥. إدخال قشة النسيج في الفتحة، وتثبيتها بشكل دائري حول الدورين السابق واللاحق.

٦. إنتاج دوائر متراصة ومنسجمة بسمك ٤–٥ ملم حتى يصل النسيج إلى ٧٠ سم.

٧. إبقاء القشة بطول ثلثي الأصبع من السلامة كحشوة في الدور اللاحق.

المرحلة الرابعة: عملية الدرابة:

١. زخرفة الأدوار، والصفوف بألوان القش الزاهية، بأشكال هندسية متنوعة–مثلث، هرم، مربع.

المرحلة الخامسة: عملية الختم والحبكة:

١. ختم الأداة المصنوعة من القش بدور محبوك جيداً.

٢. تغطية الدور المحبوك بقطعة قماش بسمك ٤–٥ سم، لحفظ نهاية الدور الرئيسي وإبقاء النسيج كاملا.

٣. عمل مثلث صغير بارتفاع ٣سم في الطرف العلوي، أو بجانب الأداة لتعليقها على الحائط، أو في الكُلابْ الخاص بها.

٤. تجليدها بجلد الماعز المنظف، والمملح جيداً، لحفظها فترة طويلة من الزمن.

٥. عمل ظُبّاحة من الخيطان وربطها بالصف الأخير من المنقلة لإضافة الروح الجمالية عليها.

◄ للإجابة على السؤال الثاني :ما أهم الأدوات التراثية المصنوعة من القش وأغصان، وأفرع النباتات على النحو الآتي:

صناعة المكانس:

الصور من شبكة الانترنت

- **المواد الخام** : سيقان نبتة المكانس، أو الزحيف، أو اللفيته، أو نبتة النتش.
- **الأدوات المستخدمة** : المنجل، برميل للنقع، حبله للشد، سلك معدني، زراديه لشد السلك المعدني، مسله معدنية للتخييط، خيط بلاستيك من النوع المقوى، المقص، بلطة لقطع الزائد، مفرمة خشبية .
- **المكان** : في البيت .
- **الزمان** : ساعة إلى ثلاث ساعات .
- **خطوات التصنيع ، والإجراءات العملية** :

- تزرع بذور المكانس في الأرض ،وتقطف حين نضجها بعد مرور ثلاثة أشهر على زراعتها .
- تُقص العرانيس على طول متر واحد .
- فرط البذور عن العرانيس – كَتِها .
- تنقع في الماء من أجل الطراوة ،والاستعمال لمدة تتراوح من ساعة إلى ثلاث ساعات .
- تقسم إلى أصابع من إصبع إلى أربعة أصابع .
- تضم الأصابع الأربعة مع بعضها بعضاً بوساطة سلك معدني .
- تخاط بخيط بلاستيك بشكل عرضي ثلاثة أسراب .
- قص الرأس – رأس المكنسة – بوساطة مقص أو بلطة لتسوية الرأس، معادلة الزائد مع الناقص في الطول .

- توضع المكنسة في الشمس لمدة تتراوح ما بين ساعة إلى ثلاث ساعات لتجف من الماء .(* مجلة السنابل – المجلد الأول – الأعداد من ١–٤ – العدد الأول – حزيران ١٩٩٧م، ص ٢٨).

- **الاستعمال**: لأعمال النظافة .
- **الصانع**: الرجال.
- **منطقة الانتشار**: المناطق الزراعية.

تتركز هذه الصنعة في منطقة نابلس – وجنين.

تشتهر منطقة روجيب بهذه الصناعة، وتصدر إلى جميع أنحاء فلسطين.

المقشة ـ المَهْفَة:

- **المواد الخام**: قش القمح ،أو شجيرة النتش، أو الحلفا، أو الزحيف ،أو نبتة خس الحمير، أو الفجيلة.

* قد تختلف المسميات من منطقة إلى أخرى

- **الأدوات المستخدمة**: المخرز،خيط ،عصا.
- **المكان**: في البيت .
- **الزمان**: ساعة–وحسب مهارة المرأة .
- **خطوات التصنيع**: نفس خطوات صنع المكانس، ولكن بحجم أصغر، وتكون كبيرة الحجم إذا كانت مصنوعة من شجيرة النتش، حيث يوضع لها عصا طويلة.
- **الاستعمال**: لأعمال النظافة، وأحيانا تستعمل كمصفاة للأرز من الشوائب بعد نقعه بالماء أو لتحريك الهواء بعد عمل مقبض خاص لها..
- **الصانع**: المرأة.
- **منطقة الانتشار**: المناطق الزراعية.

السلال

الصورة من شبكة الانترنت.

♦ **المواد الخام** : القش من سيقان القمح، أو نبات الحلفا ،أو الزحيف، أو اللفيتة، أو القصب، أو البوص ،أو أفرع الزيتون،–الشغانيف–، وأفرع الخروب الطرية، أو السريس، أو العذق، أو العرقد .

* يهتم اليهود ومنهم طائفة السمرة في نابلس بدرجة عالية جدا بنبتة العرقد وهي نبته مقدسة عندهم لأنها تحمي اليهودي في نهاية الزمان من المسلمين حسب اعتقادهم وأساطيرهم–. يا عبد الله يا مسلم هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله إلا الغرقد فانه من شجر اليهود.

- **الأدوات المستخدمة** : المخرز .
- **المكان** : في البيت .
- **الزمان** : ٣–٤ أيام .
- **خطوات التصنيع** :

– في البداية يصنع قاعدة لها قد تكون على شكل دائري ،وإما على شكل مستطيل، وغالباً ما تكون على شكل مستطيل، وخطوات تصنيع القاعدة هي خطوات تصنيع المنقلة نفسها.

– ثم ترفع الصفوف على جوانب القاعدة بحجم غير كبير مثل القوطية، ولكن لمستوى يمكن أن يوضع فيه الأغراض، ويضع لها علاقات حتى يسهل حمل السلة باليد .

- **الاستعمال**: لنقل الخضار والفواكه.
- **الصانع**: المرأة وأحيانا الرجل بقصد البيع ،والتجارة.
- **منطقة الانتشار**: المناطق الزراعية.

تشتهر منطقة وادي الباذان في نابلس بصناعة وعرض السلال بمحاذاة المتنزهات .

الباطيه (القدح):

الصورتان من شبكة الانترنت.

♦ **المواد الخام** : القش من سيقان القمح ،أو نبات الحلفا ،أو الزحيف، أو اللفيته، أو القصب، أو البوص، أو أفرع الزيتون ،أو أفرع الخروب الطرية .

♦ **الأدوات المستخدمة** : المخرز .

♦ **المكان** : في البيت .

♦ **الزمان** : أسبوع .

♦ **خطوات التصنيع وإجراءاته** :

- في أيام الحصاد– البيادر تقوم المرأة بأخذ السلامه العليا من ساق القمح بعد قطع السنبلة ،وتختار السلامات الطويلة البيضاء ،وتحزمها في رزم إلى حيث الحاجة .

- بعد ذلك تقوم بنقع هذه الحزم في الماء ،وقد يتم صبغه بألوان عدة.

- تقوم المرأة بعد ذلك بنسج القش حول حزمه صغيره من القش الغليظ ،وتستعمل المخرز لعمل فتحه لإدخال القشة الجديدة ،وربط الأدوار الحلزونية ببعضها، ويصنع من القش الباطية، أو القدح، وهو على شكل صحن مجوف .

♦ **الاستعمال**: لوضع الأكل فيه من لحم وفت–القديد والثريد.

♦ **الصانع**: المرأة.

♦ **منطقة الانتشار**: المناطق الزراعية.

* ارتبطت الباطيه قديما بالضيافة والكرم.

* انقرضت هذه الأداة ولكنها موجودة في المتاحف والزينة.

المنقلة ـ الصينية ـ الطبق:

- **المواد الخام** : قش (سيقان القمح) .
- **الأدوات المستخدمة** : المخرز .
- **المكان** : في البيت .
- **الزمان** : ٤–٥ أيام .
- **خطوات التصنيع** :

- نقع القش في الماء يوم وليله، حتى يصبح القش طرياً لا يتقصف أثناء لفه .
- بعد ذلك يؤتى بحزمه من القش تعدُّ النواة ،أو البداية للمنقلة .
- تقوم المرأة بلف القش حول هذه الحزم بشكل دائري .
- بعد أن تكبر شيئاً فشيئاً تأخذ هذه المرأة بعمل صفوف دائرية فوق بعضها بعضاً حتى تصبح على شكل المنقلة دائرياً ،وتستخدم المخرز بثقب الصف الذي يكون محشواً من الداخل بالقش الأقل جوده، من القش التي تلف به الصفوف .
- تقوم بإدخال القشة في هذا الثقب، وتعمل على لفها، وهكذا حتى تصل إلى الحجم التي نريده، وفي النهاية تعمل على شكل مثلث لتعليق المنقلة .

- **الاستعمال**: لوضع الخبز عليها، أو الأغراض أو القطايف، أو لتقديم الطعام للضيوف، أ، تغطية العجين، أو تنشيف الملوخية، أو عمل الشعيرية من العجين.
- **الصانع**: المرأة.
- **منطقة الانتشار**: المناطق الزراعية.

مكيال الطحين ـ التِرويج ـ بكسر التاء:

♦ **المواد الخام** : القش من سيقان القمح ،أو نبات الحلفا، أو الزحيف، أو اللفيته، أو القصب ،أو البوص أو أفرع الزيتون أو أفرع الخروب الطرية ..

♦ **الأدوات المستخدمة** : المخرز .

♦ **المكان** : في البيت .

♦ **الزمان** : يوم–ثلاثة أيام .

♦ **خطوات التصنيع** : هي خطوات صنع المنقلة نفسها، ولكن يكون شكل المكيال مجوف حتى يستطيع وضع الطحين فيه .

♦ **الاستعمال**: لكيل الطحين، لحمل الدقيق عند الخبز – وجه العجين.

♦ **الصانع**: المرأة.

♦ **منطقة الانتشار**: المناطق الزراعية.

الصواني:

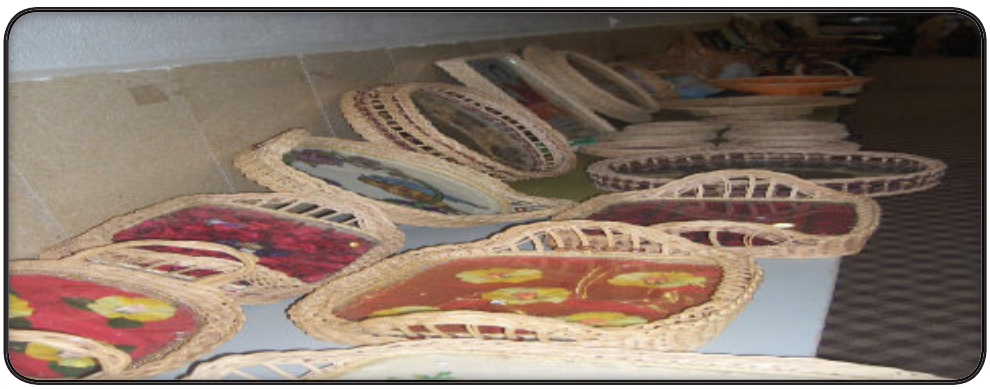

- **المواد الخام** : القش .
- **الأدوات المستخدمة** : المخرز .
- **المكان** : في البيت .
- **الزمان** : يوم إلى يومين .
- **خطوات التصنيع** : هي خطوات المكيال نفسها ولكن يكون التجويف قليلاً (أقل من المكيال)، وتكون لها قاعدة مربعة، إنما المكيال تكون القاعدة دائرية .
- **الاستعمال**: لوضع أرغفة الخبز وغماس–الصحون– الأكل عليها.
- **الصانع**: المرأة.
- **منطقة الانتشار**: المناطق الزراعية.

الباطية للرز والمنسف وهي من الخشب

القوطيه ـ القوطه ـ:

الصورة من شبكة الانترنت.

- **المواد الخام** :. القش من سيقان ،القمح ،أو نبات الحلفا ،أو الزحيف ،أو اللفيته، أو القصب ،أو البوص، أو أفرع الزيتون،أوالخروب الطرية ،أو السريس .
- **الأدوات المستخدمة** : المخرز .
- **المكان** : في البيت .
- **الزمان** : ٢–٣ أيام .

♦ **خطوات التصنيع** :

- القاعدة تكون دائرية، ويكون شكلها مثل قاعدة المنقلة تماماً .

- ثم بعد ذلك ترفع الصفوف بشكل دائري فوق القاعدة، وتأخذ هذه الصفوف بالتصغير كلما ارتفعنا إلى فوق، حتى يصل إلى حد يساوي حجم رغيف الخبز، وهذا يسمى باب القوطية، ويبقى مفتوحاً، ويُصنع له غطاء منفرد على شكل دائري، وخطوات تصنيعها هي خطوات تصنيع المنقلة نفسها.

♦ **الاستعمال**: لحفظ الخبز، أو الفواكه، والخضار، والمواد الغذائية كاللوز، والفستق، والحلوى، والقطين، والزبيب.

♦ **الصانع**: المرأة.

♦ **منطقة الانتشار**: المناطق الزراعية.

بيت البيض ـ المعلاق ـ القُبْعَه ـ الملقط ـ القرطل:

♦ **المواد الخام** : القش من سيقان القمح، أو نبات الحلفا، أو الزحيف، أو اللفيته، أو القصب، أو البوص، أو أفرع الزيتون، أو أفرع الخروب الطرية، أو السريس.

♦ **الأدوات المستخدمة** : المخرز .

♦ **المكان** : في البيت .

♦ **الزمان** : يوم إلى يومين .

♦ **خطوات التصنيع** : خطوات تصنيع السلال نفسها، ولكن تكون بحجم أصغر من السلال .

- **الاستعمال**: لحفظ البيض، أو التين أو جمع المحاصيل الزراعية، ونقلها، وحفظها وتتسع ل ٣–٤٠ كغم.
- الصانع:المرأة.
- **منطقة الانتشار**: المناطق الزراعية.

الطبق:

- **المواد الخام** : قش القمح .
- **الأدوات المستخدمة** : المخرز .
- **المكان** : في البيت .
- **الزمان** : حسب مهارة المرأة، وسرعتها في التصنيع .
- **خطوات التصنيع**: نفس خطوات تصنيع السلال، ويكون على شكل وعاء مستدير قطره حوالي المتر، وكانت المرأة تصبغ القش بألوان عدة، بحيث يصبح الطبق زاهياً جميلاً .
- **الاستعمال**: يستعمل لوضع الأكل عليه، وخاصة للضيوف بحيث صارت كلمة طبق تعني الطعام الذي يقدم للضيوف على الطبق .
- **الصانع**: المرأة.
- **منطقة الانتشار**: المناطق الزراعية.

الشبابة واليرغول:

الصور من شبكة الانترنت

- **المواد الخام** : القصب، جذوع الأشجار–العقد السنارية.
- **الأدوات المستخدمة** : المخرز
- **المكان** : في المرعى ن أو في البيت.
- **منطقة الانتشار**: الريف والبادية
- **خطوات التصنيع**:

- اختيار قصبات بطول تسع قبضات باليد ٤٠–٥٠ سم
- فتح القصبات من الطرفين.
- تتكون من ثلاثة أقسام:الجسم والرقبة والقاع
- عمل فوهة للشبابة بين ١:٥–٢:٥ سم .
- عمل ثقوب تتراوح بين ٥–٧ ثقوب.

- **الاستعمال**: مرافقة للراعي في حله وترحاله، ومرافقة للدبكات الشعبية، والأفراح، والليالي الملاح.
- **الصانع**: الرجل–الراعي أو النجار العربي.
- **الزمان** : فصل الربيع.

** دخل في تركيب الشبابة القصب، والزجاج، ويكون العزف بوضع فوهة الشبابة على شفة العازف، أو على سِنه، واستخدام السِن في تثبيت الشبابة، ووضع اليد اليسرى على الثقوب السفلى للتحكم بها، وأصابع اليد اليمنى على الثقوب العليا.

العريشة:

الصورة بعدسة الباحث د.إدريس جرادات على شاطئ البحر الميت

الصورة من شبكة الانترنت.

- **المواد الخام** : البوص، والقصب، والقش، وأغصان وأفرع الأشجار.
- **الأدوات المستخدمة** : الشاكوش، والمطرقة، والمخرز.
- **المكان** : طرف الحقل، أو على تلة مشرفة.
- **منطقة الانتشار**: الحقول الزراعية.

♦ **خطوات التصنيع، وإجراءاتها**:

- اختيار قطعة أرض مستوية، وإزالة الحجارة، والتربة منها
- نصب أعمدة خشبية على شكل مستطيل.
- صف البوص، أو القصب بجانب بعضها بعضا.
- تثبيتها بأسلاك معدنية.

♦ **الاستعمال**: منطرة للكروم، أو القيلولة، أو مكان لخزن المحصول لحين نقله إلى مكان التخزين، وسور استنادي لحديقة المنزل، أو حظيرة لإيواء الحيوانات.

♦ **الصانع**: الرجل

♦ **الزمان** : فصلي الربيع والصيف

حفرة الصيد ـ الموكرة:

♦ **المواد الخام**: القش، والنتش، واللفيتة، والحلفا، والزحيف، والفجيلة، وبقايا القثائيات، وأغصان وأفرع الأشجار.

♦ **الأدوات المستخدمة** : أدوات الحفر من فأس، ومجرفة.

♦ **المكان** : البرية، والمناطق التي ينتشر فيها الصيد.

♦ **خطوات التصنيع، وإجراءات العمل**:

- حفر حفرة مستطيلة بعمق ١–٢م.
- وضع أعمدة خشبية بشكل أفقي.
- تغطية الحفرة بالقش، ومخلفات النباتات.
- تغطية القش الذي يغطي الحفرة بالتراب.

♦ **الاستعمال**: لإيقاع الفرسان في ساحة المعركة، وإلقاء القبض على الفريسة.

♦ **الصانع**: الرجل

♦ **الزمان**: على مدار السنة .

* استخدمت الموكرة بشكل واسع في السهول، في وقت الحروب، والمشاكل بين العائلات الإقطاعية .

صندوق العروس:

- **المواد الخام** : البوص والقصب، والخيزران.
- **الأدوات المستخدمة** : الشاكوش، والمخرز، والسلك المعدني.
- **المكان** : محل النجار العربي–المشغل.
- **منطقة الانتشار**: الريف
- **خطوات التصنيع، وإجراءات العمل**:
  - تحديد الشكل، والطول، والعرض.
  - صف القصب بجانب بعضه، وقص الزوائد.
  - عمل غطاء الصندوق مع زرفيل–سكرة.
- **الاستعمال**: لوضع ملابس العروس وصيغتها فيه، والأشياء الثمينة.
- **الصانع**: النجار العربي.
- **الزمان** : حسب الطلب–فصلي الربيع والصيف.

* هناك أنواع عديدة من الصناديق الخشبية، وبأحجام مختلفة.

* انقرضت هذه الصناعة لانتشار غرف النوم، والموبيليا، والأثاث، ولكن توجد في المتاحف.

القُبُغ ـ الطاقية الشمسية:

- **المواد الخام** : البوص، والقصب.
- **الأدوات المستخدمة** : المخرز
- **المكان** : البيت
- **منطقة الانتشار**: الريف
- **خطوات التصنيع، وإجراءات العمل**:
  - تحديد حجم، وشكل القبعة.
  - اختيار نوع القش، وعمل البدوة.
  - عمل الصفوف والدوائر حبك الصف الأخير
- الاستعمال:تغطية الرأس.
- الصانع:المرأة
- الزمان : فصلي الربيع والصيف

البرذعة:

- **المواد الخام**: أكياس الخيش، الشادر، القصل والتبن،
- **الأدوات**: الميبرة، المخرز، القالوش، الخيوط والحبال.المدق، الشاكوش.
- **المكان**: المشغل.
- **الزمان**: خلال العام–موسم النقل، والحصاد.

- **خطوات التصنيع، وإجراءات العمل**:
- قص الخيش، والشادر حسب حجم الحمار، أو البغل.
- تخييط الخيش مع الشادر.
- حشو الشادر بالقش، والقصل.
- **الاستعمال**: وقاية لظهر الحمير، والبغال، للركوب، والتحميل.
- **الصانع**: البراذعي.
- **منطقة الانتشار**: البلدة القديمة في المدن الرئيسية.

ارتبط اسم عائلة البراذعي، والحلس بهذه الصنعة، وهي وراثة في العائلة.

* مثل شعبي:»كيف الحال حشو الرحال».أي وضعه تعبان ومهلهل.، وزي برذعة الحمار.

الصورتان من شبكة الانترنت

تجليد الكتب:

- **المواد الخام**: الورق، الكرتون المقوى، الصمغ، المشمع.
- **الأدوات**: المقص، المسطرة، ثقل من الحديد، أو الحجر، فرشاة.
- **المكان**: المشغل.
- **الزمان**: خلال العام.

♦ **خطوات التصنيع، وإجراءات العمل** :

- قص الورق، أو الكرتون المقوى حسب حجم الكتاب.
- مسحه بالصمغ، وتركه ليجف.
- لصق الورق المقوى على كعب الكتاب.
- ضغط الكرتون المقوى على وجهي الكتاب.
- وضع ثقل على وجه الكتاب، وتركه حتى يمسك بقوة.

♦ **الاستعمال**: لحفظ أوراق الكتاب من التلف والرطوبة.

♦ **الصانع**: الرجل–الوَراق–.

♦ **منطقة الانتشار**: البلدة القديمة في المدن الرئيسة.

* انقرضت هذه الصنعة لانتشار المطابع الحديثة، والتجليد الآلي، وتنتهي الصنعة بوفاة الوراق الذي يقوم بعملية التجليد إذا لم يورثها لأبنائه.

الصورة من شبكة الانترنت.

◄ وللإجابة عن السؤال الثالث ما مدى ودور المهتمين بالتراث بالمحافظة على هوية الصناعات الشعبية من عمليات التشويه والانقراض والانتحال

كانت على النحو الآتي:

١. جمع وتوثيق المواد العينية التراثية، والمقتنيات في متحف شعبي، أو الاحتفاظ بها في البيت.

٢. إجراء دراسات، وكتابة المقالات حول التراث، وأهميته، ونشرها في الصحف والمجلات المحلية والعربية والعالمية وعلى المواقع الالكترونية.

٣. المشاركة في المعارض المحلية، والعربية، وتحفيز طلبة الجامعات، والمؤسسات على إقامتها بشكل دوري.

٤. التوعية عن طريق البرامج الإذاعية، والتلفازية، بأهمية المحافظة على المقتنيات التراثية.

٥. إصدار مجلات وصحف وصفحات الكترونية متخصصة في التراث الشعبي والصناعات والحرف التقليدية مثل : مجلة التراث والمجتمع، التي تصدر عن مركز أبحاث التراث في جمعية إنعاش الأسرة في البيرة، ومجلة السنابل التراثية، التي تصدر عن مركز السنابل للدراسات والتراث الشعبي في سعير.

٦. تأسيس مراكز بحوث، ومراكز ثقافية، وجمعيات، وأندية متخصصة في التراث الشعبي.

٧. عقد الندوات، وورش العمل، والأيام، والحلقات الدراسية حول التراث الشعبي.

٨. تقديم دراسات وأوراق عمل متخصصة في المؤتمرات المحلية والدولية، حول التراث الشعبي.

٩. هذا المؤتمر وغيره يعتبر بصمة نوعية في الإشارة إلى التراث، وأهميته، الذي يعبر عن هوية هذا الشعب.

١٠.تكريم الباحثين في التراث الشعبي وتحفيزهم بنشر إنتاجهم الأدبي والفني، والمهتمين بجمع المقتنيات التراثية.

١١.نشر التراث وتعميمه على شبكة الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي.

◄ للإجابة عن السؤال الرابع ما المفردات والمصطلحات المرتبطة بالصناعات القشية والمواد الأولية من أغصان وأفرع النبات على النحو الآتي:

المفردات والمصطلحات:

- ظُمَّة:ربطة أو حزمة
- شِمل: باقة سنابل كبيرة.
- الغِمر:مجموعة من الشمولة أو الشملة .
- الحَلة:مجموعة من الغمور.
- السلامة:السبلة الطويلة الصالحة للاستعمال
- العَرنوس:رأس السبلة
- الشَحمية:بقايا الجرن من قصل وحب
- ترابية الجرن: بقايا الحب المخلوط بالتراب
- التذرية:عملية فصل القش والتبن عن الحب
- الكَرْبَلة والغربلة:عملية تنقية الحبوب من الشوائب
- الجُرْن:البيدر
- الطرحة:كومة القش المفرود على الجرن.

** قد تختلف المسميان من منطقة إلى أخرى.

النتائج والتوصيات :

بعد هذه العرض والإجابة عن أسئلة الدراسة عليه يمكن الإشارة إلى النتائج الآتية:

١. الصناعات التراثية والحرف الشعبية والتقليدية ذات بعد عائلي وأسري، وتنتشر في مناطق محددة حسب توافر المواد الأولية.

٢. تعمل على تلبية احتياجات الأسرة بطرق فنية مبتكرة، بأشكال وأحجام متنوعة.

٣. موادها الأولية والمواد الخام متوافرة في البيئة المحلية.

٤. بعض الصناعات انقرضت نتيجة عدم الصمود في وجه البضائع المستوردة وسوق العمل المنافس.

٥. المصنوعات القشية تحفظ المواد الغذائية من الرطوبة والعفن والخمج والتلف والتعريق.

٦. المصنوعات القشية صناعة نسوية، ولكن طور الرجل بعض الصناعات لزيادة العرض، والطلب عليها ،و الصناعات القشية من أنماط التكنولوجيا المحلية، والمصنعة بأيد فلسطينية .

في ضوء النتائج التي توصلت إليها الدراسة فإنها توصي بما يأتي:

١. توصيات بحثية وأكاديمية لإجراء بحوث ودراسات مقترحة مستقبلية

- إجراء دراسات وصفية، وتحليلية لمعطيات الواقع ،وحقائقه، من خلال أسلوب تحليل النظم– مدخلات–عمليات–مخرجات.

- إجراء دراسات مقارنة مع تجارب عملية لإحياء التراث الشعبي والصناعات التقليدية في الدول العربية، والأجنبية.

- تفعيل دور مراكز البحوث في الجامعات الفلسطينية، والهيئات التدريسية، بتوجيه طلبة الجامعات في الكليات المختلفة ،بعمل البحوث ،ومشاريع التخرج في الموروث الشعبي الفلسطيني.

٢. توصيات للمؤسسات الحقوقية والإنسانية:

- رفع درجة المعرفة القانونية لدى أرباب العمل ،وملاحقة الجانب الإسرائيلي ،والذي ينتحل الصناعات الشعبية التراثية، ويسوقها في المحافل الدولية على أنها صناعات إسرائيلية .

- تكثيف العمل على البرامج الإعلامية في محطات الإذاعة، والتلفزة المحلية.

- عقد ورشات عمل متخصصة في الموروث الشعبي الفلسطيني، وآلية الدفاع عنه ،وحمايته من الطمس والاندثار.

٣. توصيات للوزارات الحكومية: العمل، والاقتصاد، والثقافة ،والسياحة الفلسطينية ،ومؤسسات المجتمع المحلي:

- دعم الصناعات الشعبية ،والحرف التقليدية وتمويلها ماليا ،من خلال تأسيس صندوق خاص لذلك ،تشرف عليه الوزارات المعنية، كالسياحة والثقافة ،والتجارة ،والصناعة،والتربية.

- تنظيم ورشات عمل ،وتدريب لأصحاب الصناعات الحرفية التقليدية ،لإدخال تحسينات تكنولوجية عليها.

- عقد ندوات، وأيام دراسية ،لتوعية الجيل ،والنشء، بأهمية الصناعات التراثية، وتعزيز الاهتمام بها.

- وضع خطة تسويقية للمنتجات المحلية ومنحها التسهيلات الضرورية.

- تبني الوزارات المعنية مع القطاع الخاص، إنشاء قرية حرفية سياحية، أو تراثية شعبية، تضم الصناعات التقليدية، والحرف الشعبية.

- تنظيم وعمل معارض للصناعات الشعبية والحرف التقليدية بالتنسيق مع الدول العربية، والأجنبية ،بشكل دوري للترويج للمنتجات المحلية.

- العمل على تطوير المشاريع الصغيرة بمنحها القروض والمنح المالية.

- ختم الصناعات الشعبية بشعار خاص منعا للتزوير .

- تنمية العلاقة بالمجتمع المحلي ،وتعزيزها ،بخلق قنوات اتصال فعالة.

- وضع خطة إعلامية للترويج للصناعات والحرف الشعبية.

- وضع برنامج تربوي لتنمية إدراك الناس بأهمية التراث ،والأثر الإيجابي الذي تحمله هذه الصناعات على البيئة ، والقطاع السياحي ، والحفاظ على الهوية الوطنية.

الملاحق

ملحق الطوائف الحرفية في القدس في القرن السابع عشر الميلادي

السوقة، الطحانون، القصابون، المعاصرية، الخبازون، الحدادون، الحفارون، الحلوانية، الحياكون، الخياطون، الدباغون، الزبالون، السقائون، السلاخون، السياجون، الشعارون، الشماعون، الصباغون، الصياغون، الأطباء والحكماء، بائعو الكتب، البياطرة، التجار، الترابون–دفن الموتى–، حمالو الموتى، الحماميم، الحلاقون، الحصرية، الدالون، الدلالون–الدلال–، البوابجية، الكاكينية، السيوفية، البيارية–البيارة.

(أنظر:»د.محمود علي عطا الله:وثائق الطوائف الحرفية في القدس في القرن السابع عشر الميلادي من خلال سجلات محكمة القدس الشرعية، الجزء الأول، مركز التوثيق والمخطوطات، جامعة النجاح الوطنية، طبعة أولى ١٩٩١م»).

ملحق الصنعة في الأمثال والمأثورات الشعبية

- من ملك صنعه ملك قلعه.
- من رقعت ما عرت.
- من وفرت ما جاعت.
- اللي بتعجبه الكروة بيرجع على المارس.
- عن الفاخوري لا تمر يا بشغلك يا بشغل الكر.
- الشغل مش عيب.
- دوده من عوده.
- سبع صنايع والبخت ضايع.
- لم يهلك من اقتصد.
- لم يفتقر من زهد.
- ابن بنا واشتهى علية.
- غبار العمل ولا زعفران البطالة.
- ابن السكافي حافي.
- باب النجار مخلع.
- قمح وزيت أسدين في البيت.
- أعط خبزك للخباز ولو ياكل نصه.
- الكسل آفة الصانع.
- العجول مخطئ ولو ملك.
- المتأني مصيب ولو هلك.
- اسأل مجرب ولا تسأل حكيم.
- كن مخلصا في عملك تبلغ أقصى املك.

- برد السبل يهد الجبل.

قمح ديرباني وهبت ريح جلابك.

- قالوا يا حمار معزوم على الفرح:قال يا مشوار طويل يا حمل ثقيل ، يا حمل، يا نقل، يا سقا يا حطاب.
- المقروص يخاف من جرة الحبل.
- قوم يا عبدي لأقوم معاك، وإن ماقمت ما بنفعك.
- الريس الشاطر يجيب الريح من قرونه.
- اشتغل بالمقصوص ليجيك الطيار.
- الو رغيف مقرص من دقن معرص.
- اللي الو بلعوم يحتاج يقوم.

أبو نيه سار وابو نيتين احتار –رسى.

- الهفة بتقتل صاحبها.
- مثل حراث الجمال اللي بحرثه برصه–بدكه.
- الصنعة إن ما اغنت بتستر.
- السكافي حافي والحايك عريان وبيت البنا ملان فيران.
- العمر بخلص والشغل ما بخلص.
- في ومرعى وقلة صنعه.
- الرجال بتنعري وبتنكسيز
- يد العامل ثمينة ما دامت امينة فإن خانت هانت.
- موضع–محل –ما ترزق الزق.
- اللي ياخذ الاجرة يتحاسب بالعمل.
- من أمنك لا تخونه لو كنت خاين.(من كتاب إحسان النمر تاريخ جبل نابلس والبلقاء صفحة ٢٨٦–٢٨٧)

ملحق القمح الديرباني* في الأغنية الشعبية

يا قمح ديرباني يا طالع على الميه.
يا قمح ديرباني يا غالي عليه.
عرفه زي الصوان.
عمري ما اريت* زيه.
يا طوله عود الزان.
غاوي* وشبعان ميه.
يا خالي من الزيوان*.
الكيس يسوى ميه.

* دير أبان:قرية مهدمة في العام ١٩٤٨م، كانت ضمن قرى العرقوب من قضاء القدس.
* أريت:رايت
* غاوي:يتباهى
* الزيوان:الشوائب
** الراوي كعبد العزيز أبو هدبا من مواليد قرية دير أبان ١٩٣٥م ويعمل باحثا في جمعية إنعاش الأسرة-البيرة:تمت المقابلة بتاريخ ٢٠٠٩/٤/٥م.انتقل إلى رحمة الله تعالى في العام ٢٠١١م.

المصادر والمراجع:

١. إحسان النمر: تاريخ جبل نابلس والبلقاء–الجزء الثاني أحوال عهد الإقطاع، مطبعة النصر التجارية نابلس ١٩٦١م.

٢. د.إبراهيم الفني:نابلس في الحضارتين الرومانية واليونانية ، بلدية نابلس كانون ثاني ١٩٩٩م.

٣. عمر حمدان:العمارة الشعبية في فلسطين، ط ١، مركز التراث الشعبي –جمعية إنعاش الأسرة ١٩٩٦م.

٤. نبيل عناني وسليمان منصور:دليل فن التطريز الفلسطيني، مركز التراث الشعبي – جمعية إنعاش الأسرة.

٥. شكري عراف:الأرض والإنسان والجهد–دراسة لحضارتنا المادية على أرضنا، ط٢ ، الجليل للتجليد–مطبعة أخوان–ترشيحا، ١٩٩٣م.

٦. د.إدريس جرادات:المصنوعات القشية الشعبية في القدس العربية وقراها، مجلة الزيزفونة–رام الله عدد خاص بمناسبة احتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية تموز ٢٠١٢م.

٧. أعداد١–١٢ من مجلة السنابل التي تصدر عن مركز السنابل للتراث الشعبي.

٨. أعداد١–٤٠ من مجلة التراث والمجتمع التي تصدر عن مركز التراث الشعبي في جمعية إنعاش الأسرة–البيرة.

٩. د.عبد اللطيف البرغوثي:القاموس العربي الشعبي الفلسطيني، الجزء الثاني، جمعية إنعاش الأسرة–البيرة١٩٩٣م–صفحة ١٧١.

١٠. د.علي صالح النجادة، واقع الصناعات والحرف التقليدية في دولة الكويت، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر الصناعات التقليدية في الوطن العربي–الرباط–١٧–١٩/٩/٢٠٠٥م).

١١. ورقة عمل مقدمة لمؤتمر الصناعات التقليدية في القاهرة المنعقد في الفترة ١١–١٤/٩/٢٠٠٠م

١٢. »ورقة عمل مقدمة لمؤتمر الصناعات التقليدية في الوطن العربي المنعقد في الرياض في الفترة الواقعة بين ١٧-١٩/٩/٢٠٠٥م»

١٣. ورقة عمل مقدمة لمؤتمر الصناعات التقليدية في الوطن العربي المنعقد في فاس- المغرب العربي- في الفترة ١٧-١٩/٩/٢٠٠٧م

١٤. الدليل الصناعي في محافظة الخليل الصادر عن الغرفة التجارية الصناعية سنة ١٩٩٥-١٩٩٦م)

١٥. د. ناجي عبد الجبار وعدله غوشه:دليل متحف التراث الشعبي في جمعية إنعاش الأسرة-البيرة

١٦. .(المرجع:نبيل عناني وسليمان منصور:دليل التطريز الفلسطيني، ظ٤ ، مركز التراث الشعبي في جمعية إنعاش الأسرة، ٢٠٠٤م).

١٧. د. شكري عراف – الحرير – من مصادر الاقتصاد الفلسطيني – الطبعة الأولى – بتاريخ كانون ثاني ١٩٩٧، ص ٣٠٤ – ٣١١ (مقتبس) .

١٨. المديرية العامة للإرشاد والإعلام الزراعي والبحث التطبيقي – دليل المزارع – ١٩٩٩ص ٢٠٠ « صادر عن وزارة الزراعة».(مهندسة زراعية سحر الشعراوي).

١٩. د.محمود علي عطا الله:وثائق الطوائف الحرفية في القدس في القرن السابع عشر الميلادي من خلال سجلات محكمة القدس الشرعية، الجزء الأول، مركز التوثيق والمخطوطات، جامعة النجاح الوطنية، طبعة أولى ١٩٩١م»).

٢٠. مشروع حماية وتطوير الحرف والصناعات التقليدية-وزارة الثقافة الفلسطينية ٢٠٠٨م.

٢١. ثائر العطاري وعادل يحيى:الحرف اليدوية التقليدية الفلسطينية-المؤسسة الفلسطينية للتبادل الثقافي، رام الله ٢٠٠٨م.

المراجع الحية:

١. مقابلات مع الباحثين والمهتمين وأرباب الصناعات الشعبية وأصحاب أو موظفي المتاحف التراثية.

- محمد فهد الأعرج–السواحره الشرقية–٨٠ عاما–٢٠٠٩/٢/٢٢م.

- د.شريف كناعنه:٢٠٠٩/٤/٥م الباحث المحرر المسئول لمجلة التراث والمجتمع في جمعية إنعاش الأسرة–البيره.

- عبد العزيز أبو هدبا:٢٣ /٢٠٠٩/٢م و٢٠٠٩/٤/٥م الباحث في جمعية إنعاش الأسرة –البيرة»من مواليد دير أبان القرية المدمرة في العام ١٩٤٨ قضاء القدس».

- نادر جلال التميمي:رئيس اتحاد الصناعات التقليدية والحرفية في فلسطين–الخليل–٢٠٠٩/٢/٢٢م.

٢. أرشيف مركز السنابل للدراسات والتراث الشعبي–سعير الخليل

٣. الزيارات الميدانية.

٤. المقابلات الشخصية.

٥. الصور من أرشيف مركز السنابل للدراسات والتراث الشعبي في سعير–الخليل .

طقوس الحمامات الشعبية في مدينة نابلس

أ. رائدة زهدي عيسى*

* عضو هيئة تدريس غير متفرغة/ جامعة القدس المفتوحة/ فرع نابلس.

طقوس الحمامات الشعبية في مدينة نابلس

مقدمة:

لا يمكن تجاهل أهمية الطقوس الشعبية كجزء ليس ببسيط من التراث الشعبي، الذي يعكس في مجموعه حياة شعب معينة في بقعة جغرافية معينة، وفي ظروف اقتصادية واجتماعية مميزة.

ولعل الحاجة الملحة لحفظ تلك المعتقدات ماسة في الوقت الحاضر قبل أي وقت مضى وذلك لاندثار تلك المعتقدات في ظروف سياسية في بعض الأحيان وأخرى حضارية، ولعلّ الحضارة أهمها؛ لكونها أتت بمعطيات ومفاهيم وغيرت من ظروف البيئة والمجتمع الشيء الكثير.

ومجمل القول إن العادات والتقاليد والمعتقدات القديمة في طريق الاندثار، ولعلّ هذا القول أكثر صدقاً وانطباقاً على فلسطين من أي بلد آخر.

يتناول هذا البحث الطقوس الخاصة بالحمامات الشعبية، الذي يعكس في مجموعه حياة شعب معين في بقعة جغرافية معينة، وفي ظروف اقتصادية واجتماعية مميزة، والحاجة ماسة لحفظ تلك الطقوس التي تمارس في الحمامات الشعبية في الوقت الذي أخذت فيه الآلات الموسيقية الحديثة محل الغناء الشعبي التراثي، مما جعلنا على أعتاب مرحلة اندثار تلك الطقوس المرافقة للحمامات، حيث يندر اليوم أن نجد من أبناء الجيل الحاضر من يحفظ الأغاني والأهازيج والأمثال الشعبية، والتي كانت ترافق الرجال والنساء على حد سواء، لحظة دخولهم الحمامات الشعبية.

ومن هنا كانت أهمية هذا البحث للمحافظة على هذا الموروث وتدوينه وتوثيقه ودراسته. وما كانت تؤديه حمامات نابلس من خدمات اجتماعية وصحية. وكذلك تناول الوصف المعماري لحمَّامات السوق الباقية بمدينة نابلس، ثم تتناول الدراسة العادات والتقاليد الاجتماعية المتمثلة في الفنون الشعبية من حفلات العرس والختان والفنون الأخرى المتعلقة بالحمَّامات.

وهدفي من وراء ذلك، نقل صورة واضحة عن هذه الطقوس في الحمامات، ولفت نظر أبناء الشعب الفلسطيني عامة ونابلس خاصة إلى أهمية هذه الطقوس من الناحية التراثية والاجتماعية، ليقفوا وقفة إنسان حريص ومحافظ على تراثه القومي والشعبي.

وجعلت البحث في محورين:

- **الأول**: عرضت فيه لأهمية الحمامات من الناحية الاجتماعية.
- **الثاني**: قصرته على الطقوس التي تمارس في حمامات نابلس الشعبية.

تعريف الحمام:

الحمَّام – مشدداً – هو مفرد الحمَّامات؛ وهي بيوت الاستحمام المعروفة، وهو مذكر وليس مؤنثاً كما جاء في التهذيب عن أهل اللسان؛ لأنه من الحميم وهو الماء الحار[١]، والحميمة هو الماء الذي يُسخَّن، فيقال أحموا الماء أي أسخنوه، وأيضاً حَمَّمت الماء أي سخنته، وكل ما سُخِّن فقد حُمِّم. وقال بن بَرِّيّ : وقد جاء الحمَّام مؤنثاً، بينما قال ابن سِيدَهْ : والحمَّام الديماس مشتق من الحميم مذكر تذكِّره العرب والجمع حمَّامات. واستَحَمَّ إذا اغتسل بالماء الحميم، وأَحَمَّ نفسه إذا غسلها بالماء الحار، والاستحمام هو الاغتسال بالماء الحار[٢].

الحمامات الشعبية:

وهي من المنشآت العمرانية التي اشتهرت بها المدن الإسلامية في العصور الوسطى وقصدها الناس من مختلف الطبقات – رجال ونساء– للاستحمام لكون الناس لم تالف في تلك الأوقات الاستحمام في منازلهم كما هو الحال في أيامنا[٣]. وبناء الحمامات العامة ينسجم والعقيدة الإسلامية فالطهارة البدنية لها مكان خاص في فقه العبادات الإسلامية.

وانتشر مثل هذا النوع من المنشآت العمرانية في مدينة نابلس، وقد بلغت درجة من الجودة والتميز جعلت المقدسي يصفها بأنه لهم دواميس عجيبة[٤] ولعلّ شهرة نابلس في إنتاج أنواع الصابون الممتاز التي ذاعت شهرتها في المنطقة قد ضاعف من جودة هذه الحمامات وما تقدمه من خدمات للناس، لذلك يصفها شيخ الربوة بأنها حمامات طيبة[٥] وقد وجد في نابلس أكثر من ثمانية حمامات: (حمام الخليلي، وحمام الريشة، وحمام الدرجة، وحمام القاضي، وحمام التميمي، وحمام الجديدة، وحمام البيدرة، وحمام السمرة) لم يتبق منها إلا اثنان: حمام السمرة وحمام الجديدة .

لعلّ المطلع على بناء الحمامات، سواء أكانت رومانية أم إسلامية – متقدمة أم متأخرة – لا يجد بينهما فرق، إلا من حيث المظهر الداخلي[٦] وعادة ما يكون مغلقاً تماماً من الداخل وجدرانه مبنية من حجر اسمه الحجر الملوكي، وهذا الحجر به مسامات تمتص أول وثاني أكسيد الكربون بمعنى أن الحمام يتنفس من خلال حجارة جدرانه ولا أثر في داخله للرطوبة

إطلاقا، وأما سقف الحمام ففيه فتحات زجاجيه يزيد عددها على ٧٠٠ تدخل من خلالها الشمس، وتزوده بالحرارة طيلة اليوم..أما أرضية الحمام فهي مبلطة بحجر كثيف وصلب يسمى بالحجر السلطاني يُنظَّف بمادة خاصة يحصلون عليها من مصابن نابلس، تعرف باسم الخميرة، وهي مزيج من الزيت والصابون تمنع بقاء اللون الداكن على الأرضية.

حمام الجديدة:

وسميّ حديثاً (حمام الشفاء)، ويقع على مقربة من جامع البيك من جهة الجنوب، وهو حمام ذو تخطيط إسلامي لا يختلف عن بقية الحمامات ويرجع بناؤه إلى سنة ٩٥٢هـ-١٥٣٢م أي قبل ٤٥٠ سنة[٧] وجاء مدخل حمَّام الشفاء – كما جرت العادة في مداخل الحمَّامات – بسيطاً خالياً من الزخرفة يوحي بقدم المكان وعظمته وجمال معماره.

حمام الشفاء ـ باب الدخول:

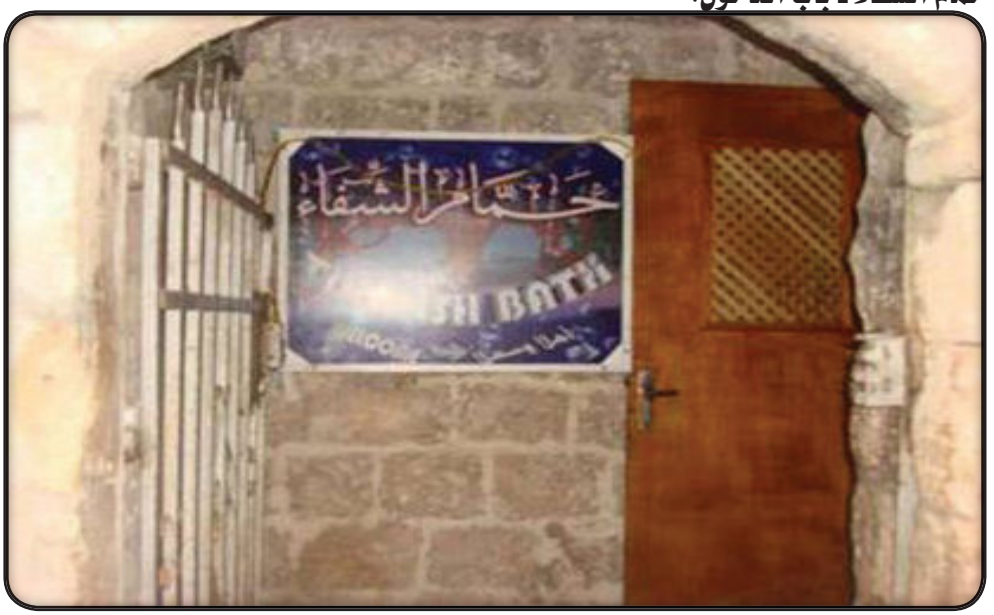

ويؤدي المدخل إلى القاعة الأولى في الحمَّام وهي أغنى قاعات الحمَّام بعناصرها المعمارية والفنية، والتي يُطلق عليها قاعة البراني أو المشلح الصيفي، وهو القسم المخصص لاستقبال رواد الحمَّام ومنه يغادرونه، فيه يخلعون ويرتدون ملابسهم قبل الحمَّام وبعده، كما أنه مُعَّد أيضاً – خاصة للنساء – لإحياء بعض المناسبات الاجتماعية المتعلقة بتقاليد الحمَّام مثل الخطبة والنفاس.

المشلح الصيفي:

وهو قاعة وسطى مربعة المسقط فُرشت أرضيتها ببلاط حجري وتتوسطها فستقية سداسية الأضلاع تنطلق من مركزها نافورة رخامية .

وعلى جوانب القاعة أربعة إيوانات مختلفة الأعماق بعقد حجري

أحد الإيوانات المطلة على القاعة الوسطى

وقد تنوعت طرق تسقيف قاعة البراني بهذا الحمَّام، حيث غُطِّيت القاعة الوسطى بقبة حجرية محمولة على مثلثات كروية ناتجة عن تلاقي أرجل العقود المتوجة لواجهات الأواوين المطلة على القاعة، وقد فُتح قطب هذه القبة على هيئة دائرة يعلوها فانوس زجاجي، بينما غُطي كل إيوان بقبو حجري مدبب.

جانب من قبة المشلح الصيفي:

وتلي القاعة البراني القاعة الوسطى أو ما يعرف بالقاعة الدافئة، و هي القاعة التالية لقاعة البراني، ويربط بينهما باب ضيق يغلق عليه مصراع خشبي، وهي بمثابة القاعة الدافئة بالحمَّام، و يُعْدّ في واقع الأمر مرحلة انتقالية من البراني المعتدل في حرارته إلى القسم الثاني الأكثر حرارة. وهذا القسم من حمام الشفاء هو قاعة مستطيلة المسقط يغطيها قبو حجري نصف برميلي تتخلله فتحات مستديرة مغطاة بالزجاج الملون وهي ما تُعرف بالمضاوي أو القمريات، وقد صممت بهذا الشكل لتسمح فقط بمرور الضوء للقاعة التي تخلو من أي فتحات أخرى لتظل محتفظة بدفئها، وعلى أحد جانبي القاعة مصطبة برسم راحة الرواد وإعدادهم للدخول إلى القاعة التالية الأكثر حرارة.

القاعة التالية الأكثر حرارة:

♦ **قاعة الوسطاني:**

ويلي المشلح الصيفي مباشرة، المشلح الشتوي ويتوسطه هو الآخر نافورة ماء ويستخدم في فصل الشتاء فقط، وهو منطقة تساوي ثلث مساحة المشلح الصيفي، وهي القاعة المؤدية إلى القاعة الرئيسة المعدة للاستحمام حيث الحرارة الشديدة المدرة للعرق، وهي عبارة عن قاعة كبيرة مستطيلة مغطاة بقبو نصف برميلي. وعلى جانبيها الخلوات التي يستحم بها رواد الحمام.

♦ **قاعة الاستحمام الرئيسية**:

وألحقت بها خمس مقاصير أو خلاوي، يغطي كل منها قبة ضحلة بها بعض القماري ذات الزجاج الملون.

♦ **أبواب المقاصير أو الغرف الصغيرة وتدعى الخلوات**

ويقع في ركن من أركان هذه الخلوة جرن، وهو عبارة عن حجر كبير منقور يجمع فيه الماء الساخن وسقفها عبارة عن قبة صغيرة فيها فتحات مغطاة بالزجاج كباقي أجزاء الحمام

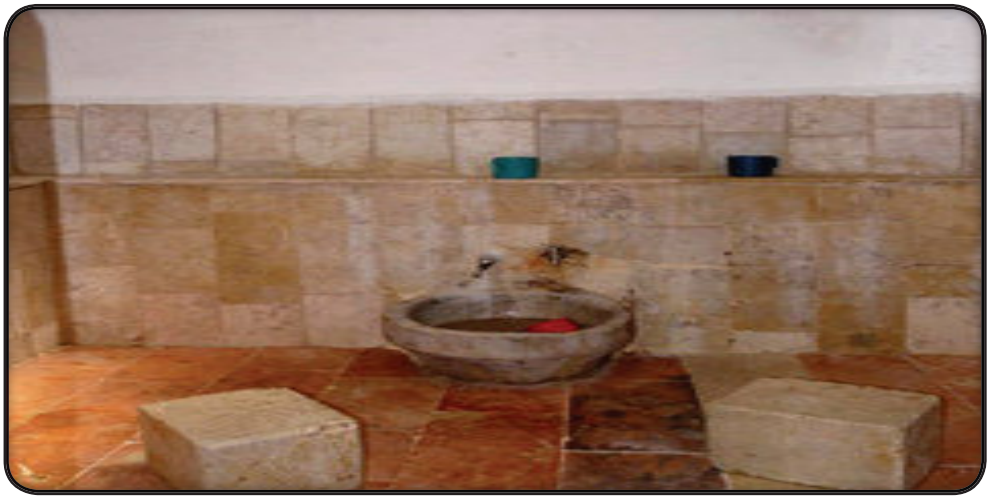

إحدى الخلاوي (الخلوة) من الداخل

♦ **حمام السمرة:**

يقع حمام السمرة في جادة الياسمينة، في الجهة الجنوبية منها، وبالقرب من الطريق المؤدية إلى رأس العين، ويبدو أنه سمي بهذا الاسم لوقوعه في الحي الذي تقطنه الطائفة السامرية في نابلس[٨] وهو أقل مساحة من حمام الشفاء المشار إليه. تضاربت أيضاً أقوال من أرخوا لهذا الحمَّام من الهواة والعامة، فقد ذكر بعضهم أنه يعود إلى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وأشار بعضهم إلى تمام بنائه إلى سنة ١٠٦٧هـ / ١٦١٦م.

يطل حمَّام السمرة على الحارة بواجهة حجرية صماء يفتح بطرفها باب الدخول الذي يؤدي عبر ممر ضيق إلى قاعة الاستقبال

♦ **حمام السمرة : مدخل الحمام**

♦ **حمام السمرة : قاعة الاستقبال (المشلح الصيفي)**

وقاعة الاستقبال هذه لا تختلف كثيراً في تصميمها وعناصرها المعمارية عن مثيلتها بحمَّام الشفاء، تتوسط القاعة أيضاً قاعة مربعة المسقط تتوسطها فسقية مثمنة البدن بوسطها نافورة رخامية، ويسقف القاعة قبة شاهقة ذات قطاع نصف دائري يعلو قطبها المفتوح فانوس زجاجي.

♦ **حمام السمرة : القاعة وتتوسطها نافورة رخامية**

يلي ذلك القاعة الساخنة وتتميز عن نظيرتها بحمَّام الشفاء بوجود مصطبة مستطيلة بوسط أرضيتها، وبكل جانب من جوانب القاعة إيوان صغير يطل عليها بعقد نصف دائري، كما يفتح على القاعة الوسطى أربع مقاصير يغطي كل منها قبة ضحلة بها العديد من القماري الزجاجية الملونة.

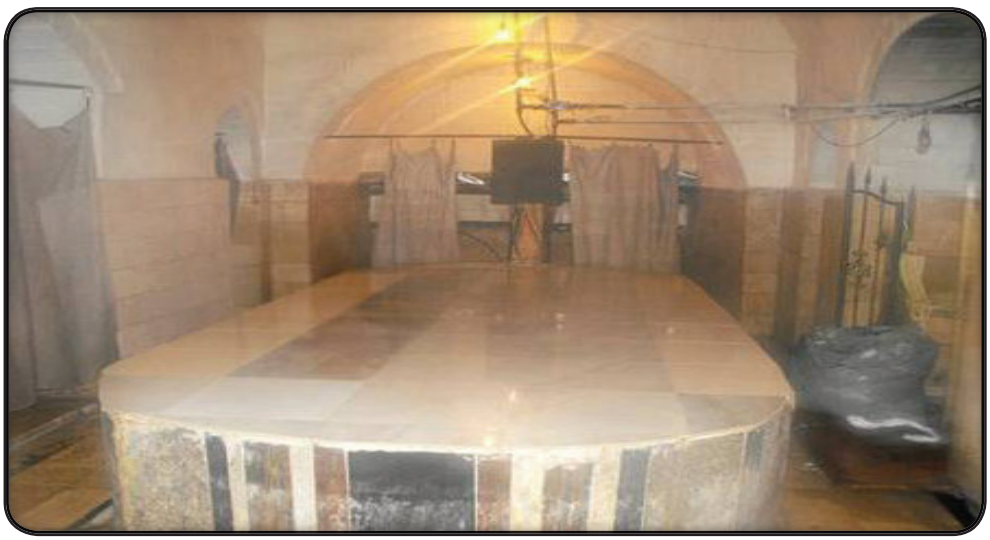

القاعة الجوانية (المشلح الشتوي)

أهمية الحمام في الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

يرجع ازدهار الحمامات في ذلك الوقت لعدم وجود حمامات داخل البيوت، وذلك لعدم وجود شبكة أنابيب توصل المياه للبيوت في فترة الخمسين سنة الماضية. وقد نتج عن ذلك أن أصبح الحمام مؤسسة اجتماعية تؤدي دورها، كمكان للقاء الناس، ففي الحمام يلتقي الناس ويتداولون أحداث الساعة ويتبادلون الأحاديث، وكأنهم في منتدى[٩] حيث كان الحمام مفتوحاً لكل الناس بغض النظر عن طبقتهم الاجتماعية وكان التقسيم الوحيد المتبع هو تقسيم الجنس إذ كان في العادة مفتوحاً فترة الصباح، وحتى آذان الظهر للرجال[١٠] عدا يوماً يخصص بطوله للرجال، فيكون فرصة لمن لا يستطيع أن يأتي قبل الظهر، ويستدل على أن الحمام مفتوح للرجال عن طريق منشفة أو وزرة تعلق على بابه، فإذا وضعت فالحمام يستقبل الرجال، وإذا أزيلت فهذا يعني أنه يستقبل النساء[١١].

أما بالنسبة للسيدات ففي الوقت الذي لم يكن من السهل على المرأة أن تخرج للشارع، والتنقل بالنسبة لهنَ أمرٌ صعبٌ؛ لسيطرة المفهوم الديني الرجعي في فترة الحكم التركي والانتداب البريطاني إذ كانت المرأة تعدُّ من المحرمات، وكان عليها أن تبقى بالبيت أو أن تحتجب بسترة[١٢] وكان الحمام هو المكان الوحيد للالتقاء، وعلى هذا فقد تحول إلى مكان للاجتماع والترفيه، إذ كانت الصديقات يتواعدن على اللقاء في الحمام، يقضين طيلة ما بعد الظهر، وقد يبقين إلى ما بعد الغروب، يأخذن معهنّ طعاما متنوعاً ومنهنّ من تأتي (بأركيلتها) وجهاز قهوتها، ومنهنّ من تأتي بالدربكة والدفوف، ويغنينّ أدواراً وأغاني جماعية، ويتحول الحمام إلى مكان للقاء والاستجمام والنزهة والتسلية، وكان أيضاً المكان المناسب لهن لاستعراض ملابسهن ومجوهراتهن، وكن يستخدمن العطر وماء الورد ببذخ، ويقضين أيضاً وقتهن في تناول الطعام، وغيره من سائر المتع[١٣]. وكانت دائرة معارف السيدات تتّسع ويقمن الصداقات ويتبادلن الأخبار والأحاديث، وكان يقال :ما صحبة إلا صحبة الحمام.

ونتيجة لكون الحمام المكان الصحي الوحيد للنظافة والمكان السهل للقاء، فقد تحول إلى مكان تجري فيه الاحتفالات حسب طقوس معينة في مناسبات خاصة.

طقوس الحمام والأغاني الشعبية النابلسية المرافقة له:

عملية الاستحمام:

كانت الحمامات تفتح للرجال من الفجر إلى الظهر ثم تكون للنساء، وكان بعضها يخصص يوماً بطوله للرجال فيكون فرصة لمن لا يستطيع أن يأتي قبل الظهر[١٤].

والرجال يأخذون معهم ثياباً داخلية نظيفة فقط أما المناشف والوزرات فكانت الحمامات تقدمها، وحين وصولهم إلى المشلح البراني يستقبلهم خدم الحمام، ويقفون أمامهم أثناء خلع ملابسهم، فيلفون قسمهم التحتاني بمنشفة والفوقاني بأخرى ورؤوسهم بثالثة ويقدمون لهم القباقيب الخشبية ويرافقونهم إلى الداخل، حيث يخلعون عنهم المناشف، ويضعون على قسمهم التحتاني الوزرات بعضهم من يغسله المغسل فيفرك جلده بالكيس بعد مكث قليل على بلاط الحمام الحار وبعد المدلك يدخل الخلوة ويجلس حول الجرن في الساحة فيغسله المغسل.ويكون في جانب الأجران طاسات نحاسية صغيرة مسطحة كالصحن فيغرف الرجل بها الماء من الجرن ويصبه على نفسه، وبعد الانتهاء يأتي الخادم بالمناشف فيلف واحدة على وسط الرجل التحتاني، وأخرى على القسم الفوقاني وثالثة على رأسه ويرافقه إلى المشلح البراني، وهنا يغير له المناشف.وتقدم القهوة أو الشاي أو عصير الليمون بعد الاغتسال(١٥).

وبعد انتهاء الفترة المخصصة للرجال تبدأ عملية تنظيف الحمام استعداداً لاستقبال النساء، وتمر السيدات بالمراحل الأولى نفسها التي يتم فيها استقبال الرجال، وتحرص السيدات على أن تكون الخلوة قريبة من بيت النار، تخلع الوزرة لحظة دخولها الخلوة وتضع الوزرة على باب الخلوة لتعلم من بالخارج أن الخلوة مشغولة.

تأتي الحممجية وتقوم بعملية البلّ، أي بلّ الرأس بالماء وغسله بالصابون مرتين ثم بل الجسم بالماء وتكييسه.تترك السيدة عملية الحمام لفترة حسبما يروق لها وذلك من أجل أن يتخمر الجسم وتقوم خلال هذه الفترة إما بالجلوس على بلاط النار ليكتسب جسمها مرونة أكثر أو الحديث مع الصديقات أو الأكل أو شرب النرجيلة، ثم تنتقل إلى المرحلة الثانية من عملية الاستحمام، والتي تدعى الترويض، وهي إعادة فرك الرأس والجسم بعد أن يكون قد تخمر بالماء بعد البلة ويكرر ذلك مرات عدة، وبعد الانتهاء تصطحبها إحدى العاملات إلى المشلح الجواني وتتركها تستريح على إحدى المصاطب ويقدم شراب الليمون صيفاً والقرفة شتاءً. وبعد أن يبرد عرقها قليلاً تؤخذ إلى المشلح الصيفي حيث ترتدي ثيابها وتخرج لبيتها(١٦).

حمام العرس:

حمام العريس:

في اليوم السابق لموعد العرس يستعد أهل العريس للإعلان عن حمام العرس، فإن كان أهل العريس من بسطاء الحال يدعى المقربون من أهله إلى الحمام بعد ظهر اليوم الذي تقام فيه حفلة العرس الذي يجري في يوم العرس ذاته(١٧)، أما إذا كان العريس من

أهل اليسار ويودّ أهله المباهاة باحتفال يليق بمركزهم الاجتماعي والمالي، فإنهم يكلفون منادياً في الأسواق في اليوم السابق ليوم العرس وقبل ظهر يوم العرس ذاته وهذا المنادي يقال له أبو خمش يضع طبلاً تحت إبطه يطبل وينادي: (يا أهل البلد – الحاضر يعلم الغايب– أنتم مدعوون إلى حمام عرس– فلان الفلاني– بعد ظهر يوم كذا – في حمام «الريش» أو «البيدرة» أو..... [١٨] ويعين اسم الحمام، والدعوة عامة إلى آخر النهار، وفي الموعد المحدد يتوافد الأهل والأصدقاء وغيرهم من الراغبين في الحضور إلى الحمام الذي يكون مخلياً لهذه الغاية،

حيث يجري في الحمام قص شعر العريس وتحميمه في خلوة في الحمام بينما أصدقاؤه يغنون ويرددون المدائح، وبعد الانتهاء من عملية الاستحمام يخرج المستحمون إلى مشلح الحمام يجففون أجسادهم ومن ثم يجري تلبيس العريس ثيابه الخاصة بالعرس[١٩] وتقدم المشروبات للجميع[٢٠] وبعد تلبيس العريس يخرج الجميع في موكب الزفة، يتأبط ذراعيه شابان من أصدقائه يرددون:

خرج الزين من الحمام
الله واسم الله عليه
ورشوا لي العطر عليه

وأيضا:

عريسنا زين الشباب
زين الشباب عريسنا

ويمضي موكبهم بالأهازيج والأغاني حول المدينة، ثم يخرج أثناء ذلك الحلاقون ليرشوا العطر على العريس ومن حوله، وكذلك أصحاب دكاكين الحلويات لتقديم الحلوى للعريس والمقربين منه، ترافقهم الأهازيج ومنها:

بعيني شفتك
حاج أمين
لابس بدلة
رسمية
ولما فَرّحِتْ
نابلس
فرحتلك
الأهلية

****

حاج أمين وعزك دام
وأنت يا شيخ الإسلام
حاج أمين الله يديمه
حاج أمين يا عزنا
يا حامي عروبتنا

ويستمرون بالأغاني والأهازيج حتى يصلوا إلى بيت العريس.

حمام العروس:

يطلب أهل العروس إخلاء جميع الحمام لهم ولضيوفهم قبل العرس بيوم واحد ويقومون بدعوة النساء من أهل العريس وقريباتهنّ وصديقاتهنّ إلى الحمام في ذلك اليوم[٢١] وقبيل العرس يرسل العريس الحناء والصابون النابلسي وغيره من لوازم الحمام والأجرة لعروسه[٢٢] وتذهب العروس إلى الحمام العمومي في موكب من النسوة يحملنّ ثياب العروس الخاصة بالحمام ملفوفة ببقجة من القماش المزركش والمقصب، كما يحملنّ الأواني المملوءة بالأرز واللحمة وكذلك الفطير والمتبلات والكعك والفستق الحلبي والقضامة، ويحمل هذه الأواني عدد من الحمالين يتقدمهم لاعبو المزمار وزمرة من الأولاد تحمل الشموع وأغصان الليمون[٢٣] ويكون الحمام قد زين بالزهور والشمع والقناديل. وفي الحمام تكون قريبات العريس بانتظار موكب العروس القادمة للحمام فيستقبلنه بالبخور وماء الورد وبعد استراحة قصيرة في إيوان الحمام يقدم الشراب للمدعوات من قبل أهل العروس، ثم تمسك الصديقات بالعروس وتقوم جميع النسوة مزينات بالأزهار وحاملات للشمع يرقصنّ ويزغردنّ ويغنينّ مع المغنيات المدعوات خصيصاً من أجل المناسبة، وعلى إيقاع الطبل والدف. وبعد أن يدور الجميع حول البركة مع العروسة مرات عدة، توضع العروس على اللوج في أحد أقسام الساحة.

وتقول الحاجة نوال محمد سقف الحيط (أم غازي) : من الزغاريد التي كانت تطلقها النسوة والعروس على اللوج:

ارفعي راسك يا مرفوعة الراس ما فيكي عيبة ولا قالت الناس
ارفعي راسك لعريسك وقوليله إحنا سباكين الذهب والناس لباسة

ثمّ يستمر الطبل والعزف والغناء والزغاريد. وهذه بعض الأغاني التي كانت تقال في المناسبة وهي نابعة من القيم الاجتماعية لمكانة العروس وعلاقتها بأهلها وزوجها

وخصالها[٢٤] مثل:

يـــا وجـــه القمـــر يـــا عروسة ... يـــا مـــدور قمـــر صينيـــة
يـــا بَيِـــكْ خَلالِـــكْ الحمـــام ... وارخـــى لِـــكْ على الجـــرن ثريا
يـــا بَيِـــكْ نفـــق مـــن جيبـــه ... ميـــة ريـــال دق مصريـــة
يـــا وجـــه القمـــر يـــا فـــلان ... يـــا مـــدور قمـــر صينيـــة
يـــا بيـــه جـــاب لـــه العروسه ... العروســـة بألفـــين وميـــه

وأيضا تضيف الحاجة أم لطفي المصري:

عروســـة مباركـــة وعللـــي شراهـــا ... يا ريتهـــا مباركة على جوزها وحماها
يـــا ريتهـــا مباركـــة والقـــدم أخضـــر ... أخذنـــا بنتكـــم ومدللتكـــم
أخذنـــا حقهـــا ورضـــا لبيهـــا ... يـــا بيهـــا خـــير وأعطـــى سماحهـــا
ميلـــي عندنـــا يـــا عروســـة ميلـــي ... ويـــا شيالـــة الحمـــل الثقيلـــة
وحلفـــت مـــا تميـــل إالا بعريسهـــا ... عريسهـــا يـــا عمـــره طويلـــة
إيها إيش هالعريس إللي همّ هالساعة ... إلـــه المشـــورة وبإيده خـــاتم الطاعة

وأيضا:

عريســـ عريســـ لا تنـــدم علـــى المـــالي ... علـــى عروستـــك حواجـــب خـــط القلامـــي
علـــى عروستـــك حواجب قوســـ محنية ... انشاء الله تغلبها بالمال وهي تغلبك بالعيالي

وأيضا:

درج الحمام يا عروسة
على قميصك
ليتك سبع بركات
على عريسك
ودرج الحمام يا عروسه
على عباتك
ليتك سبع بركات
على حماتك
ودرج الحمام يا عروسة
على غطاكي
ليتك سبع بركات
على حماكي

وتقول الحاجة أم غازي سقف الحيط:

وبعد الانتهاء من الرقص حول البركة، تبدأ عملية استحمام العروس وتجميل جسدها بالطريقة البلدية، تساعد الصديقات العروس على خلع ثيابها ويضعن عليها وزرة مقصبة باللون الذهبي أو الفضي خاصة بها، وزراً من الورود وعرق الهوا على صدر العروس، وتلبس قبقاب مصدفاً، كما تلتف السيدات بوزراتهن وتقوم والدة العروس أو إحدى قريباتها بتوزيع الصابون النابلسي على المدعوات، ثمّ ينتقلن بعد ذلك إلى قاعة الحمام المزينة أيضا بالزهور والشموع والقناديل، وتتكاثر الزينة حول خلوة العروس. تتسابق السيدات المقربات لتحميم العروس حيث يأتينّ بمنشفة خاصة مقصبة وليف جديدة وصابون[٢٥].

وبعد أن يقمن بإجراء طقوس الحمام الأولى المعروفة من بلة وتكييس ما بين غناء المغنيات وضربهنّ الطبل والدفوف، يخرجنَ جميعاً بين الزغاريد والأهازيج إلى المشلح الجواني حيث يفرد أهل العروس الطعام، ويستمر الغناء في أثناء ذلك.

يدخل الجميع بعد الطعام ثانية إلى قاعة الحمام حيث يجري الترويض[٢٦]، ثمّ توضع الكلونيا في ماء الجرن للعروس حيث يجري غسلها بها في آخر مرحلة من مراحل الاستحمام. وتكون اثنتان من الصديقات واقفتين مستعدتين بالمناشف البيضاء المقصبة والمعطرة حيث تلفان العروس وتقومان بتنشيفها، ثمّ تمسكانها وتخرجانها ملفوفة بالمناشف إلى المشلح الجواني مصاحبة بالزغاريد والغناء والطبول:

نعيماً حمامك ودامت أيامك وإنشاء الله يفضل عريسك – اللي صرف على حمامك

ثمّ يأتي دور الماشطة الخبيرة بشؤون تجميل الوجه وتصفيف الشعر.

وبعد ذلك ينتقلنّ إلى المشلح الصيفي حيث يتسابق الجميع لتلبيسها ثياب الخروج، والجميع ما بين غناء وزغاريد وأهازيج.

حمام النفسة:

من المناسبات التي كان إخلاء الحمام فيها واجباً هي حالة النفساء، فقد كان يخلى لها الحمام سابع يوم ولادتها[٢٧] وتقول الحاجة نوال سقف الحيط (تؤخذ النفساء إلى الحمام في الأيام الفردية السابع، التاسع، الحادي عشر وأحياناً اليوم الخامس عشر) ويدعى أهلها وأهل زوجها، ويصطحب الأهل معهم عادة الكراوية والفتوت (طبق الأربعين) وتحضر دقة الفتوت عند العطار لاعتقادهم أن اللون يرد للنفساء لونها وكذلك يصطحب الأهل البرتقال أو البطيخ. يدخل الجميع الحمام وبعد أن تبل النفساء توضع قطعة قماش على بيت النار وتفقس بيضتين ويوضع فوقهما الكمون وتجلس النفساء عليها لمدة عشر

دقائق لاعتقادهم أنه يعمل على حماية رحم الوالدة وشدّه، ثم تعطى بيضتان لتشربهما، ثمّ يدهن جسم النفساء بمادة الشدود حيث يُدهن مفصل اليدين وزند اليد والكتف والعمود الفقري والركب وزند الرجلين، وفي أثناء ذلك توزع الفتوت للسيدات، وتتم عملية الحمام كما تجري للعروس، ثم تزف الوالدة والوليد خارج قاعة الحمام ملفوفين بمناشفهما البيضاء المقصبة، حيث تتم باقي مراحل اللبس.

ومن أغاني النفسة :

الحمد لله كنْ زال الشر والحمد لله زرعنا الفلفل إخضر الحمد لله
زرعنا الفلْفلْ إخضر على تم البير صار من القليل كثير
والحمد لله يا لمامة الحمد لله اللي قامت بالسلامة الحمد لله

وتتابع الحاجة أم غازي وتقول: ومن أغاني النفسة التي تداولتها النسوة في هذه المناسبة مأخوذة من الغناء التركي :

حالي يا حالي
أُمّنْ يا حالي
أجونا الصبيان
وانشرح بالي
لبست اللولو
وقلعت اللولو
يحكوا ويقولوا
ولا على بالي
لبست لوليها
قلعت لولويها
قلبي هويها
وانشرح بالي
لبست الشالة
خلعت الشالة
لبست الدمران
خلعت (الدمران) [٢٨]
وبشروا بالصبيان
لأبو فلان الغالي

جابت اللمامة
وشكلت (اللّمامَةْ) [٢٩]
قامت بالسلامة
وشرحتلي بالي

حمام الختان:

شاركت الحمَّامات العامة أيضاً منذ العصر المملوكي مروراً بالعصر العثماني في حفلات الختان كتقليد اجتماعي حيث كانت تستقبل مثل هذه الحفلات التي كانت في معظم الأحيان تصاحب مواكب العُرس إلى الحمَّام[٣٠] والختان التزام ديني في العقيدة الإسلامية، وكانت عملية الختان تجرى بعد سن الرابعة، ويوم الختان يقوم الأهل بدعوة الأقارب والأصدقاء لمشاركتهم الفرحة، وكان الطفل يحمل على فرس عليه جلالة ستان بيضاء مطرزة، ويرتدي هو أيضا ملابس بيضاء وغالبا ما تكون عبارة عن عباءة بيضاء اللون حاملاً مظلة بيضاء مزركشة بالورود والمحارم المطرزة البيضاء، ويسير معه الأهل والأقرباء في موكب كبير قبل إجراء عملية الختان متجهاً إلى الحمَّام وبعد العودة، تُجرى هذه العملية على يد المزيِّن.

ومن أغاني تلك المناسبة:

عبر الختان يا ميمتي خبيني وافتحي الصندوق يا ميمتي ولبسيني
عبر الختان بعدتو الشلبية وحلف الختان ما يطلع إلا بمية
عبر الختان بعدته ومواسه وحلف الختان ما يطلع إلا بشاشه

وأيضا من الأغاني المرافقة لعملية الختان كما جاء على لسان الحاجة أم غازي:

اختنو يا شلبي وسلمو لإمُّه يا دموعك يا فلان نزلت على كمُّه
اختنو يا شلبي بموس الفضة واصبر عليه يا شلبي لحتى يرضى
اختنو يا شلبي واعطيه لأبوه يا دموعك يا فلان يا لولو لضموه
اختنو يا شلبي وأعطيه لسيدو يا دموعك يا فلان نزلت على ايده
اختنو يا شلبي واعطيه لعمه يا دموعك يا فلان نزلت على تمه
اختنو يا شلبي واعطيه لخاله يا دموعك يا فلان نزلت على خلخاله

وهكذا نرى أن الحمَّام بأنشطته المتنوعة ومشاركته في العديد من العادات والتقاليد الاجتماعية في المدن الشامية، كان يمثل مؤسسة اجتماعية قامت بدور مهم في المجتمع الإسلامي على مدى قرون عديدة سواء بالنسبة للرجال أو النساء، وكذلك بالنسبة للقادرين والفقراء، وحتى المعدمين[٣١].

الهوامش:

١. المناوي (الشيخ عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي زين العابدين بن يحيى بن محمد المناوي، ت. ١٠٣١هـ) ، النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية والطبية، حققه وقدم له عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٧، ص١٧ .

٢. ابن منظور (محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ت. ٧١١هـ)، لسان العرب، طبعة جديدة محققة، تحقيق عبد الله علي الكبير و محمد أحمد حسب الله، ج٢، دار المعارف بالقاهرة، د.ت.، ص١٠٠٨ – ١٠٠٩.

٣. العزة، رئيسة عبد الفتاح طلب: نابلس في العصر المملوكي، دار المعرف،نابلس،ص١٩٩٩،١٦٢م.

٤. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٧٤.

٥. شيخ الربوة:نخبة الدهر، ص٢٠٠–٢٠١.

٦. عزت السجدي، آمال: بلدة نابلس القديمة في صور،ص٧٨.

٧. عزت السجدي، آمال: بلدة نابلس القديمة في صور،ص٧٨.

٨. أبو صالح، وائل : الحمامات العامة في مدينة نابلس، ص ٩٥.

٩. نمر سرحان، موسوعة الفلكلور الفلسطيني،الطبعة الثانية، ص ٢١٤

١٠. أبو غزالة،إلهام:حمامات البلد– نابلس– ، مجلة التراث والمجتمع، جمعية انعاش الأسرة، البيرة ، العدد ١ ،مجلد ٣، ١٩٧٤ ،ص ٨٤ .

١١. محمد عزة دروزة،خمسة وتسعون عاماً في الحياة،مذكرات وتسجيلات،ج١،ص١٩٩٣،٣٠)

١٢. أبو غزالة ، إلهام:حمامات البلد– نابلس– ، مجلة التراث والمجتمع، جمعية انعاش الأسرة، البيرة ، العدد ١ ،مجلد ٣، ١٩٧٤ ،ص ٨٣ .

١٣. ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص١٧٣؛ دي شابرول، دراسة في العادات والتقاليد، محمد سيف النصر، منشآت الرعاية الاجتماعية، ص١٦٦؛ منير كيال الحمامات الدمشقية، ص٣١٤)

١٤. محمد عزة دروزة،خمسة وتسعون عاماً في الحياة، مذكرات وتسجيلات،ج١،ص١٩٩٣،٣٠).

١٥. المصدر السابق:،ص٣١.

١٦. أبو غزالة،إلهام:حمامات البلد– نابلس– ، مجلة التراث والمجتمع، جمعية انعاش الأسرة، البيرة ، العدد ١ ،مجلد ٣، ١٩٧٤ ،ص ٨٧ .

١٧. المصدر نفسه.

١٨. المصري، مالك فايز : نابلسيات ، من بواكير الذكريات والوجوه والصور الشعبية ، عمان، الدار الأردنية للثقافة والنشر والإعلام، ط ١ ،١٩٩٠ ، ص ٢١٧.

١٩. المصري، مالك فايز : نابلسيات ، من بواكير الذكريات والوجوه والصور الشعبية ، عمان، الدار الأردنية للثقافة والنشر والإعلام، ط ١ ،١٩٩٠ ، ص ٢١٦.

٢٠. سرحان، نمر:، موسوعة الفلكلور الفلسطيني، ط٢، ص٣١٤.

٢١. أبو غزالة،إلهام:حمامات البلد– نابلس– ، مجلة التراث والمجتمع، جمعية انعاش الأسرة، البيرة ، العدد ١ ،مجلد ٣، ١٩٧٤ ،ص ٨٧ .

٢٢. نمر، احسان:،أحوال عهد الإقطاع، ج٢،مطبعة النصر، نابلس ، ١٩٦١، ص٣١٨.

٢٣. سرحان، نمر:، موسوعة الفلكلور الفلسطيني، ط٢، ص٣١٥.

٢٤. أبو غزالة،إلهام:حمامات البلد– نابلس– ، مجلة التراث والمجتمع، جمعية انعاش الأسرة، البيرة ، العدد ١ ،مجلد ٣، ١٩٧٤ ،ص ٨٧ .

٢٥. أبو غزالة،إلهام:حمامات البلد– نابلس– ، مجلة التراث والمجتمع، جمعية انعاش الأسرة، البيرة ، العدد ١ ،مجلد ٣، ١٩٧٤ ،ص ٨٩.

٢٦. إعادة تحميم الرأس والجسم بعد أن يكون قد تخمرجيداً بالماء بعد البلة ، وتكرر ذلك عدة مرات إلى أن يصبح الجسم يخرج صوتا كصوت الزجاج لدى فركه.

٢٧. أبو غزالة،إلهام:حمامات البلد– نابلس– ، مجلة التراث والمجتمع، جمعية انعاش الأسرة، البيرة ، العدد ١ ،مجلد ٣، ١٩٧٤ ،ص ٩٠.

٢٨. جاكيت يلبس للنفسة في المباركة وهو عبارة عن جاكيت مطرز لونه أزرق إذا كان المولود ذكر، وزهري إذا كان المولود أنثى.

٢٩. عبارة عن عرق ناعم أخضر يشبه النعناع.

٣٠. إدوارد وليم لين، المصريون المحدثون، ص١٠٧؛ محمد سيف النصر، منشآت الرعاية الاجتماعية، ص١٦٥؛ سعاد محمد حسن، الحمامات في مصر الإسلامية، ص١٨.

٣١. سيف النصر، محمد:، منشآت الرعاية الاجتماعية، ص١٦٧.

المصادر المراجع:

١. ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص١٧٣؛ دي شابرول، دراسة في العادات والتقاليد، محمد سيف النصر، منشآت الرعاية الاجتماعية، ص١٦٦؛ منير كيال الحمامات الدمشقية، ص٣١٤)

٢. ابن منظور (محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ت. ٧١١هـ)، لسان العرب، طبعة جديدة محققة، تحقيق عبد الله علي الكبير و محمد أحمد حسب الله، ج٢، دار المعارف بالقاهرة، د.ت.، ص١٠٠٨ – ١٠٠٩.

٣. أبو صالح، وائل : الحمامات العامة في مدينة نابلس، ص ٩٥.

٤. إدوارد وليم لين، المصريون المحدثون، ص١٠٧؛ محمد سيف النصر، منشآت الرعاية الاجتماعية، ص١٦٥؛ سعاد محمد حسن، الحمامات في مصر الإسلامية، ص١٨.

٥. جاكيت يلبس للنفسة في المباركة وهو عبارة عن جاكيت مطرز لونه أزرق إذا كان المولود ذكر، وزهري إذا كان المولود أنثى.

٦. جمعية انعاش الاسرة، ص ٨٧.

٧. جمعية انعاش الاسرة، لجنة الابحاث والتراث الشعبي الفلسطيني، البيرة، عدد ١، مجلد ١، ١٩٧٤.

٨. سرحان، نمر:، موسوعة الفلكلور الفلسطيني، ط٢، ص٣١٤.

٩. سيف النصر، محمد:، منشآت الرعاية الاجتماعية، ص١٦٧.

١٠. شيخ الربوة:نخبة الدهر، ص٢٠٠–٢٠١.

١١. عزت السجدي، آمال: بلدة نابلس القديمة في صور، ص٧٨.

١٢. عزت السجدي، آمال: بلدة نابلس القديمة في صور، ص٧٨.

١٣. العزة، رئيسة عبد الفتاح طلب:نابلس في العصر المملوكي، دار المعرف، نابلس، ص١٦٢، ١٩٩٩م.

١٤. فايز المصري، مالك:، نابلسيات،، ص٢١٦، .

١٥. محمد عزة دروزة، خمسة وتسعون عاماً في الحياة، مذكرات وتسجيلات، ج١، ص٣٠، ١٩٩٣)

١٦. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٧٤.

١٧. المناوي (الشيخ عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي زين العابدين بن يحيى بن محمد المناوي، ت. ١٠٣١هـ)، النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية والطبية، حققه وقدم له عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٧، ص١٧ .

١٨. نمر سرحان، موسوعة الفلكلور الفلسطيني، الطبعة الثانية، ص ٢١٤

١٩. نمر، احسان:، أحوال عهد الإقطاع، ج٢، مطبعة النصر، نابلس ص٣١٨، ١٩٦١.

توصيات المؤتمر

في اليوم السادس العشرين من شهر آذار (مارس) عام ألفين وثلاثة عشر عقدت جامعة القدس المفتوحة مؤتمرها الرابع للتراث الشعبي في مدينة نابلس، بعنوان: «**التراث الشعبي الفلسطيني في محافظة نابلس: هوية وانتماء**» وهو امتداد للمؤتمرات التي عُقدت في محافظات رام الله والقدس والخليل، وقبل إعلان التوصيات والمقترحات التي خلص إليها المؤتمرون، نثمن دور الرئيس محمود عباس «أبو مازن» لما قام به من إرساء دعائم الدولة الفلسطينية المستقلة في الأوساط والهيئات الدولية، ومنها ما تحقق ومنها ما سوف يتحقق بإذن الله وقوة إرادته وتصميمه، فقد تم الاعتراف بدولة فلسطين عضواً كامل العضوية في منظمة اليونسكو، وكذلك الاعتراف بدولة فلسطين كعضو مراقب في الأمم المتحدة. وقد ترتب على ذلك قبول فلسطين كدولة في مؤسسات وهيئات الأمم المتحدة كافة، وهو ما ألقى بظلاله على الحياة الثقافية على التراث الشعبي الفلسطيني، فقد أُدرجت بعض المواقع التراثية والحضارية ضمن قائمة التراث العالمي. نتمنى لسيادته ولكل المخلصين في هذا الوطن التوفيق والنجاح.

كما نثمن دور رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور يونس عمرو لجهوده المتواصلة في إنماء الجامعة وتطورها حيث جعل الوطن في الجامعة كما كانت جامعة في وطن.

أما بالنسبة للتوصيات التي خرج بها المؤتمر فقد أظهرت ما للتراث الشعبي من أهمية ومكانة في تأصيل هذا الشعب وتعميق جذوره، فالتراث الشعبي يؤكد هوية هذا الشعب ويعزز انتماءه إلى أرضه وثقافته ودينه وهويته العربية الإسلامية.

وقد خرج المؤتمرون بتوصيات عدة نرجو أن تحظى بالرعاية والاهتمام من المؤسسات الفلسطينية العامة والخاصة بل من كل فرد من أبناء هذا الشعب الصامد والمرابط والتي منها:

١. المحافظة على التراث الشعبي الفلسطيني لكونه يعزز الانتماء للأرض والوطن والشعب، فهو هوية هذا الشعب القومية والحفاظ عليه واجب مقدس. لذا وجب على كل مؤسسة وطنية عامة أو خاصة القيام بدورها المنوط بها في المحافظة على التراث وتدعيمه.

٢. اعتماد التراث الشعبي المادي منه والمعنوي مقررات تدريس خلال سنوات الدراسة المدرسية والجامعية؛ وذلك لتأصيل التراث والحفاظ عليه وتعزيز الانتماء له.

٣. إيجاد برامج إذاعية وتلفزيونية وتخصيص صفحات في الصحف والمجلات، تتناول التراث وأهميته والمحافظة عليه لأنه هوية الأمة، والعمل على إنتاج أفلام وثائقية، تعمل على تخليد التراث وحفظه وانتشاره.

٤. إنشاء مراكز ومتاحف لجمع التراث الشعبي الفلسطيني المادي والمعنوي، وفتح أبواب تلك المراكز والمتاحف أمام أبناء المجتمع صغيرهم وكبيرهم ليتسنى لهم التعرف عليه ومعرفة أهميته.

٥. إحياء المناسبات الوطنية والاجتماعية والأعياد الرسمية والدينية، وتعزيز ما فيها من قيم اجتماعية، وإظهار البعدين الثقافي والاجتماعي، وما فيها من مظاهر تراثية مهمة.

٦. مواصلة المؤتمرات المتخصصة في الحديث عن التراث وتناوله من جوانبه كافة من قبل المؤسسات الوطنية والعلمية، كما قامت به وتقوم جامعة القدس المفتوحة من خلال مؤتمراتها المتواصلة والمتنقلة في محافظات الوطن كافة، فقد نذرت نفسها أن تعمل لكل منطقة أو محافظة فلسطينية مؤتمراً خاصاً بها.

٧. إحياء التراث ومظاهره المتعددة في القرى والمدن الفلسطينية التي دمرها الاحتلال الصهيوني، والمحافظة عليه بالفعل والممارسة من قبل ابناء هذه القرى، وذلك لإبقائه حياً في نفوس أبناء تلك القرى والمدن بخاصة، وأبناء الشعب الفلسطيني بعامة.

٨. رفع قضايا قانونية محلية ودولية على الاحتلال الإسرائيلي لاسترجاع ما سطا عليه من التراث الشعبي الفلسطيني من خلال حفرياته المتواصلة في الأراضي الفلسطينية.

٩. دعوة المؤسسات الحكومية والخاصة في محافظة نابلس إلى إيلاء التراث الشعبي في المحافظة مزيداً من الاهتمام عبر مؤسسته وتطوير فعالياته وأنشطته على مستوى المحافظة.

لجنة الصياغة

د. عماد إشتية ؛ د. محمد غرابة

المشاركون أوصوا برفع قضايا قانونية على الاحتلال الإسرائيلي لاسترجاع ما قام به من سرقة للتراث

«القدس المفتوحة» تنظم مؤتمر «التراث الشعبي الفلسطيني في محافظة نابلس.. هوية وانتماء»

تحت رعاية الرئيس محمود عباس، وبتمويل من شركة الاتصالات الفلسطينية «جوال»، نظمت جامعة القدس المفتوحة يوم الثلاثاء الموافق ٢٦-٣-٢٠١٣م، **المؤتمر الرابع للتراث الشعبي الفلسطيني في محافظة نابلس هوية وانتماء**.

وحضر المؤتمر كل من: رئيس ديوان الرئاسة د. حسين الأعرج، ورئيس بلدية نابلس غسان الشكعة، ورجل الأعمال الفلسطيني البارز أ. منيب المصري، ومحافظ نابلس جبرين البكري، وأمين سر المجلس الثوري في حركة فتح أمين مقبول ورئيس الجامعة أ. د. يونس عمرو، وأ. د. يوسف ذياب مدير فرع نابلس ورئيس اللجنة المحلية عضو اللجنة التحضيرية للمؤتمر، وحشد غفير من الشخصيات الوطنية.

وأوصى المشاركون في المؤتمر برفع قضايا قانونية محلية ودولية على الاحتلال الإسرائيلي لاسترجاع ما قام به من سرقة للتراث الشعبي الفلسطيني من خلال حفرياته المتواصلة في الأراضي الفلسطينية.

ودعا المشاركون في المؤتمر الذي أدارت عرافته أ. زيزي حسيبا، لاعتماد التراث الشعبي المادي منه والمعنوي مقررات تدريس خلال سنوات الدراسة المدرسية والجامعية؛ وذلك لتأصيل التراث والحفاظ عليه وتعزيز الانتماء له، مؤكدين ضرورة إنشاء مراكز ومتاحف لجمع التراث الشعبي الفلسطيني المادي والمعنوي، وفتح أبواب تلك المراكز والمتاحف أمام أبناء المجتمع صغيرهم وكبيرهم ليتسنى لهم التعرف عليه ومعرفة أهميته.

وطالبوا بإحياء التراث ومظاهره المتعددة في القرى والمدن الفلسطينية التي دمرها الاحتلال الصهيوني، والمحافظة عليه بالفعل والممارسة من قبل أبناء هذه القرى وذلك لإبقائه حيًا في نفوس أبناء تلك القرى والمدن بخاصة، وأبناء الشعب الفلسطيني بعامة.

ودعا المشاركون في المؤتمر إلى إيجاد برامج إذاعية وتلفزيونية وتخصيص صفحات في الصحف والمجلات تتناول التراث وأهميته والمحافظة عليه لأنه هوية الأمة، والعمل على إنتاج أفلام وثائقية تعمل على تخليد التراث وحفظه وانتشاره.

وأكدوا ضرورة إحياء المناسبات الوطنية والاجتماعية والأعياد الرسمية والدينية وتعزيز ما فيها من قيم اجتماعية وإظهار البعدين الثقافي والاجتماعي وما فيها من مظاهر تراثية مهمة.

وأشار المشاركون إلى أهمية مواصلة المؤتمرات المتخصصة في الحديث عن التراث وتناوله من كافة جوانبه من قبل المؤسسات الوطنية والعلمية، كما قامت وتقوم به جامعة القدس المفتوحة من خلال مؤتمراتها المتواصلة والمتنقلة في كافة محافظات الوطن، فقد نذرت نفسها أن تعمل لكل منطقة أو محافظة فلسطينية مؤتمرًا خاصًا بها.

ودعوا المؤسسات الحكومية والخاصة في محافظة نابلس إلى إيلاء التراث الشعبي في المحافظة مزيدًا من الاهتمام عبر مؤسسته وتطوير فعالياته وأنشطته على مستوى المحافظة.

الجلسة الافتتاحية:

وكان المؤتمر افتتح بكلمة للدكتور حسين الأعرج ممثل سيادة رئيس دولة فلسطين محمود عباس، حيث حيا الحضور باسم الرئيس الذي كلفه أن يمثله في هذا المؤتمر.

وأكد الأعرج أن شعبنا الفلسطيني يناضل من أجل هويته الفلسطينية التي جسدتها القيادة دوليًا في الأمم المتحدة، وجسدت أيضا من أكبر دولة في العالم عندما انحنى الرئيس الأميركي للعلم الفلسطيني لدى زيارته لفلسطين، وكانت زيارته لفلسطين زيارة دولة.

وأوضح أن شعبنا الفلسطيني منتم لدولته الفلسطينية وعلينا أن نجسد هذه الدولة في العمل، مشيرًا إلى أن الإسرائيليين بعد سرقة الأرض يحاولون سرقة التراث لذلك نحن بحاجة لتجسيد التراث في حياتنا بمختلف مناحيها، وكذلك يجب أن تجسد الهوية في مؤسسات الدولة، عبر بنائها وبناء اقتصاد وطني قوي، وبناء فكر فلسطيني قوي.

وأوضح أن فلسطين تلعب دورًا مميزًا على المستوى الإقليمي، وقال: «وقفنا على مسافة واحدة من كل ما يجري في العالم العربي من ثورات رغم احترامنا لاختيارات الشعوب، والكل يكن كل الاحترام لقيادتنا الشرعية المنتخبة، ولكن يؤسفني أن أقول إننا نواجه صعوبات على الساحة الداخلية نتيجة الانقسام المؤسف الذي يجب أن ينتهي لأنه يضعف موقفنا الإقليمي والدولي».

وقدم شكره لجامعة القدس المفتوحة على الجهد المبذول في إخراج المؤتمر، شاكرًا القائمين عليه من الجامعة، وأكد سعادة الرئاسة لمشاركتها في هذا المؤتمر، متمنيًا له النجاح.

من جانبه، حيّا أ. د. يونس عمرو رئيس الجامعة، الحضور وعلى رأسهم محافظ نابلس ورجل الأعمال منيب المصري، وكل القائمين على هذا النشاط، والضيوف، وقال: «أرحب بكم ونحن نحتفل اليوم في رحاب نابلس بالمؤتمر الشعبي الفلسطيني في محافظة نابلس، باعتبار الشعب الفلسطيني يمثل لبّ الفكر العربي والإسلامي على مر العصور لأننا نعيش في قلب الوطن العربي والعالم، من خلال القدس الشريف التي اعتبرت بوابة الأرض إلى السماء».

وأضاف أ. د. عمرو: «شعب فلسطين كان دائمًا الأمين على الفكر العربي والإسلامي عبر العصور، وجامعة القدس المفتوحة حامية التراث وبالأمس خلدت ذكرى الشاعر الكبير عبد الرحيم محمود واليوم تحتفي بالمؤتمر الرابع للتراث في فلسطين، الذي يعقد في كل عام في محافظة والعام الجاري يعقد في نابلس، لأنها تشكل المدينة العريقة في تاريخها الفكري والعلمي الفلسطيني»، منوهًا إلى أن نابلس ومنذ العشرينيات من القرن الماضي كانت تمتاز بمعهد النجاح الذي أصبح جامعة النجاح الوطنية.

وأكد أ. د. عمرو أن نابلس مدينة الاقتصاد والصمود والعمل الدؤوب، واصفًا إياها بـ»دمشق فلسطين»، وأن المؤتمر يعقد بأيدي باحثين من جامعة القدس المفتوحة وغيرها، متمنيًا لهم التوفيق فيه وفي المؤتمرات الأخرى.

في السياق ذاته، أكد عضو اللجنة التنفيذية ورئيس بلدية نابلس غسان الشكعة، أن الحديث عن التراث الشعبي يعني حديثًا عن الجذور والتاريخ والحضارة والوجود والهوية. وأضاف: «وطن بلا تراث هو وطن بلا حضارة، والتقاليد والعادات والتراث هي هوية للوطن والشعوب، والموروث الفني والتاريخي لأي أمة يعتبر عصب تقدمها».

ولفت الشكعة إلى أن الحديث عن التراث الفلسطيني يعني الحديث عن وجودنا في فلسطين التي قدسها الأنبياء وطهرتها الكتب السماوية، ففلسطين تستحق منا أن نحافظ على هويتها وتاريخها.

وأوضح أن أهمية المؤتمر تؤكد أن الاهتمام بالتراث يعتبر أولوية كبرى، ولا أشك لحظة أن وزارات كالثقافة والسياحة والجامعات تلعب دورًا مهمًا في هذا المجال، مؤكدًا أن بلدية نابلس تولي البلدة القديمة أهمية كبيرة، لذلك أنشأت وحدة خاصة لمتابعتها والحفاظ على التراث فيها.

وتمنى على أ. د. يونس عمرو، وعلى فرع نابلس، أن يكونوا فريقًا مشتركًا للعمل على تطوير البلدة القديمة لتنال ما تستحقه، خصوصًا بعد أن نالت فلسطين عضويتها في اليونسكو.

وأضاف أن هذا المؤتمر هو خير دليل على أهمية التراث والشعور بالمسؤولية من قبل القدس المفتوحة تجاه تراث وطنها، مؤكدا أهمية تسويق فلسطين إعلاميا لتشجيع السياحة إليها وتنظيم المعارض الفنية التي تشكل إضاءات مهمة لتاريخنا وتراثنا.

من جانبه، أكد أ. د. يوسف ذياب مدير فرع نابلس ورئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر، أن المؤتمر يدرس جدلية التراث الشعبي في محافظة نابلس، كي يتم التشخيص عن واقع الحال والمساهمة في استنهاض أصالتنا وإعمار بيوتنا العتيقة، لتكون شاهدة على أمجادنا.

وقال: «نستطيع من خلال المؤتمر أن نسهم في تكريس معالم الانتماء الوطني الكبير كجزء من مسؤوليتنا المجتمعية البارزة إزاء تراثنا الغابر وإنقاذه وتكريس ممارسته وتأصيله في النفوس»، مستذكرًا موقف رئيس الوزراء د. سلام فياض في دعم إنشاء مبنى فرع نابلس التعليمي، وتبرع السيد منيب المصري ببناء وتشطيب المكتبة في فرع نابلس، والصندوق العربي الكويتي للانماء الاقتصادي والاجتماعي على تبرعه بمبلغ مليون دولار لصالح الفرع، وكذلك كل فعاليات ومؤسسات نابلس في الداخل والخارج وعلى رأسها بلدية نابلس وغرفة التجارة والصناعة في المدينة، وجمعية البيارة في أبو ظبي وملتقى رجال الأعمال لوقفتهم في إنجاز مشروع مبنى الجامعة».

جلسات المؤتمر:

وكانت عقدت جلستان على هامش المؤتمر، الأولى جاءت بعنوان» التراث الشعبي الفلسطيني في محافظة نابلس (قيم وأصالة وإنتماء)» ترأسها المهندس نصير عرفات. وقدم فيها الباحثان د. مفيد عرقوب ود. حسين الدراويش دراسة استكشافية بعنوان «من القيم الدينية المتأصلة في المثل الشعبي». وعرضت ورقة بعنوان «التراث الشعبي الفلسطيني– الواقع المسيحي» للأب يوسف سعادة. وقدم أ. د. محمد جواد النوري ورقة بعنوان «من السمات اللغوية للهجة مدينة نابلس الفلسطينية». وعرضت ورقة بعنوان «الملامح الأسطورية في الحكاية الخرافية (حكاية جبينة نموذجا)» للباحث أ. د. إحسان الديك. وقدم د. عمر عتيق ورقة بعنوان «الشعبونة في مدينة نابلس بين التقاليد والدين». وقدم د. شامخ علاونة ورقة بعنوان «الأسواق الشعبية التاريخية في مدينة نابلس». كما عرضت ورقة بعنوان «المزارات نفحات إيمانية وتثبيت الهوية» للدكتور أحمد بشارات.

وجاءت الجلسة الثانية بعنوان «التراث الشعبي الفلسطيني وتجلياته في محافظة نابلس»، وترأسها الأستاذ نبيل علقم عرضت خلالها ورقة بعنوان «أدب الأمثال الشعبية في المأكولات النابلسية» للباحث د. زهير ابراهيم. كما قدمت ورقة بعنوان «التراث السامري في نابلس» للاستاذ اسحاق السامري. وقدم د. عبد الرؤوف خريويش وم. طاهر باكير ورقة بعنوان «الأغنية الشعبية النابلسية». وقدمت ورقة بعنوان «الحناء في التراث الشعبي الفلسطيني (نابلس نموذجًا) للدكتور طالب الصوافي. كما عرضت ورقة بعنوان «الحكاية الشعبية النابلسية» لـ أ. سرفناس حمد. وعرضت دراسة ميدانية بعنوان «واقع المصنوعات القشية الشعبية التراثية في منطقة نابلس بين الأصالة والانتماء والطمس والاندثار» للباحث د. ادريس جرادات. كما قدمت ورقة بعنوان «طقوس الحمامات الشعبية في مدينة نابلس» للاستاذة رائدة عيسى.

جامعة القدس المفتوحة
المؤتمر الرابع للتراث الشعبي الفلسطيني
في محافظة نابلس
هوية وانتماء
برنامج المؤتمر

عريف المؤتمر: أ. زيـزي حسيبا.
التسجيل: ٩:٠٠ - ٩:٣٠
الافتتاح: ٩:٣٠ - ١٠:٢٠

- تلاوة من الذكر الحكيم.
- السلام الوطني وقراءة الفاتحة على أرواح الشهداء.
- كلمة اللجنة التحضيرية للمؤتمر أ.د. يوسف ذياب عواد.
- كلمة رئيس جامعة القدس المفتوحة أ.د. يونس عمرو.
- كلمة رئيس بلدية نابلس أ. غسان الشكعة.
- كلمة ممثل شركة جوال.
- كلمة سيادة الرئيس محمود عباس - أبو مازن يلقيها نيابة عنه د. حسين الأعرج / رئيس ديوان الرئاسة.

الجلسة الأولى: ١٠:٣٠ - ١٢:٣٠

التراث الشعبي الفلسطيني في محافظة نابلس (قيم وأصالة وانتماء) — رئيس الجلسة: م. نصير عرفات

عنوان البحث	الباحث
من القيم الدينية المتأصلة في المثل الشعبي (دراسة استكشافية)	د. مفيد عرقوب + د. حسين الدراويش
التراث الشعبي الفلسطيني - الواقع المسيحي	الأب/ يوسف سعادة
من السمات اللغوية للهجة مدينة نابلس الفلسطينية	أ.د. محمد جواد النوري
الملامح الأسطورية في الحكاية الخرافية (حكاية جبينة نموذجا)	أ.د. إحسان الديك
الشعبونة في مدينة نابلس بين التقاليد والدين	د. عمر عتيق
الأسواق الشعبية التاريخية في مدينة نابلس	د. شامخ علاونة
المزارات نفحات إيمانية وتثبيت للهوية	د. أحمد بشارات

استراحة: ١٢:٣٠ - ١٢:٤٥
الجلسة الثانية: ١٢:٤٥ - ٢:٤٥

التراث الشعبي الفلسطيني وتجلياته في محافظة نابلس — رئيس الجلسة: أ. نبيل علقم

عنوان البحث	الباحث
أدب الأمثال الشعبية في المأكولات النابلسية	د. زهير إبراهيم
التراث السامري في نابلس	أ. اسحاق السامري
الأغنية الشعبية النابلسية	د. عبد الرؤوف خريويش + م. طاهر باكير
الحناء في التراث الشعبي الفلسطيني (نابلس نموذجا)	د. طالب الصوافي
الحكاية الشعبية النابلسية	أ. سرفناس حمد
واقع المصنوعات القشية الشعبية التراثية في منطقة نابلس بين الأصالة والانتماء والطمس والاندثار (دراسة ميدانية)	د. إدريس جرادات
طقوس الحمامات الشعبية في مدينة نابلس	أ. رائدة عيسى

توصيات المؤتمر: ٢:٤٥ - ٣:٠٠
تناول الغداء: ٣:٠٠ - ٤:٠٠

المؤتمر الرابع للتراث الشعبي الفلسطيني
في محافظة نابلس
هوية وانتماء

بدعم من: جوال

جامعة القدس المفتوحة

مهرجان التراث الشعبي
في محافظة نابلس

نابلس / مدينة القلعة / قرب الملعب البلدي
الأربعاء ٢٠١٣/٣/٢٧ م

برنامج المهرجان

عريفا المهرجان: أ. لوسي حشمة والشاعر مثقال الجيوسي

الافتتاحية ٣:٣٠ ـ ٣:٤٥	
كلمة عطوفة محافظ نابلس اللواء/ جبرين البكري	
كلمة رئيس اللجنة التحضيرية أ.د. حسن السلوادي	

فعاليات المهرجان الفني ٣:٤٥ ـ ٦:٤٥	
دق مزاهر (موشحات شامية فلسطينية) / الشيخ جميل المصري	٣:٤٥ – ٤:٠٠
زجل شعبي / نجيب صبري	٤:٠٥ – ٤:٢٠
عروض تراثية / فرقة أكاليل	٤:٢٢ – ٤:٤٠
دبكة شعبية / فرقة عصيرة الشمالية	٤:٤٠ – ٤:٥٥
حكايا نابلسية / طاهر باكير	٥:٠٠ – ٥:١٥
زجل شعبي / يونس أبو جابر	٥:٢٠ – ٥:٤٠
تراث أدبي شعبي: ذكريات زمان / أ.د. يوسف ذياب عواد	٥:٤٥ – ٦:٠٠
تراث موسيقي / الفنان مفيد حنتولي	٦:٠٥ – ٦:٢٠
زفة عريس (عرس نابلسي) / عماد الصابر	٦:٢٥ – ٦:٤٥

مهرجان التراث الشعبي
في محافظة نابلس

بدعم من: جوال

KORG

تحت رعايه
وائرة العلا
القلعة
جامعة القدس المفتوحة